أدونيس

الكتاب

أمس المكان الآن

II

www.alexandra.ahlamontada.com منتدى مكتبة الاسكندرية

علي مولا

دار الساقي

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

الكتاب

أمس المكان الآن

خطوط الغلاف: محمد سعيد الصكّار

أدونيس

الكتاب

أمس المكان الآن

مَخْطُوطَةٌ تُنسَبُ إلىٰ المتَنبّيْ
يُحقّقُهَا وَيَنشُرُهَا أدُونيسٌ



دار الساقي

© دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩٨

ISBN 1 85516 740 9

دار الساقي

بناية تامت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Tel: 0171-221 9347, Fax: 0171-229 7492

للمؤلف

مجموعات شعرية

قصائد أولى، ١٩٥٧.

أوراق في الرِّيح، ١٩٥٨.

أغاني مهيار الدمشقي، ١٩٦١.

كتاب التحوُّلات والهجرة في أقاليم النَّهار واللَّيل، ١٩٦٥.

المسرح والمرايا، ١٩٦٨.

هذا هو اسمي، ١٩٧١.

مفرد بصيغة الجمع، ١٩٧٥.

المطابقات والأوائل، ١٩٨٠.

كتاب الحصار، ٨٢ ـ ٨٥، ١٩٨٥.

شهرة تتقدَّم في خرائط المادَّة، ١٩٨٧.

احتفاءً بالأشياء الواضحة الغامضة، ١٩٨٨.

أبجديَّة ثانية، ١٩٩٤.

الكتاب ـ I ، دار الساقي ١٩٩٥.

دراسات

مقدّمة للشِّعر العربي، ١٩٧١.

زمن الشِّعر، ١٩٧٢.

فاتحة لنهايات القرن، ١٩٨٠.

سياسة الشعر، ١٩٨٥.

الشعرية العربية، ١٩٨٥.
كلام البدايات، ١٩٨٩.
الصوفية والسوريالية، ١٩٩٢.
ها أنت أيها الوقت، ١٩٩٣.
النظام والكلام، ١٩٩٣.
النصّ القرآني وآفاق الكتابة، ١٩٩٣.

مختارات

ديوان الشِّعر العربي (ثلاثة أجزاء، مقدّمة) ١٩٦٤ ـ ١٩٦٨.
مختارات من شعر السَّياب (مع مقدّمة).
مختارات من شعر يوسف الخال (مع مقدّمة)، ١٩٦٢.
مختارات من شعر شوقي (مع مقدّمة)، ١٩٨٢
مختارات من نصوص الكواكبي (مع مقدّمة)، ١٩٨٢.
مختارات من نصوص محمد عبده (مع مقدّمة)، ١٩٨٣
مختارات من نصوص محمد رشيد رضا (مع مقدّمة)، ١٩٨٣
مختارات من شعر الزهاوي (مع مقدّمة)، ١٩٨٣.
مختارات من نصوص محمد بن عبد الوهاب (مع مقدّمة)، ١٩٨٣.
(الكتب الستّة الأخيرة أُختيرت وقُدِّم لها، بالتَّعاون مع خالدة سعيد).

ترجمات

الأعمال المسرحيَّة الكاملة لجورج شحادة، ١٩٧٥.
الأعمال الشعريَّة الكاملة لسان ـ جون بيرس، ١٩٧٦.
الأعمال الشعريَّة الكاملة لإيف بونفوا، ١٩٨٦.
مسرحيَّة فيدر لراسين، ١٩٧٥.
الشَّقيقان العدوَّان لراسين، ١٩٧٥.

القسم الأول

I

خُذْ ما تَراهُ، وَدَعْ شَيئاً سمعتَ بهِ،
في طَلْعَةِ الشّمسِ ما يُغْنِيكَ عن زُحَلِ.

المتنبي

١٦١ هـ.

ـ أ ـ

الجحيمُ التي كان لِلرّاويه
أن يتوغّل في نارِها
دونَ أن يبلغ الهاوِيَة،
فَرّ منِ هَوْلِها إليّ
يتفَيّأُ في مقلتيّ.
قال، تأتي وتأخذ فيها
مكاني،
ليلُها غامِرٌ
والصّراط إليها
ضيّقٌ، شائِكٌ.

ـ أ ـ

قال[1] تأتي معي
حَلَبٌ تَتَهَيْدَبُ أيّامُها
بالفتوح: الشّمالْ
يتقلّب في نارها
والجنوبُ قريبٌ
غريبٌ.
كيف لا أستجيب لهذا السّؤالْ،
تاركاً سفنَ اللّيْلِ
تُبحر في شمسِ أنطاكيه؟

أَلوداع الوداعَ لأنطاكيهْ، ـ
أَتُراها ولادتيَ الثانيه؟

* يتنوّر أيّامَهُ:
كلّ شيءٍ ضِياءٌ له ودليلٌ.
وجههُ شَمْسُهُ،
وتباريحهُ
أفقٌ باذِخٌ يَتَصَاعَدُ فيهِ.

(١) القائل هو سيف الدّولة، عندما كان في أنطاكية. سنة ٣٣٧ هـ.

١٦١ هـ.

- ٢ -

لا أجيئ، إذا كان في كلّ دربٍ
دليلٌ وضوءٌ - أجيئُ،
إذا انطفأ الضّوءُ،
وارتطمَ العابرون الحيارَى
بحجارة سِجّيلهمْ.

وأجيء، إذا كان لي أن
أَشقّ طريقَ الجحيمِ،
إلى آخر الجحيمْ.

- ب -

يَلْتَقي شاعرٌ وأميرٌ
شاعِرٌ يقرأ الوقتَ في شعرهِ
أميرٌ
يقرأ الوَقْتَ في صُحفٍ من دماءْ،
ويُسِرُّ: «هوًى غامِضٌ شَدّ
قلبي وعقلي إليهِ...
تُراها
بيعتي، أم تُراها
بيعة المتنبي؟»

ما أمرَّ اللّقاءَ، وما أغمضَ اللّقاءَ، وما أعذب اللّقاءْ.

* صوته يتموّج في أُذُنِ الوَقْتِ والوقت يُملي أَعَاصِيرَهُ:
نسْغُ هذا الفضاءْ
سائِلٌ يتقطّرُ من فلَكِ الكبرياءْ.

١٦١ هـ.

- ٣ -

حسناً
أتنوَّر في سفري نحو نفسي،
ونحو المدائنِ والنّاس،
شعري، وأنتبذ الراويهْ.

لا دليلٌ سوى الشّعر ـ
يبتكرُ الهاويه
ويُصادِق معراجها الكريْم.

فَلْيجيءْ نحويَ الفضاءْ
لِيَجيءْ مثْلَ طِفْلٍ،
نَقيًّا وحُرًّا
لأَخطَّ عليه
ما روته النجوم لعينيّ هذا
المساء.

- ج -

ـ جالساً[1]، سوف أقرأ شعريَ بين
يديكَ، ولن أنحني
مِثلَ غيري: أقبّل بينهما الأرض،
لكنّني
سأعانِقُ فيك السّماءْ
وأقبّل كلّ علوٍّ.

ـ أَأُخاصمك الآن؟ لا، لن أخالِف
ما قلت. خيرٌ.
لكَ ما شئتَهُ،
لم يَشأْهُ سِوايَ ولا شَاءه الشّعراءْ.

* ربّما،
لاشفاءٌ لجرحكَ إلاّ
في يَديْ وردَةٍ
لم تلامسهما يداكْ.

(١) حوار بين المتنبي وسيف الدّولة.

١٦١ هـ

- ٤ -

أَتُرانَي حقًّا أجورُ، إذا
قلتُ ما لا يُقالُ؟ ولكن
كيف أطمسُ ما يطمسُ
الجَوْرُ والبَغْيُ؟
ما الشّعر إن لم يرَ الجَذْرَ،
إنّ لم يُضِئْنا؟ وما الضّوءُ
في الشّعر، إن لم يُنوّرْ
دُجُنّةَ أيّامِنا، وَيُزَلْزِلْ
وَهْمَ تاريخنا؟

كرّروا ما تشاؤون ـ أنتم
للعروش وأهوائِها،

- د -

أَلمساءُ، صديقُ العنادلِ، يَتركُ مزمارَهُ
في يَديَّ، ويَمضي
طائفاً، سائلاً.

وأراهُ يفكّ جدائل صَفْصَافَةٍ
ويغطّي بها كتفيهِ.
أَلمساءُ صديقي، صديقُ العنادلِ،
يَشْطَحُ في صمتهِ.

* عندما يُصبح الغيب ثوباً لجسمكَ،
والشمس رمّانةً في يديك،
كيف لا تولد الأرضُ من أوّلٍ
في خطاكَ، وفي ناظريكْ؟

١٦١ هـ.

للسيوف التي تتناسَل فيها،
لأبنائِها
وأبناء أَبْنَائِها،
كرّروا، أَنْشدوا:
لكِ حَشْدُ القبائلِ،
حَذْوُ القوافِلِ،
والعالِياتُ القصورْ
وأنوارُها السّاطِعَهْ،
واتركوني أنا لِضلالي
لن أفيءَ إلى ظِلكم
وذخرتُ لصوتي هوًى آخراً،
وَمَدىً آخراً
وسأبقى رفيقاً أميناً لبيدائيَ الواسِعهْ.

ـ هـ ـ

ناقتي ـ أَتَغْلْغَلُ في وخْدِها:
ألمحُ الموجَ فيه
والصّحارَى ـ أرَى النّخْلَ، كلاّ،
وَخْدُها حيرةٌ والتباسٌ،
ودُرُوبٌ إلى
أرضِها، خفيّهْ.

أَتُراها ـ
حَلَبٌ بين أَهْدابها
أَمْ تُراهُ الحنينُ إلى اللاّذقيّهْ؟

* شَغفي أن أربّيَ سِرّي كطفلٍ،
شَغفي أن أفيءَ إلى بُرْعمٍ
وأخبّىءَ حبّي
في أساريرِهِ.

١٦١ هـ.

- ٥ -

لابنِ الكلبيّ، وسَيْفٍ، وأبي مِخْنَفْ[1]،

تاريخُ رمالٍ

يتأرجَحُ في عرشِ دامٍ،

في عَبَثٍ مُسْتَأْنَفْ.

- و -

أَتُراهُ شِعري

نجمٌ رَحّالٌ

في صحراء المعنى -

يَتَعَهَّد واحاتِ

ويشقّ مجاريَ في الأصواتِ وفي الكلماتْ؟

أَتُرَاهُ قلبي

قَمَرٌ بَطّالٌ

يَسْكنُ في حَرَمِ الأحلام، ويبني

مُدُناً لِلتّيه وللِشَّهَواتْ؟

* لِلفضاءِ طيورٌ تخطّ السّماءَ -

نبوَّاتِها ورؤاها،

رُقَعٌ من سحابٍ بِلون السَّلَمْ

كلّ طيرٍ قلَمْ.

(١) أبو مخنف، سيف بن عمر، ابن الكلبي: إخباريون ومؤرِّخون قُدامى.

١٦١ هـ.

- ٦ -

أتقفّى، أُوغِلُ في الآثار،
وفي التّاريخ، وفي ذاكرتي -

- أ -

حُوصِرَ هاشِمُ[1]، أشعلَ ناراً:
«لن يَلمَسني سَيفٌ
أهلي ونسائي
سيموتون كمثلي.
نارٌ - ألطفُ بَرْدٍ
في أَنْعَمِ دارٍ».

- ب -

أَعطاهُم سُمًّا، أو هذا
ما أُخْبِرَ عنه، وهوَى كلُّ

- ز -

جَرّتِ الشّمسُ أردانَها
في رواق الغروب، وأعطت قناديلَها
للمساءْ.
أَلسّهولُ خِيامٌ
تتلاَقَحُ فيها
شَهَواتُ الشَّجَرْ،
والنّجوم كمثل النّساءْ
يَتَفَحَّصْنَ أجسادهنَّ،
ويَفتقْنَ ثوبَ القَمَرْ.

* أَتُرى يعرف الماءُ أنّ الشّرَرْ
وحيهُ المُنْتَظَرْ؟

(١) هاشم بن حكيم، المقنّع. وقيل اسمه عطاء. كان يتبرقع بحريرٍ أخضر، أو بوجهٍ من الذهب. قيل أحرق قلعته رافضاً الاستسلام. قائلاً لمن معه:
«من أحبّ أن يرتفع معي إلى السماء،
فَلْيُلقِ نفسه معي في هذه النّار».
يقول المعرّي، مشيراً إليه:
أَفِقْ، إنما البَدْرُ المقنّع رأسَهُ
ضَلالٌ وغيٌّ مثل بَدْرِ المقنّعِ.

١٦١ هـ.

في اللّهب الصّاعدِ نحو اللّهِ،
أَتَوْهُ -
أخذوهُ ميتاً، قطعوا الرّأسَ، اسْتبشاراً
ومَضوا. حملوه للمهديّ،
وكان مقيماً في حَلبِ.

- جـ -

هاشِمُ كان يقول: «إلهٌ
يَتجسَّدُ فِيَّ، دَعُوني
أَتبرقَعْ حتّى
يكملَ فِيَّ تجسّدهُ، ثمّ سأكشف عن ذاتي
لِتروني - سَأُبيحُ لكم
ما شِئتُمْ».

- ح -

حَلَبٌ - أَتُراهُ السّحابُ الذي ينزلُ
الآنَ عن كتفيَّ، يَسيرُ إليها؟
لأَقُلْ إنّه رفيقي:
رَحِمٌ لِلتخيّل، أم للحنينِ؟
أقول لِظنّي تَمَهَّلْ
حسبيَ الآنَ أَنّي قريبٌ إليها -
حامِلٌ شَمسَهَا
حاضنٌ ظلَّها.

سأقولُ لهذا الفضاءِ المنوَّرِ: كنْ مِثْلَها.

* شهوة الشّمس تُغلِقُ شُبَّاكَها:
مِتْعةٌ أن نرَى اللّيلَ يأوي إليهِ
ويُوَشْوِشُ قُضبانَهُ.

١٦٢ هـ.

- ٧ -

- أ -

خرجوا[١]،

اسْتَبْسلُوا،

أُبِيدوا.

- ب -

قُتِلَ اليَشكريُّ[٢]، وبُدِّد أنصارهُ في الجزيرَة،

ودَمُ البربريّ، ودحيةَ والبرلسيّ[٣] يَسيلُ على جَسدِ البيرةِ: الأميرُ يُحبّ الرّقادَ على جُثّة الأميره.

- ط -

يكتب الشّعرُ وَحْيَ الصّداقةِ

في كتبٍ جامِحَهْ -

هذه آيةٌ:

فَجْرُ تاريخنا

قائِمٌ قاعِدٌ،

هُوذَا يَنْحَني -

يتربَّعُ في أوّل العِطْر،

يَقْرَأُ للماء، لِلْعُشْب، للشَّجَرِ

الفاتِحهْ.

* تعجب الأرض من ذلك الهباءِ
الذي يتحدّرُ من آدمٍ،
وتؤكّد سُكْراً بِهِ:
لن أوجّه وجهيَ إلاّ إليه.

(١) إشارة إلى فرقة المحمّرة، الذين خرجوا في جرجان، وقتلوا جميعاً، كما يُرْوى.

(٢) عبد السّلام بن هاشم اليشكريّ، خرج على الخليفة المهدي وكان أنصاره يتكاثرون في الجزيرة.

(٣) العبّاس البربريّ، دحية الغسّاني، إبراهيم البرلسيّ، خرجوا في البيرة، بالأندلس على عبد الرحمٰن الدّاخل، وقتلوا مع عددٍ من أنصارهم.

١٦٣ هـ.

- ٨ -

- أ -

ألخليفة في حلب[1] للتفقّدِ: -
«أين الزّنادقةُ؟ اسْتَخْرجوهمْ
مِن مخابئهمْ، وأَبيدوهُمُ
واحداً واحداً.

قَطّعوا بالسّكاكين أوراقَهم،
قَرْبوها - أنا البادىءُ
كي يُقالَ: اصطفاهُ ثواباً
لِلنّعيمِ وولدانهِ، البارىءُ».

- ي -

زَفَرَتْني شَهيقاً
مُدُنٌ لا تُحبّ السَّماءَ، ولكنْ
لم أكن قادراً بعدُ، أَنْ أَتَبلَّغَ،
أو أن أُبَلِّغَ ما وَسْوَسَتْهُ
مَفازَاتُها،
وما رَمزَتْهُ،
ألهذا تأسَّسْتُ في صَمْتِها، وفي وَحْيِها؟

* رحلة الرّمل لا تنتهي،
والبشارةُ تأتي مِنَ البحرِ
في جوفِ حُوتٍ.

(١) قال ابن الأثير: «في السنة ١٦٣ هـ، جاء الخليفة المهدي إلى حلب، فأمر بجمع الزنادقة فيها، وفي نواحيها. جُمعوا وقُتلوا، وقُطّعت كتبهم بالسّكاكين».

١٦٣ هـ.

- ب -

سنةٌ دامية -

والزّنادقةُ اليومَ أكثرُ من أيّ وَقْتٍ مَضَى[1]

عِبْرةً لسِواهُمْ،

سَأعدّد أسماءَ مَن قيلَ عنهم زَنادِقةٌ

وأُبيدوا،

أَوْ أُحيطوا، لأَمْرٍ خفيٍّ،

بعفْو الخليفةِ، لكنّني لن أبوحَ براوٍ ولا شاهدِ

حذراً من عُتوّ اليد الباغِيه،

سأقولُ: أنا وحديَ

الرّاويهْ، -

أَبان بن عبد الحميد اللاّحقي

- ك -

في كلّ مُفْتَرقٍ صَمْتٌ يُوسْعُ لي
حَدَّ الكلام، ويَرْميني إلى الفلكِ
لي في الكلام أساطيرٌ ولي سُنَنٌ
ولي طيورُ صبَاباتي ولي شبكي
تَقَاطعَتْ فيَّ راياتٌ وأَشْرِعةٌ، -
غَدي عروشٌ
وشِعْرِي مالِكُ المَلكِ.

* غِبْطَةٌ أن يُزاوِجَ ما بين أَنْفاسِهِ
واضطراب الجناحْ،
ألهذا،
لم يكن مرّةً، طيّعاً لِلرّياحْ؟

(١) من أسلافهم:
الحعد بن درهم،
معبد الجهني،
غيلان الدمشقي،
عبد الصمد بن عبد الأعلى.

١٦٣ هـ.

ابن طالوت
ابن ديصان
ابنة مطيع
أبو العبّاس الناشىء
أبو علي سعيد
أبو العتاهية
أبو عيسى الورّاق
إبراهيم بن سيّابة
إسماعيل بن سليمان الجيهاني
إسحاق بن خلف البقليّ[1]
جميل بن محفوظ
داؤد بن رَوح بن حاتم المهلبيّ

ابن شاكر
ابنة يعقوب
أبو نوّاس
بشّار بن برد
الجَرنْديّ

- ل -

حَلَبٌ -

أَتُراكِ التوهّمُ، عمّرتُ وقتي بهِ؟
ما يكونُ، إذن، وعدُنا؟
ما يكون اللّقاءُ الذي نُشْرِك الغيبَ فيهِ؟
وإلى أَيِّ شَمْسٍ سَأُوكِلُ ليلي
عندَما نتغطّى
بصباباتِنا؟
نَتَسَتَّرُ، أم نتكنّى؟

لن أصرّح، لكن
هل أخونُكِ إنْ وشوشْتِنِيَ نفسي،
وَوَشْوَشْتُها؟

* لا يريد من الدّرب إلاّ
أن يرَى كيف تُرخي جدائلَ
أحلامِها،
وتفكّ، العشيَّةَ، زُنّارَها.

(١) كان يقول:
«الإنسان كالبقلة، إذا مات لا يرجع».

١٦٣ هـ

وُدّة الشّروي

والبة بن الحباب زوجة يعقوب

حمّاد الرّاوية حمّاد عَجْرد

حمّاد الزّبرقاني

حفص بن أبي وردة الحريزيّ

يعقوب بن الفضل الهاشميّ[١]

يحيى بن زياد الحارثي

يزيد بن الفيض

يونس بن أبي فَرْوة

محمد بن أيوب المكّي

محمد بن طيفق محمد بن النّجم

محمد بن زياد محمد بن بادان

مطيع بن إياس[٢]

- م -

كيف لي أن أُطَمْئِنَ هذا المشرّدَ
في دميَ المتشرّدِ ـ
هذا الغروبَ الشّروقَ
الشّروقَ الغروبْ؟

وأنا في رحيليَ نحو المكان ونَحْوي
لم تَقْدني دروبيَ إلاّ
لِمَحْوِ الدّروبْ؟

* فُسْحَةٌ ـ

يتَصفَّح فيها كتابَ النّجوم، يمدّ الصّباحَ،
يمدّ المساءَ، يمدّ السّهَرْ
بين أهدابهِ والصُّوَرْ.

(١) قتله الهادي سراً وأعلن أنه مات ميتة طبيعية، و «زوجة يعقوب»، و «ابنة يعقوب» هما زوجته وابنته.

(٢) «ابنة مطيع» هي ابنته.

١٦٣ هـ

منقذ بن زياد الهلالي

محمد بن أبي عبيد الله

النّعمان عُبادة

عبد الله بن معاوية بن يسار

العباسي ابن داؤد بن علي [١]

عبد الكريم بن أبي العوجاء[٢]

عمارة بن حربيّة

علي بن الخليل

صالح بن عبد القدوس

قاسم بن رنقطة.

(١) مات في السّجن.

(٢) يقال إنه عارض القرآن الكريم.

ـ ن ـ

نَدّى يُبلّل أطرافي، مدّى عَبِقٌ
بنكهةٍ ـ أَتُراها نكهةُ الغَسَقِ؟
أَحارُ: هل هي هَمْسُ الغَيْبِ مُرْتَسِماً
بغير حِبْرٍ، ومقروءاً بلا ورَقِ؟
أَمْ نكهة الضّوءِ يَجْلو جبهةَ الأُفُقِ؟

خُذْ الغِوايةَ من عينيَّ، ياحُلمي
وخُذْ طريقَكَ، واتركْني إلى طُرقي.

* يدعو الأرضَ لتلعبَ نَرْدَ الدَّهرْ
في ملكوتِ الشّعْر.

١٦٣ هـ.

- جـ -

أوصى المهدي ابنه الهادي، قائلاً:

«يا بُنيّ، إن صار لكَ هذا الأمر، فتجرّدْ لهذه العصابة (...) فارفع فيها الخشب، وجَرّد فيها السّيف، وتَقَرّبْ بأمرها إلى اللّه الذي لا شريكَ له.

فإني رأيت جَدّكَ العبّاس في المنام قَلّدني سيفين، وأمرني بقتل أصحاب الإثنين».

- س -

شَرَرُ الآن يَلمع في غيمة الأَمْسِ،
والأمسُ يغمس أطرافَهُ
في بحيرة فَجْرِ -
هكذا تَتَجمَّعُ في نفسيَ الأزمنَهْ.

أَلسَّماء تلمُّ تقاسيمَها
مِنْ أقاليم شعري: أقاليمُه
موعدٌ لفراديسها -
هكذا تتمزّقُ في نفسيَ الأمكنهْ.

* ما أبَرّكِ، يا كتِفَ الشاعرِ،
تحملين الصّخورَ وتاريخَهُنَّ،
وَفاءً لمعراجهِ الحائرِ.

١٦٣ هـ.

- ٩ -

تقاسيم على الوصيّة

- أ -

زِنديقٌ
مَن يَجهر بالتأويلِ خلافاً
لِلتنزيلْ
ويعلّم: كلّ حرامٍ لِلتحليلْ.

- ب -

زَنْدكَرْ، -
يُولَدُ الكونُ من نطفة الماءِ
تنزل في رَحمٍ منِ مَدَرْ.

- ع -

يَنْحَنِي جسدي فوق أعضائِهِ
وَيُجَاهِرُ: ما أبعدَ العُضْوَ عنّي،
وعن نفسهِ -
هل يقولُ لكم حيرتي؟
هل يقولُ يقيني؟
كيف أعرفُ؟
لكن
غَرَضي، هاهُنا، نيّرٌ:
أن أقيسَ المسافات بيني وبيني
عندما أتوغّلُ في غربة الضّوءِ
عن أمسهِ،
وعن شمسهِ.

* قمْ لِنايكَ، واسْتَأْنِف الأُغنيهْ:
شَاعِرٌ يتَشرَّدُ - أجملُ غَاباتهِ
في الطّريق إلى نَفْسهِ،
غابَةُ المعصيهْ.

١٦٣ هـ.

ـ ج ـ

أَهَيَ المانويّة؟

أشعويّةٌ؟

أَلعناصِرُ تَسْخَرُ من ظُلمةِ العقولِ،

وتحزن للأبجديّه.

ـ د ـ

أُبْغضُ. لكن،

إن أُبْغِضْ شيئاً

لا أُبْغِضُ أَهْلَهْ[1]

أَنُحبّ العَقْلَ،

ونكرهُ أصلَهْ؟

ـ ف ـ

قَمَرٌ يتنزّهُ، يحمل أوراقَهُ

في حقائبَ سِرّيَّةٍ.

أَلنّجوم صديقاتهُ

والغيوم ثيابٌ لهُ.

قَمرٌ عاشِقٌ يُغنّي:

حَلَبٌ آيةٌ

في كتابِ الخفاءْ.

ما يكونُ، غداً كشفُها؟

ما يكونُ الجلاءْ؟

* تكحَلُ الشمس أجفانها بالسَّوادْ
كي تُحِسَّ بما حولها، وتُحْسنَ إصغاءَها
لأنين الرّمادْ.

(١) إشارة نقديّة لكلام للجاحظ قال فيه: «فإنّما عامّة من ارتابَ بالإسلام، إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبيّة. فإذا أبغض شيئاً، أبغض أهله».

(البيان والتبيين: ٣، ١٤).

١٦٣ هـ.

- هـ -

هُوذَا يَهْذي:
«ليس لأيّ منكم أن يُثبتَ
رَبّاً.
لا إثباتْ
إلاّ بالحسّ، ولكن
كيف يكون المحسوسُ
المُثبَتُ ربّاً؟
وأسائلكم.
مِن أين لنا
أن نُثبِت ما لا نُدركهُ؟»

- ص -

أَتُرى وحدَها تتلاقى المناراتُ؟ مالي
أتوجّسُ؟ قلبي
يَتَفلَّتُ منّي، ويمضي وحيداً
عالياً عالياً،
ودائي
أَنّني أوقِظُ الأرضَ من نومها وأغالي،
أنني عاشِقٌ
زمَنَ الكوفةِ، الفراتَ وأحزانَهُ،
والأعالي.

* يمضي، يجيء، يرى، يشتاق، يَنْكسِرُ -
أحزانهُ قَبْرُ أحلامٍ، وحيرتهُ
غَيمٌ على قبرها، والشَّاهِدُ المَطَرُ.

١٦٣ هـ.

- ق -

أيّامٌ ليست أيّاماً ـ
وأَراها مِثْلَ ضفائرَ مُسْتَرسلةٍ
لِملائكَ لا أَحْباب لهم،
لا يُنْمَوْنَ لأيّ مدينَهْ.

أيّامٌ ـ
كلّ امرأةٍ
تنسج منها زُنّاراً.
كلّ شريدٍ
يتلمّسُ فيها
حَبْلَ سفينَهْ.

* العزيزُ المشرَّدُ يشكو لأوراقِهِ:
«كاد أن يرجع الضوء مثلي، حزيناً،
لمجرّاتِهِ الأمينَهْ.
ما أمرّ المسافات بيني وبين المدينَةِ،
ما أبعدَ المدينَهْ».

- و -

ـ ألسّلَحْفَاةُ أَقْصرُ دَرْبٍ
للدّخول إلى ملكوتِ الزّمَانْ.
ـ إتّقِ اللّهَ، هذا
رأيُ من قال بالدّهْر،
والزّندقَاتُ له تُرجمانْ.

- ز -

غَابَ يَزْدانُ بَخْتِ[1]
في حديقةِ أوهامِهِ،
لم يَعد بعدُ منها.
ـ ولماذا يعودْ
وهو مِلْءُ الوجودْ؟

(١) أحد رؤساء المانوية في العصر العباسيّ.

١٦٣ هـ.

- ح -

لزِنادقةٍ
سَمّوا أنفسَهُمْ
«إخوانَ الصّدْق»،
تتوهّجُ سِرًّا
آفاقُ الشّرْقْ.

- ط -

معجزاتٌ، مخاريقُ سِحْرٍ
والشياطين تسكن فيها.

- ي -

صيدوا «أصحاب الأهواء»[1]،
سجناً، قَتلاً، حَرْقاً
صيدوهم
في كلّ الأنحاء.

- ر -

حَلَبٌ ـ وقْتنا إلْفُنا
موكبٌ آخرٌ في ركائب أشواقِنا
تتورّدُ، تقفو، تجسّ، تُخَالِطُ أَنْفاسَنا
وأفراسَنا،
تَتَزَيَّا لنا
بِهوىً يُبتكَرْ
وتُؤالِفُ وَسْواسَنا
وتخطّ وتمحو الصُّوَرْ.

حَلَبٌ ـ وقْتُنا إلْفُنا
فرَسٌ لِرُؤانا
تتقدّم أفراسَنا.

* هذا لِسانُ غوايةٍ ـ ما أبلَغَه:
سِرْبٌ منَ الطَّيْرِ الغريب، يحومُ
في قَلَقٍ على جسَدِ اللّغَهْ.

(١) من وصية الخليفة المهدي.
و«أصحاب الأهواء» هم الفرق التي كانت تُعَدّ في نظر الخلافة ونظامِها، منحرفة عن الدّين.

١٦٣ هـ.

- ك -

لم يقولوا اسمَها[1]،
ورووا أنّها أعلنت مرّةً
وَهي في حضرة الرّشيدْ
أنّها مانويّة.
دُهِشَ النّاسُ مِن أمْرِها
كيف، أنّى لأُنثى
لا ترى، لا تُريدْ
غيرَ ما يتآخى
ظلاماً ونُوراً
في الحياةِ،
وفي جَسَدِ الأبَجديّة.

- ش -

لم يكن مرَّةً غريباً بلا أُلْفَةٍ
لم يكن مرَّةً أليفاً بلا غُرْبَةٍ.
دائماً كان مِثلي
غريباً أليفاً معاً
دائماً كان مثلي مكاناً
لِتآويله،
لا لأقوالِهِ.

هُوذَا ذلك الرّفيقُ الصّديقُ الذي فيَّ،
يخرج من ليلِهِ،
حاملاً وردةً
كان قلبي تغنّى بها.

* زهرةٌ تخرج الآنَ من رحمٍ في الهواءْ
لتُحيّيَ معراجَهُ
وتقولَ لهذا الأثير الكلامَ الذي لم
تقله السّماء.

(١) الإشارة إلى ابنة مطيع بن إياس.

١٦٣ هـ.

ـ ل ـ

هذا كتاب المانويّهْ:
ورَقٌ صقيلٌ[1]
والحِبْرُ أصفى ما يكونُ، غِلافُهُ
نَقْشٌ وزركشةٌ ـ لهذا
رَدّوا ذيوعَ المانويّهْ،
وَهْي الضّلالة عينُها
لا حكمةٌ فيها،
ولا مَثَلٌ، وكلّ كلامها
يُشْتَقُّ مِن سوء الطّويّهْ.

ـ ت ـ

أتخيّل شعري غريباً يرودُ الأزقّةَ
في حَلَبٍ، تتمرأى
في خطاه شبابيكها،
وله ظِلّهُ قِلاعٌ، وله الفجرُ بيتٌ،
لا يُقِيمُ، ولا فُسْحةٌ تحتويهِ.
أتخيّل شِعري يتَنَقَّلُ في هَمّهِ
(همّهُ أن يدبّر طوفانَهُ)
عَشِق الأرضَ، حِبْر الفُصولِ، الرّحِيلْ
وله فيه حَظُّ الرّياحِ،
وأنشودةُ المستحيلْ.

* كلّما قال: هذي طريقي
إلى ناريَ الآتيهْ،
أجفل الضّوءُ فيهِ،
وتراءت له طرقٌ ثانيهْ.

(١) وصف الجاحظ كتب المانويّة، قائلاً:
«لا تفيد علماً ولا حكمةً وليست مثلاً سائراً، ولا خبراً ظريفاً، ولا صنعةَ أدب، ولا حكمةً غريبة، ولا فلسفة ولا مسألة كلامية»
(...) «أجودُ ما تكون الكتب ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البرّاق، ويُستجادُ له الخَط».
(الحيوان، الجزء الأول).

١٦٣ هـ.

- م -

المَهْدِيُّ «القَصّابُ»[1]

أميرُ القتلَة:

هذا ما قالوه عنهُ.

وقالوا:

كان الإنسانُ أَخسَّ

وأدنى

بين يديهِ، مِن بَصَلهْ.

- ن -

مُرْسَلٌ أنتَ أيضاً؟

أفلَنْ تفهمَ السّماءْ

أنّ وَجْهَ النّخيلِ ووَجهَ النّجيلِ،

على أرضِنا،

سَواء؟

- ث -

غَنّى لها

لهوائِها ولمائِها ولأرضها،

غَنّى لكلّ حروفها:

صَوْتي ذراعٌ

وهواي خاصِرةُ الكَلامْ.

لِمَ لا تكونُ الأبجديّةُ حُبَّه

وسريرَهُ،

ويكون حارِسَهُ الهُيامْ؟

* قال لِلشّمس: خذيني

طيّبٌ أن ندخلَ الآن إلى واحة نَخْلٍ،

وأرى جسمك ظِلاً،

وأرى جسميَ مرسوماً على أغصانِها.

(١) سُمّي الخليفة المهدي «قَصّاب الزنادقة».

١٦٣ هـ.

- س -

- «هل تجوزُ له الإسْتتابَة؟

- لا تصحُّ

كما يأمرُ الشّرعُ، إلاّ . . .

- هُوذَا طائِرٌ

خُذهُ واذبَحْهُ. هذي

صُورَةٌ لِنبيِّكَ: أُبصُقْ عليها وعلى المانويّة - أعمالِها،

وأقوالها،

والكتابَة»[1].

- ع -

طلبَ الشاعر[2] العَفْوَ،

لكنّهم قتلوهُ.

- خ -

أخذَ اللّيلُ من حَلَبٍ ساعديها

أخذَ الفجرُ شُبّاكَها، -

سَفَرٌ

تتحوّل فيه الجراح إلى أُغْنياتٍ.

سفَرٌ . . .

سنقول الصّحارَى سَقَتْنَا رحيق أساطيرِها

ونَمتْنا فضاءاتُها،

وسنَرْجو،

باسْم أحلامِنا،

أن تنام النّوافذُ عُرْيَانَةً،

وتَسوسَ السّماءَ فراشاتُها.

* إنها الشّمس تؤاخيه، وتَسْتَرْسِلُ

في مَزْج هواها بِهواهُ، -

ما الذي يَرْتَسِمُ الآنَ على أهدابِهِ،

ما الذي تحتضن الآنَ يَداهُ؟

(١) يُروى أنّ القاضي كان يطلب من المتّهم بالزّندقة في اسْتتابتهِ، أن يَبصقَ على صورة مانـي، وأن يذبحَ طائراً، وكانت المانويّة تحرّم ذبحَ الحيوان.

(٢) هو صالح بن عبد القدوس الذي حوكم بتهمة أنّ شعره يظهرُ الحكمة والفضيلة، ويُبطن الثنويّة والزّندقة. وقد طلبَ العفو، لكنّه قُتِل.

١٦٣ هـ.

ـ ف ـ

ـ قل لي،
ما ذا تحفظُ مِن آياتِ
القرآنْ؟
ـ . . .
ـ لاشيءَ؟ مُعاويَ، قمْ
واقتلْهُ.
ـ ولَدي! لا أقدرُ،
ـ قُمْ يا عبدُ اقتلْهُ،
أُقتلْ هذا الشّيطانْ[1].

ـ ص ـ

لا مأوى
لِلشُّكّاك، وللخلعاء،
وأَهْلِ الكُفْرْ،
إلاّ القَبْرْ.

ـ ذ ـ

حَلَبٌ ـ أتخيّلُ أيّامَها
تَتَفتَّحُ مِثْلَ الزّهَرْ
في فضاءِ البَشَرْ
هو ذا عهدُنا، ـ
سَنكون لها نَبْضَها
سنكونُ لها صوتَها.

باسْم هذا اللّهَبْ
سَأُسمّي السّرابَ تراباً
والبلادَ وآفاقها حَلَبْ.

* لا يقولُ لهذا الدّم المتململِ في جسمهِ
المضطربْ
غيرَ ما قاله مِراراً: إغْتَرِبْ، إغْتَرِبْ.

(١) حوار بين الخليفة المهدي وعبد اللّه بن معاوية بن يسار بحضور أبيه معاوية وكان من وزراء المهدي، حيث تَمّ قتل الابن بيد أحد العبيد.

١٦٣ هـ.

- ق -

لم يكن آدَمُ[١] يتزندَقُ،
ما قالَهُ
جاء فيضاً على القلبِ،
مِن طربٍ وَانْتِشَاءِ.
كان هذا مُجوناً،
ويؤكّد أصحابُه:
لم يكن آدمٌ مُشركاً.

- ر -

كان خليعاً[٢]
يَهْوى الغِلْمانْ
ويَعيش رفيقاً للمجّانْ.

- ض -

ما أقولُ لهذي الدّروب، لِتلك
الدُّروب التي سَبَقتها، وما ذا أقولُ
لِذاكَ الورَقْ؟
لِلهُيام الذي مَرّ في حبرهِ واحترَقْ؟

ما أقولُ لشعريَ فيها،
وهو المُلتقَى، وهو المُفْتَرَقْ؟

* لبسَ النّورَ ليحيا في اللّيل بعيداً،
ولكي يَبْقى
لامَرْئيًّا.

(١) هو آدم حفيد الخليفة عمر بن عبد العزيز. ضَرَبه المهدي ثلاثمئة سوط بتهمة الزندقة. كان يقول «واللّه ما أشركتُ باللّه طَرْفةَ عين. ومتى رأيت قرشياً تزندق؟ ولكنه طربٌ غلبني، وشعرٌ طفحَ على قلبي، وأنا فتًى من فتيان قريش أشرب النّبيذ، وأقول على سبيلِ المجون».

(٢) إبراهيم بن سيّابة، كما وصفه الأصفهاني.

١٦٣ هـ.

- ش -

سوف أصلبهُم كلَّهم[1] -
نَصبوا ألْفَ جذْعِ
كي يُدَلُّوا
فوقها - واحداً واحداً.

- ت -

اسْتَثْنى هارونُ[2] زنادقةً
مِن عَفْوِ أصْدرهُ.

- ث -

لا أَبديُّ
إلاّ في مَوْج الزّائِلْ
هاتِ المعنى، ياسيّدَ عمري،
واسْكبْهُ في هذا السّائِلْ.

- ظ -

يهبطُ اللّيلُ - أحلامُنا
سُرُرٌ وثيابٌ لَهُ.
يُشْرِقُ الفجرُ - أعمالُنا
وأقوالُنا
سُفُنٌ وبِحَارٌ لَهُ.
يربط الوقت أهدابه بميثاقِنا.

هَيّىء الجِبْرَ، أَنْصِتْ لما سنقولُ
وما نفعلُ،
أيّها الزّمَنُ المقبلُ.

* هوذا يحملُ روحين لكي يدخلَ في دِفْءِ حَلَبْ:
روحَ ليلٍ أَشْعَلَ الكوفةَ قنديلاً،
وروحاً لِلغضبْ.

(١) نصب الهادي ألف جذع لصلب الزنادقة قائلاً:
لئن عشت لأَقتلنَّ هذه الفرقة كلّها، حتى لا أترك منها عيناً تطرف».

(٢) استثنى الخليفة الرشيد الزّنادقة من عَفْوِ عام أصدره سنة ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م.

١٦٣ هـ.

- خ -

أَلَّفَ ابْنُ عطاءٍ[١]

«ألفَ مسألةٍ» كي يردّ على الزّندقَة،

هكذا فَعلَ ابْن الحكَم[٢] ومحمد[٣] والحسَنُ الموسويُّ[٤] وأحمدُ[٥] واللّيث[٦]، ثمّ أضافوا:

الرّازي[٧]

والمسعودي[٨]

وأبو عثمان الرّقيّ[٩].

- غ -

هذي، إذن حَلَبُ:

شَهباء تضربُ فيها الشّمس خيمتَها

يحفّها التّينُ والزّيتونُ والعِنبُ.

يا للبياض ـ صَعدنا في مَدارجهِ

نعلو، نُقابِسهُ

ونَسْتَشِفُّ، ونَسْتصفي، ونُخْتَلَبُ

تُضيئنا نارُ حِبْرٍ لا نفادَ لهُ

وتَستضيء به الأَقلامُ والكتبُ

في سَيْرِنا من مراسي جمرهِ لهَبٌ

وفي مسالِكنا مِن ضوئه شهُبُ.

* شِعْرٌ طِفلٌ

يتشرّدُ في فَلَواتِ المعنى

العالمُ فيه فَرْدٌ

والشاعِرُ ـ حيناً جَمْعٌ، حيناً ثالوثٌ، حيناً مثْنى.

(١) واصل بن عطاء.

(٢) هشام بن الحكم «الردّ على الزّنادقة»، «الردّ على أصحاب الاثنين».

(٣) أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبّائي: «الردّ على أصحاب التناسخ والخرميّة».

(٤) أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي: «الردّ على أصحاب التناسخ».

(٥) أحمد بن حنبل: «كتاب الردّ على الزنادقة والجهميّة».

(٦) أبو الربيع محمد بن اللّيث الخطيب: «كتاب الردّ على الزنادقة».

(٧) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. «الردّ على المانوية».

(٨) المسعودي: «الإبانة في أصول الديانة».

(٩) أبو عثمان الرقّي: «الردّ على الملحدين وأصحاب الإثنين».

هـوامـش



أنا الغريقُ،
فما خَوْفي من البَلَلِ؟

المتنبي

رابعة العدوية

توفيت نحو سنة ١٣٥ هـ.

بيعت كمولاةٍ لأحد التجّار. احترفت العَزْفَ والغناء، ثم تصوّفت. قالت بفكرة «الحبّ الإلهي» وأوّلت الوصف الحسيّ الشهوانيّ في القرآن، رمزياً، وروحياً.

قُلتِ أَضْنَاكِ جَمْرُ النُحولِ، ولكن
أهنالكَ للحبّ ثوبٌ
غيرُ ما ينسجُ النُحولْ.

السّلامُ على بَرْيِ أَقْلامِهِ،
والسّلامُ لآثارِهِ ـ لدورٍ
تتآلفُ في ظلّهِ
وتقومُ وتقعدُ في دارِهِ.

عِطْرُكِ الآن يَرْوي أساطيرَ عُشّاقِنا
وردةً وردةً،
في كتابِ الحقولْ.

أبو دلامة

كوفي، اسمه زيد بن الجون

كان كما يروون «عبداً حبشياً فصيحاً، خليعاً ماجناً». توفي سنة ١٦١ هـ.

ذلك السيّد الماكرُ الماجِنُ:

شعرهُ وجههُ ـ

فيهمايصبح السّوادُ بياضاً

والبياض سواداً،

وَتُلوَّنُ لِلخَمْرِ قُمصانُها.

لم يُطِقْ كأسَهُ السّالفونَ، وأَعْرضَ عن لمسها

ماؤهم، ـ

ماؤهم آجِنٌ آسِنُ.

سفيان الثوريّ

توفيّ سنة ١٦١ هـ.

والنّص قائمٌ على حوارٍ بينه وبين الخليفة المهدي.

- قلْ لماذا تفرّ هنا وهنالكَ مِنّا؟

أتظنُّ بأنّا

لو أردناكَ نعجزُ؟ قُلْ ليَ ماذا

نحكم الآنَ فيكَ؟

- إلَهٌ قادرٌ عادِلُ

حاكمٌ فيكَ: يَثْبُتُ حَقٌّ

وَيُزْهَقُ، في حكمهِ، الباطِلُ.

- مالَهُ الجاهِلُ؟

أبهذا يُقابَلُ من كان مثلكَ؟ إِيذَنْ لأَضْربَ[1]...

- وَيْلكَ، أُسْكُتْ

لا يريدُ سوى ذاك: يمضي سعيداً

ونشقى نحن في قَتْلِه.

اكتبوا عهده قاضياً لا يُرَدُّ له أيّ حكْمٍ.

كتبوا عهده في كتابٍ، ولكنّ سفيانَ فَرَّ، وألقى بالكتابِ إلى دجلةِ.

(١) أحد الأشخاص من بطانة الخليفة.

إبراهيم بن أدهم

توفي سنة ١٦١ هـ. وهو زاهد ومتصوف مشهور.

لا أريد قميصاً،
ولن أتعمّمَ في الصّيف. أمشي
حافياً مِثل غيري من الفقراءِ، وأحيا
عاملاً في الحصَادِ، وفي الحَمْلِ والطّحْن، سُحْقاً
لِلسّلاطين والأغنيَاءْ.

لا أريد سوى فَرْوَةٍ في الشّتَاءْ،
وأصومُ كأنّيَ لا مُلْكَ، لاشيءَ في الأرض عندي،
سوى شمسها والهواءْ.

مطيع بن إياس

توفي سنة ١٦٩ هـ. اتّهم بالزّندقة.

هَدّكِ الولَهُ المتفجّرُ فِينا لكي يَعْبُرَ
الحبُّ طَلْقاً
إلى هُوّةِ الفجيعةِ،
أو مُخْدعِ الحبيبَهْ، ـ

فَاغْفُري ما تقدّمَ أو ما تأخّر من ذنبنا
(إن حسبتِ خطانا ذنوباً)،
يا جسورَ التعقّلِ، يا هذه الجسورُ الغريبَهْ.

السيد الحميري

توفي السيّد الحميريّ سنة ١٧٣ هـ.

لم يَنَلْ شعرهُ
في الرّوايةِ ما يَسْتحِقُّ، وفُسِّرَ هذا:
«كان يَهْوَى بني هاشمٍ». وأضافوا:
«كانَ يُفْرِطُ في النَّيْلِ من بعضهم،
ومن بعضهنّ ـ نساءِ النبيّ،
وصَحْبِ النّبِيْ».

وتقول الرّوايةُ عن ناقدٍ كان من صفوة العارفينْ
أَنَّه قالَ: «بَشّارُ والحِمْيَريّ
أشعرُ المحدثينْ»[١].

(١) الناقد هو أبو عبيدة معمر بن المثنّى.

الخيزران

ماتت في سنة ١٧٣ هـ.
أخذت العلم عن الإمام الأوزاعي.
قُتل ابنها الهادي بأمرٍ منها: جلست جواريه على وجهه وخنقته.

شَهوةُ الخيزرانْ

تسهر الأرض فيها، جَحيميّةَ الوَقْتِ،

فَرَّاسةَ المكانْ

وَتُؤسِّسُ فيها النّساءْ

لِلهباء الذي لا يغنّي لغير الهبَاءْ.

أبو إسحاق الزُّهْري

موسيقار ومن العلماء الثقات بالحديث. روى له البخاري ومسلم. وليَ القضاء ببغداد. كان يبيح السمّاع، ويضرب العود، ويغنّي عليه. توفي سنة ١٨٤ هـ.

- ١ -

ضربَ العودَ غَنّى عليهِ، وأَباحَ السَّماعْ
كان من علماء الحديث. . تولّى القضاءَ ببغدادَ،
كان البخاريّ يروي له، وروى مسلمٌ لهُ.
هكذا، سوف نمضي إليهِ، ونسألُ:
ماذا سنَعْصَى
وكيف نُطيعُ الذي لا يُطَاعْ؟

- ٢ -

أَعْطِ الموسيقى
أجمل ما يعطيه
رجلٌ لحبيبتهِ.
نَاغِ العودَ أطِعْهُ، واجمحْ مَعَهُ، وأبِحْ
شهواتِ العَزْفِ، اصَّاعَدْ فيها، واهبطْ
أَنَّى شئتَ، وكيف تشاءْ
واغبط من غَنَّى
من قال الموسيقى
لغةٌ أخرى للأشياءِ، وَأَرْضٌ أخرى للأشياءْ.

سَلْم الخاسر

مات سنة ١٨٦ هـ ماجن فاسق من تلامذة بشّار وسمّي الخاسر لأنه ورث من أبيه مصحفاً فباعه واشترى بثمنه طنبوراً.
يقول بشار: من راقبَ الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطّيبات الفاتِكُ اللَّهِجُ.
ويقول سلْم الخاسر: من راقب النّاسَ مات غمّاً/وفاز باللّذة الجسورُ.

هي مفتونَةٌ، وأنا شَهْوةٌ
وكلانا بلا مَرْفأٍ:
كيف نُرْسِي مَعاً، ونفوّض للموج أثقالنا؟

هي ذي نَشْوَةٌ
لذئابِ تباريحنا
تَتَلقّفُ أحشاءنا ـ
أَتُراها ستجتثّ أحزاننا ومراراتِنا؟
أَتُراها ستمحو الدّروبَ التي شقّها الموت فينا؟

آهِ، طُنْبورُ تيهي صَاخِبٌ حائِرُ ـ
هُو صِنْوُ الحياةِ، ورابِحُ أقداحِها
وأنا الخاسِرُ.

جعفر البرمكي

قال هارونُ يرثيه (هل كان يضحكُ،
أم كان يبكي؟):
يا أخي[1]، لا يُطيق الفلَكْ
كوكبيْنِ يجيئانِ في زمنٍ واحدِ
ويخطّانِ وَجْهيهما بغدٍ واحدِ،
ولذا أَسْتميحُكَ عُذْراً،
فلا بُدَّ أنَ أقتلَكْ.

(١) هـذه الأبيـات صيـاغـة وتنويع.
فقد قال هارون الرشيد مرّةً، بعد قتله جعفر البرمكي، كلاماً بالمعنى نفسه.

دفاتر الفَلَك

سيميائيٌّ

لقيطُ النجوم

اسمه أبجد

صديقٌ للمتنبي ونجيٌّ لأهوائه

يعيش على قارعة الهواء في سفر دائم، يقرأ دفاترَ الفلَك ويؤرّخ[1] للمدن.

في حلب، انضمّ إلى حلقة الأصدقاء[2] الذين كانوا يتدارسون شعر المتنبي في ضيعته، الصّفّ، قرب المعرَّة، أو في بيته، في سَبْعين، بباب حلب. كان أبجد يسمر معهم اللّيل، ويروي لهم سيرة المدن التي عرفها. وكان بين ما يرويه وشعر صديقه مطابقات غريبة يحارون أحياناً في تأويلها. غير أنّ ما يرويه، وهذا ما يعترف به، كان مليئاً بالرموز والإشارات، وهو إذن، ليس سهلاً على الفهم.

دَوّنَ علي بن دينار رواية أبجد كما سمعها، مضيفاً إليها تأمّلات أبجد وانطباعاته الخاصّة التي كان يدوّنها في دفترٍ خاصّ سَمّاه «دفتر الذّكرى»، نقله عليّ بن دينار بخطّه.

تنشر الرّواية والمذكّرات، هنا، للمرة الأولى طبقاً لأصلها في المخطوطة التي تركها علي بن دينار. الرّواية مكتوبة بصيغة الضمير الغائب، هو. والمذكّرات مكتوبة بصيغة المتكلّم، أنا.

زاد أدونيس على الرّواية أشياءَ جَدّت في العصور التالية لعصر المتنبي، وأشياء رآها في العصر الحاضر، خصوصاً في ما يتعلّق بمدينة حلب وقلعتها.

(١) «التاريخ يومٌ ينسب إليه ما يأتي بعده».

(المقريزي، الخطط، ص ٤٦٩).

*

«تاريخ كلّ شيء آخره، وهوفي الوقت غايته، يقال: فلانٌ تاريخ قومه، أي إليه ينتهي شرفهم».

(قدامة بن جعفر، الخراج: ذكره المقريزي، الخطط، ص ٤٨٤).

*

«فأمّا التاريخ، فأول مَن فعله في الإسلام عمر بن الخطّاب.

(...) فقيل له: لو أَرّخْتَ يا أمير المؤمنين لكنتَ تعرف الأمورَ في أوقاتها. فقال: وما التّأريخ؟ فَأُعْلِمَ ما كانت العجم تفعله. فقال: أرّخوا».

(المبرّد، الكامل: ٢/١٤٣).

*

(٢) بينهم علي بن دينار، الشاعر والخطّاط، الزّاهي، الشاعر والمتكلّم، ابن نُباتة، الخطيب.

*

الرواية

I

القلعة[1]، ـ

لا يجفّ دم الحرب، قَتْلاها كمثل إِبَرٍ في يد الرّيح، تخيط لِلزّمن ثوبه الأكثرَ التصاقاً بجسده. قد يتغطّى هذا الدَّم، حيناً، بالكلام. قد يختبىء، حيناً، تحت غبارٍ ما. لكن يكفي أن ترى إلى المكان الذي سال فيه، أو يكفي أن تتنبّه إلى كلمةٍ أو إشارة أو حدث حتّى ينبجس.

لا يجفّ دم الحرب

في المدن التي بنيت على صورة القلعة،

في القلعة التي بنيت على صورة المدينة الأولى.

كانت الملائكة قد جرّت الشّمس إلى باب القلعة. ورأى أبجد في ضوئها، أنّها بدأت خطواتها في أيّام سلوقس نيكادور، قبل المسيح بثلاث مئة واثنتي عشرة سنة. ولمّا صار فيها تلامذة للمسيح، أخذ يتعايش تحت رايتها عابِدُو السّماء: يهوداً ونصارى، والسّاجدون لوجه الحجر الذي كان يُسمّى صنماً، والسّاجدون للنّار.

(١) «حلب، اسم كان في البدء لقباً للتلّ الذي تقوم عليه القلعة. ويروى أن سورية هي الشّام الأولى، وهي حلب وما حولها من البلاد. وفي طرف حلب بناحية الأحصّ، مدينة عظيمة داثرة، وبها آثارٌ قديمة يقال لها سورية، وإليها ينتسب القلم السّوريانيّ.

وقيل كان إبراهيم الخليل، حين يمضي شمالاً، من الأرض المقدّسة، ينتهي إلى ذلك التلّ ـ يضع أثقاله ويبثّ رعاة قطعانه من الغنم والماعز والبقر، إلى الفرات وما حوله، وإلى الجبل الأسود الذي هو جبل الأمانوس.

ثمّ هَلّلت لخيول أبي عبيدة وسيوفه.

هكذا شعر أنه يجيء إلى القلعة من لا جهةٍ، أعني من تلك الجهات الخاصّة حيث تبتكر الأسلحة التي لاتشيخ، وحيث تظل النباتات في سهرٍ دائم. وكان قد نَزَعَ أقفال المتاهات وغيّر أسرارَها.

ـ كيف ستواجه، إذن، سبعةَ آلافٍ من السّنين؟ سألته، من بعيدٍ، حجارةٌ كلسيّة بيضاء.

تلك هي أرْمان، كما يقول رقيمٌ مِن إيبلا.

وهي نفسها حلب، كما يقول رقيمٌ من ماري.

وهي نفسها بيرّوا، مسقط رأسهِ ـ عنيتُ والدَ الإسكندر المقدونيّ،

أسماء كثيرة لحجرٍ واحد!

قال في نفسه: استأذن أرسطو تلميذه الإسكندر للبقاء فيها حتّى يَشْفَى، فمن تُراني أستأذنُ لكي أدخلَ إليها؟

كان مضطرباً كمن يشاهد ذاكرته تتنقّل في غابةٍ كمثل يمامَةٍ خائفة. لم يبح لأحدٍ باضطرابه. وكانت اللّغة تتغلغل هاربةً منه، في الأشياء، التى تَتغلْغلُ في أحشاء القلعة.

وقيل كان الفقراء يجيئون إليه من كلّ ناحيةٍ في الشّمال. كان يأمرُ الرّعاة بِحَلْبِ ما معهم طول النّهار، وإعداد الطّعام ووضع هذا كلّه في الطّرق التي تحيط بالتلّ. وكان الفقراء الوافدون يهلّلون، قائلين:

حَلَبَ إبراهيم!

وقيل إن إبراهيم لَمّا قطعَ الفراتَ من حرّان (عرفت أسماء عديدة: أوديسّة، أذاسّا، الرّها، أورفة ـ اليوم)، وكانت مدينته الأولى، وفيها رُميَ بالنّار، أخذ يتصدّق على الكنعانيين من قطعانه. وفي أرض حلب، حفرَ لهم الآبار والأعين، ومنها العين التي سُمّيت باسمه، وهي التي بنيت عليها مدينة حلب.

وفي رواية أن بطليموس هو الذي بنى مدينة حلب وسمّاها أشمونيت، ومعناها عين الماء. ورأى الأعين التي بحيلان وهي من قرى حلب العامرة، فأمر المهندسين أن يبنوا المدينة، وأن يجرّوا هذه الأعين إليها في قساطل. وآخر ما بني فيها باب أنطاكية».

أخذته نشوة الكتابة: لا يهبط الإنسان في الشيء إلا وهو يهبط في نفسه.

هل سينبش القلعة ويقولها، كأنه ينبش جسده والمدن التي زارها؟ إذن، سوف يستأذِنُ القلمَ ـ أوّلَ الخَلْق.

احرسْهُ، أيّها الشّعر.

وَسْوَسَ له القلم: اقرأْ، اقرأ أوّلاً أحشاءَ المدن وأكبادَها كما كان يفعل جَدُّكَ المنجّم الأوّل.

روى السَّلَفُ الصّالح «أنّ إبراهيم عرج إلى السّماء، فنظر إلى الأرض، واختار موضع المدينة الأولى، الحرَمَ، أو البيت الحرام. هبط، وبنى. جاء بالحجارة من سبعة جبال، وقيلَ من خمسة: حِراء، ثبير، لبنان، الطّور، الجبل الأحمر.

الملائكة هي التي نقلت الحجارة.

لمّا فرغَ إبراهيم من بناء البيت الحرام[1]، المدينة الأولى، جاء جبرائيل وقال له:

ـ طُفْ به سَبْعاً.

طاف إبراهيم وابنه إسماعيل معه سبعاً، واستلمَا الأركان سبعَ مرّاتٍ، ثم صَلّيا خلف المقام ركعتين. ثمّ أراهما جبريل المناسك: الصّفَا، المَرْوَة، مِنَى،

وفي رواية «أنّ بلوكوس الموصليّ هو أوّل من بنى هذه المدينة. ويسميه اليونانيون سردينيلبوس، وخلفته على العرش ابنته أطوسا المسمّاة سميرام. وشاهد بعضهم على ظهر كتاب عتيق في حلب على باب أنطاكية كتابة باليونانية هذه ترجمتها: «بنى هذه المدينة صاحب الموصل، والطّالِعُ العقربُ والمشتري فيه، وعُطارِدُ يليه، ولله الحمد كثيراً».

(١) «جاء جبريل إلى النبيّ (ص) وعليه عصابة حمراء، وقيل خضراء، علاها الغبار:

ـ ما هذا الغبار، أيّها الروح الأمين؟

ـ زرت البيت. كانت الملائكة مزدحمةً على الركن، وهذا غبارُ أثارته أجنحتها».

*

«قال عمر بن الخطاب لكعب:

ـ أخبرني عن البيت الحرام.

قال:

ـ أنزله الله من السّماء مع آدم. قال له: هذا بيتي أنزلته

مُزْدلِفَة، عرفَة.

لمّا دخل إبراهيم مِنى هابطاً من العقبة تمثّل له إبليس عند جمرة العقبة.

قال له جبريل:

ـ إرْمِهِ.

رَماه إبراهيم بسبع حَصيات، فغاب عنه.

ثم بَرز له عند الجمرة الوسطى، فقال جبريل:

ـ إرمهِ.

رماه إبراهيم بسبع حصياتٍ فغاب عنه.

ثمّ برز له عند الجمرة السُّفلى، فقال جبريل:

ـ إرمهِ.

رماه إبراهيم بسبع حصياتٍ فغاب عنه.

مضَى إبراهيم في حجّهِ، يرافقهُ جبريل، ويعلّمه المناسك حتّى انتهى إلى عرفة.

ـ أعرفْتَ مناسِكَك؟

ـ نعم.

وبذلك سُمّيت عَرفات.

معك، يطاف حوله، ويُصلّى، كما يُطاف حول عرشي ويُصلّى، والملائكة هي التي رفعت قواعده».

(١) «قال النبيّ (ص) لعائشة، وهي تطوف معه بالكعبة، حين استلم الركن: «لولا ما طبع على هذا الحجر، يا عائشة من أرجاس الجاهلية وأنجاسِها، إذاً لا شْتُفِي به من كلّ عاهة. وإذاً، لألفيَ اليوم كهيئته يومَ أنزله اللّه. ولكنّ اللّه غيّره بمعصية العاصين، وستر زينته عن الظّلمة والأئمة، لأنه لا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيءٍ كان بدؤه من الجَنّة».

*

«عن أبي سعيد الخِدْري: خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى مكّة. لمّا دخلنا الطواف، قام عند الحجر (الركن) وقال: «أعلم أنك حجرٌ لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت رسول اللّه يقبّلك ما قَبّلتك».

ثم قَبّله، ومضى في الطواف».

*

ثُمَّ أُمِرَ إبراهيم أن يؤذّنَ في النّاس بالحجّ. قال:

ـ يا ربّ، صوتي لا يبلّغ.

ـ أَذِّن، وعليَّ البلاغ.

عَلاَ إبراهيم المقام. أَشْرف به حتّى صار أرفع الجبالِ وأطولها. جُمعت له الأرض يومئذٍ: سهلُها وجبلُها، بَرّها وبحرُها، إنْسُها وجِنُّها، حتّى أسمعهم جميعاً. أدخل إصبعيه في أذنيه. أقبل بوجهه يميناً شمالاً شرقاً غرباً. قال: أيها النّاس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق. أجيبوا ربكم. أجابوه من تحت التخوم السّبعة، ومن بين المشرق والمغرب من أقطار الأرض كلّها: لبّيك اللّهمّ لبّيك.

كان إبراهيم يحجّ كلّ سنة على البُراق.

وقيل حجَّ هو وإسماعيل، ماشيين. بعد ذلك، حَجّت الأنبياء والأمم.

بين الركن[1] والمقام وزمزم قبورُ تسعةٍ وتسعين نبيًّا جاؤوا حُجّاجاً. مات فيها آدم ونوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

حجَّ موسى على جملٍ أحمر.

«كنّا جلوساً في الحجر، وإذا نحن ببريق حيّةٍ ذَكَر. اشرأبّت له أعين النّاس. طاف بالبيت سبعاً. صلّى ركعتين. قلنا له: أيها المعْتمِر، قضى اللّه نُسكك. بأرضنا عبيدٌ وسفهاء نخشى عليك منهم. كزم برأسه كومةً بطحاء، وضع ذَنَبه عليها، وسما في السّماء».

(١) قال سعيد بن المسيّب: «جمع جبرائيل لآدمَ، الحجرَ والحديد. قدحهما، فخرجت النار. وعلّمه صَنْعةَ الجِرائة: أنزل إليه ثَوْراً كان يحرث عليه، قيل هو الشّقاء».

*

(٢) من أسماء مكّة: بكّة، أمّ رحم، أمّ القرى، صَلاح، كوثى، الباسّة، الحاطمة.

«سمّيت الكعبة لأنّها مكعّبة على خِلْقةِ الكعب. وسمّيت بكّة لاجتماع الرّجال والنّساء فيها. أو لأنّ النّاس يبكّ بعضهم بعضاً في الطواف. أو لأنها تبكّ أعناق الجبابرة».

*

حجَّ ذو القرنين ماشياً.

لمّا أغرق اللّه قوم نوح، رفع البيت الحرام[1] إلى السّماء. قبل إغراقهم، ووفقاً لرواية السَّلف، لمّا تاب الربّ على آدم، أمره أن يسير إلى مكّة[2]. طوى له الأرض، فجعلها خطوةً. كان قبل ذلك حزيناً يبكي. وكانت الملائكة تحزن لحزنه وتبكي لبكائه. عزّاه الربّ بخيمةٍ من خيام الجنّة وضعها له في مكة في موضع الحرم. كانت الخيمة، كما يؤكّد السّلف الصّالح، ياقوتةً حمراء تحرسها الملائكة من سُكّان الأرض آنذاك: الجِنّ والشّياطين. ومن أجل الملائكة، حُرِّم الحرَم، خصوصاً على حوّاء، لمعصيتها. لكن استمرّ آدم يلتقي بها. وكان إذا أراد لقاءها خرج من الحرَم.»

*

«في أعلى مكّة مسجد يقال له مسجد الجنّ. يسمّيه أهل مكّة مسجد الحرس. ويُسمّى مسجد البيعة، إذ يقال إن الجنّ بايعوا الرّسول (ص) في ذلك الموضع. وقربه مسجد الشجرة، يقال إن الرسول (ص) دعا شجرةً كانت في موضعه، ليسألها عن شيء، فأقبلت تخطّ بأصلها وعروقها الأرض حتى وقفت بين يديه. سألها عمّا يريد، ثم أمرها، فرجعت إلى موضعِها».

*

ـ أدْرَكْتَ في البيتِ، تمثالَ مريمَ وعيسى؟»

ـ «نعم، أدركتُ تمثال مريمَ مزوّقاً، وفي حجرها عيسى ابنها، قاعداً مزوّقاً. وكانت في البيت ستة أعمدة. وكان تمثال عيسى ومريم في العمود الذي يلي الباب». (حوار بين ابن جريج وسليمان بن موسى الشامي وعطاء بن أبي رباح).

*

«مرض آدم قبل أن يموت. لم يطل مرضه أكثر من أحد عشر عاماً. قبيل موته، أوصى بعلمه كلّه إلى ابنه شيت. أوصاه كذلك أن يخفيَ هذا العلم عن قابيل وأبنائه لأنّه قتل هابيل.»

(رواية ابن الأثير)

روى أبو هريرة أن اللّه قبض يديه، وقال لآدم:

«ـ اختر يا آدم.

قال آدم:

ـ أحببتُ يمين ربّي، وكلتا يديه يمين.

فتح اللّه قبضته اليمنى، فإذا فيها صورة آدم وذريّته كلّهم، وإذا كلّ رجل منهم قد كتب عنده أجله.

وكان مكتوباً لآدم أن يعيش ألف سنة.»

(رواية ابن الأثير)

«عاشت حواء بعد آدم سنة واحدة.

لمّا ماتت، دفنت معه في غار في جبل أبي قبيس يقال له غار الكنز. بقيا معاً حتى جاء الطوفان. أخذهما

*

«كانت الكعبة مبنية بِرَضَم يابس ليس بمدرٍ. كان بابها بالأرض، ولم يكن لها سقف وكانت الكسوة تُدَلّى على الجدران من خارج وتُربط من أعلى. كان في بطنها إلى يمين من دخلها، جبٌّ يوضع فيه ما يُهدى إليها من مالٍ وحِليّ. على ذلك الجبّ حيّة تحرسه بعثها اللّه منذ جرهم، ذلك أنّه عدا عليه قومٌ منهم سرقوا ما فيه مرّة بعد مرّة. حرسته الحيّة بعدذلك خمسمئة سنة حتى زمن قريش. وكان قرنا الكبش الذي ذبحه إبراهيم معلّقين في بطن الكعبة. ثم إن امرأة ذهبت تجمّر الكعبة، طارت من مجمرتها شرارة أحرقت كسوتها. ثم جاء سيل عظيم دخل الكعبة وصدّع جدرانها... إلخ».

*

«كان عمر بن الخطّاب، إذا رأى البيت. قال: اللّهمّ أنت السّلام، ومنك السّلام، فحيّنا ربّنا بالسّلام».

*

كان البيت يدعى قادساً، وناذراً، والقرية القديمة، والعتيق».

نوح،

وضعهما في تابوت وحملهما في السّفينة.

عندما غاضت الماء وانتهى الطّوفان، ردّهما نوحٌ إلى الغار وكانت حواء قد غزلت ونسجت وخبزت وعملت أعمال النّساء.»

(رواية ابن الأثير)

*

«أزيل الحجر الأسود من مكانه مراراً. من جرهم والعمالقة وخزاعة. وآخر من أزاله القرامطة، في السّنة ٣١٩هـ. (وقيل ٣٢٠هـ.)، قلعوه وذهبوا به إلى البحرين. أعاده الخليفة العباسي المطيع للّه إلى مكانه، ووضع له طوقين من الفضة».

*

«بنيت الكعبة إحدى عشر مرّة:

بناية الملائكة، بناية آدم، بناية شيث، بناية إبراهيم وإسماعيل، بناية العمالقة، بناية جرهم، بناية قصيّ، بناية قريش، بناية ابن الزبير، بناية الحجّاج. وبنيت للمرة الحادية عشرة في السنة ١٣٠٩/ هـ، في عهد السّلطان مراد».

*

«عن ابن عبّاس: «الركن يمين اللّه في الأرض يصافح بها عباده، كما يصافح أحدكم أخاه».

*

«نزل آدم من الجنّة ومعه الحجر الأسود. لولا أنّ اللّه طمس ضوءه، لما استطاع أحدٌ أن ينظر إليه».

*

«عن عكرمة: «الحجر الأسود يمين اللّه في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول اللّه، فمسح الحجرَ، فقد بايع اللّه ورسوله».

*

«عن ابن عباس: «نزل الركن وهو أشدّ بياضاً من الفضّة. ليس في الأرض من الجَنّة إلاّ الركن الأسود والمقام. هما جوهرتان من جواهر الجَنّة. لولا ما مَسّهما من أهل الشرك، ما مَسّهما ذو عاهةٍ إلاّ شفاه اللّه».

*

«يبعث اللّه الركن الأسود، له عينان يبصر بهما، ولسانٌ ينطق به، يشهد لمن استلمه بالحقّ». (حديث).

*

*

قال كعب الأحبار (وقيل سليمان الفارسي): «شكت الكعبة إلى ربّها ما نُصب حولها من الأصنام، فأوحى اللّه إليها إني منزلٌ نوراً وخالقٌ بشراً يحنّون إليك حنين الحمام إلى بيته. فسئل:

ـ وهل للكعبة لسان؟

قال:

ـ نعم، ولها أذنان وشفتان.»

*

«النظر إلى الكعبة عبادة. الدّخول فيها دخولٌ في حسنة، والخروج منها خروجٌ من سيّئة.»

*

«من نظر إلى الكعبة إيماناً وتصديقاً، خرج من الخطايا كيوم ولدته أمّه.»

*

«إني لأعرفُ حجراً بمكّة، كان يُسلّم عليَّ قبل أن أُبْعَث»[1]. (حديث برواية مسلم)

*

*

قال سعيد بن المسيّب: «أحلف باللّه، ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل. سقته حواء الخمر حتى سكر، ثم قادته إليها، فأكل».

(١) ورد ما يشابه ذلك في رواية على لسان النبي (ص):

«... خرجت مرّةً، فإذا بجبرائيل على الشمس، جناحٌ له بالمشرق وجناح له بالمغرب. فجئت مسرعاً، فإذا هو بيني وبين الباب، فكلّمني حتّى أنست به. ثم وعدني موعداً، فجئت له، فأبطأ عليّ، فأردت أن أرجع، فإذا أنا به وميكائيل قد سَدّا الأُفق. فهبط جبرائيل وبقي ميكائيل بين السّماء والأرض. فأخذني جبرائيل، ثم شقّ عن قلبي فاستخرجه، ثم استخرج منه ما شاء اللّه أن يستخرج. ثم غسله في طسْتٍ من ذهب بماء زمزم. ثم أعاده مكانه. ثم لأمَهُ. ثمّ خَتَمَ في ظهري حتّى وجدتُ مَسَّ الخاتم في قلبي. ثم قال: اقرأ... فجعلت لا يلقاني حجرٌ ولا شجرٌ إلاّ قال: السّلام عليك».

الذّكرى

I

المدينة ألف

*

في المدينة ألف،
يُضيف الصيّادون إلى خيوطِ شباكهم خيوطَ أحلامهم:
لهذه ألوانُ الوقت،
ولتلك الوانُ الموت.

*

بعضهم يريد أن يصنع جنّة للحرية
لكن بكلماتٍ
لا يقدر هو نفسه أَن يتفوَّه بها.

*

في المدينة ألف،
تكفي تعويذةٌ واحدة ـ يُكتبُ الأبَدُ على وجهها الأوّل، والأزل على وجهها الثاني،
لكي يتموّج البحر في سُمِّ الخياط،
ولكي تنبت للحجرِ أجنحة.

*

حَجَرٌ في المدينة ألف، وجد نفسه فجأةً أنه رأسٌ آدميّ.

هذا الرأس وجد نفسه فجأةً أنّه مسخَّرٌ لقراءةِ كتابٍ في مدح التاج. منذ تلك اللحظة تتبارى الرؤوس كلها في هذه القراءة.

*

كلا، لن أصف المدينة ألف بما كانت عليه، مثلاً، مدينة الاسكندرية. كانت هذه المدينة توصف بأنها من الأمكنة التي يباح فيها كل شيء، والتي يسافر إليها الإنسان لكي يمارس حريته، دون أي قيد أو أي عائق.

كلا، لن أصف المدينة ألف بأنها «العاهرة الكبيرة»، أو بأنها، كمثل مدينة سدوم، رمز للحرية القصوى التي تتحول إلى عبوديّةٍ قصوى، والتي لا يمكن أن يطهرها إلا المطر الذي يسيل ناراً... كلا، لن...

*

المحو هو الهاجس الأول للمدينة ألف، لكنها تنسى دائماً أن المحو، هو أيضاً، كتابة.

*

تتسع المدينة ألف لكل شيء، إلا لذلك العضو الصّغير الجميل: القلب.

*

يقال:

تخرج كلمات من أقفاص تملأ البيوت والشوارع في المدينة ألف، ـ كلمات طويلة كالحبال،

ويقال:

ينطق بهذه الكلمات أشخاصٌ لا يتحدثون إلا مع أشباح تتقاسم المدينة ألف، كأنها أسرّة ومقاصير.

بعضها، مثلاً: أيها الشقاء ستكون اسماً لهذا الوقت.

وبعضها: لم تعد تقدر أية نجمةٍ أن تتسلل إلى غرفة الشاعر. وبعض هذه الأسماء، مثلاً أخيراً: عبثاً، تقرع هذا الباب الذي يسميه غيرك المستقبل.

*

يُروى أن للنهار والليل في المدينة ألف اشكالاً خاصة بهما، لا يعرفهما النهار والليل في أية مدينة أخرى.

من ذلك، مثلاً، ان النهار يبدأ في المدينة ألف كأنه قيدٌ موصول بقيد آخر. صحيح أن له قدمين، لكنهما مأخوذتان بتسلق جدران غير مرئية. أما يداه فترتقان دون توقف، ثوباً منسوجاً من تلك الخيوط التي يعرفها أهل الاختصاص، والتي تصل الرمل بالرمل. من ذلك أيضاً، أن له اذنين لا تسمعان إلا الكلمات التي تنفخها شفتاه كمثل الأنابيب، حيناً، والكرات حيناً آخر، ولا تعرف عيناه أن تنظرا إلى أي شيء، إلا بدءاً من النظر في مرآة الموت (وفي رواية ثانية: مرآة الموتى). هكذا تعيش الحرية والحقيقة والحب والنور، وراء حجاب. وحين تظهر، بين فترة وأخرى، تظهر إما مضرّجة بالدم، أو مغمورة بالخجل.

ومن ذلك أن المدينة ألف ترفع هذا النهار علماً يخفق

على قصورها، وفي شوارعها.

هذا قليل من أشياء كثيرة تروى عن النهار في المدينة ألف.

أما الليل فهولٌ لا يوصف، أو لنقل: ليس في الحديث عنه غير الحرج.

*

للأطفال في المدينة ألف غذاءٌ خاص وغريب تستخرج مادته من مسحوق الرّعب. ولهم أسرة متنقلة تشبه الكهوف.

*

هل تعرف كيف ترتفع جدران الدم؟ كيف تتجاور، أو كيف تتنافر؟ أنت في المدينة ألف لا تتخيلها، بل تصطدم بها.

*

حطت خوذة على خريطة المدينة ألف (الخريطة التي بدت كمثل صورة بحجم التاريخ) وصاحت بملء معدتها: أيتها الصورة، أنا المعنى.

المدينة باء

*

تبدو الحياة في المدينة باء
ثوباً منشوراً على حبال من الكلام.

*

مكتبة، في المدينة باء،
لا يرى الداخل إليها غير محابر لا حبر فيها، وغير أقلام لا تكتب، وغير كراسٍ تجلس عليها دُمًى بألوان زاهية ومتنوعة. مكتبة، صممت على شكل ممحاة.

*

قتل الأب في المدينة باء ظاهرة عامة. لكن معظم الأبناء ينتحرون فيما يحاولون قتل آبائهم. ذلك أن معايير هؤلاء الأبناء، ومرجعياتهم وينابيع إلهامهم ولغتهم، الآباء أنفسهم. والمشكلة، حقاً، في هذه المدينة هي انتحار الابن، لا مقتل الأب.

*

هل سأبدو مجنوناً، إن أكدت لمن يقرأونني الآن، أن للكلمة في المدينة باء، وجهاً وقامةً وأطرافاً. أن لها باختصار شكل الإنسان؟

*

«الإنسان حيوان ناطق»، يقول أرسطو.

ويقول بهلول المدينة باء: «صحيح أن الإنسان حيوان ناطق، لكنه لا ينطق إلا كذباً: إمّا لتحسين نفسه، وإمّا لتقبيح غيره».

*

هل تريد، حقاً، أن توقظ الآخر في المدينة باء، وأن تفصح عن حقيقته؟

إذن أيقظ نفسك، وأفصح عن حقيقتك أولا.

*

لا يعرف الشاعر في المدينة باء، إن كان عليه أن يفرح أو أن يحزن:

كلماته تُحْرَقُ، كلّ يوم،

وكلما نضجت جلودُها بُدّلت غيرَها.

*

المهمّ في الشعر، بالنسبة إلى المدينة باء، هو رؤية أسنانه، خصوصاً الأنياب. عندما تراها، يسهل عليها ـ كما تقول ـ فهمه وتقويمه.

*

لابدّ من شكر خاص لسياسة الطبيعة في المدينة باء. فهي تنزل المطر من غيمٍ كمثل غشاء البكارة.

*

مدينة ـ صحراء لا ينقطع بريدها
وليس في الرسائل غير الرمل.

*

هيّنٌ على اللذّة جسد هذه المدينة،
ألهذا تُداهن الرّغبةُ الرّغبة،
ويغشّ العضوُ العضو؟

*

عجباً! كلّ جميل في هذه المدينة يموت لحظة الولادة.
والقتل فيها نشيد لا تتّسع لغيره حنجرة الريح.

*

كلاّ. أنت في المدينة باء لا تقيم بين جدار وآخر، بل بين لحظةٍ وأخرى.

*

تحت كل شارع في المدينة باء، شارع آخر
وفوقهما يد الغبار، ـ
مدينةٌ يسوسُها الغبارُ بغلمانه.

*

كلٌّ في المدينة باء يحاول أَن يتشبَّه بالحجر، لكي يقدر أن يَتّسعَ، كمثله، لحضورِ الموت.

*

خلسةً، كلَّ ليلة،

تتسلل إلى المدينة باء أشباح من عالم آخر، ملّت الجلوس في بيوتاتها.

*

أقول لكِ، أيتها المدينة باء:

ليس جسدك إلا بذرة تُرمى في تربة جسد آخر.

وليست الروح إلا مظلة تسهر على الجسد وأحواله.

وأقول لك:

اسمك ممحوٌّ بكِ، مكتوبٌ بغيرك.

ولا تَسلي عن الملح الذي يتكدس في أحشائك التي تكاد أن تتحوّل إلى مملحة تَتّسع لأقطار الأرض.

لهذا لا تحب هذه المدينة الشعر إلا بشرط واحد: أن يحملَ مطرقةً ويدور في الشّوارع.

*

من الأرض جاء كل شيء،

لكن بحيلة ما دبّرتها هذه المدينة، أو بعنفٍ ما تنازلت الأرضُ للسّماء عن حقوق ابتكاراتها جميعاً.

هكذا، كلّ يوم،

تعيد السماء تكوين هذه المدينة، وها هي صورتها، اليوم:

جَسَدٌ كمثل الإصبع

ينام في حضن كمثل الخاتم.

*

للسهول التي تزنر المدينة باء،

لهياكل نباتاتها التي يرفعها في الهواء طقس الزرع والحصاد، لآنية البخور التي تشكلها أنفاس البشر في لازورد الأثير، للأبواب والنوافذ التي تفتحها يد الشمس في فضاء الشجر والسنابل،

لهذه جميعاً،

أقدّم طبيعتي أنا الحائر المحيِّر، وأتوسل للرعد أن يأخذ بيدي. لعل في هذا ما يؤكد لك، أيتها المدينة، أن صوتي فيما يتراجع عنك، يتقدم نحوك، وأنه فيما ينفصل عنك، يتّصل بك ـ لكن في طرف آخر لتاريخٍ آخر.

المدينة جيم

*

الموت هو الذي استأثر بوضع قدميه على عنق هذه المدينة،

والحياة هي التي أذنت له.

هكذا تعزف المدينة جيم حياتها على قيثار الموت.

*

«ردِّد آخر كلماتك. ضعها إداماً على رغيف اللحظات التي بقيت لك»:

تلك هي لازمةٌ لا تتوقف عن تكرارها أصواتٌ غامضة في فضاء المدينة جيم.

*

لاتتميز المدينة جيم بالسلاسل التي تختص بالسهر على الشفاه والأيدي والأقدام، فهذه سلاسل تعرفها معظم المدن.

السلاسل التي تتميز بها المدينة جيم نوعٌ من السائل الذي يجري في الكلمات، وفي النظر، وفي النَّبْضِ ـ أحياناً.

يتحول الخارج، بجهاته الأربع، إلى مستنقع تختلط به هذه السلاسل وتتمازج. وغالباً، يتعذر التمييز بينها وبين الهواء.

*

لم أكد أتخيل حضوري في المدينة جيم، حتى خرج مني عضو من أعضائي. خرج نافراً، غاضباً.

أكتب الآن لكي أعتذر له، ولكي أعيده إلى مكانه.

*

«ليس في الإمكان أحسن مما كان» تقول المدينة جيم. لذلك ليس العالم، بالنسبة إليها، موضوع تغيير.

المسألة، كما ترى، هي أن يتآلف الإنسان مع العالم، أن يتركه في سيرورته، وأن يسايره.

*

قرأت يوميّات شاعر في هذه المدينة، اخترت منها هذه الخواطر:

أ ـ للكلمات في المدينة جيم رؤوس وأيدٍ وأرجل،

وليس لك أن تسألها، بل أن تتبعها.

ب ـ يجب أن تُعْطَى للفكر في هذه المدينة وظيفة النار.

ج ـ لا تأمل في فضاء آخر، ما دمتَ مَسْجوناً في فضاء الكلام.

د ـ يكتب صديقي الشاعر بطريقة يبدو فيها كأنه هو نفسه بارىء اللغة.

التحية له.

يقول أيضاً مؤكّداً أنّ الكلمات في المدينة جيم تهيّىء ثورتها الخاصة:

تنبثق لا من المعاجم، بل من قاع الجسد وأغواره،

من زواياه، ودوائره ومهاويه،

ثم تدخل في العالم وتدخله فيها ـ في عرس دائم.

حيث الغياب أجمل صورة للحضور،

حيث المحو نفسه تسمية جديدة للأشياء.

و ـ تأخرت كثيراً لكي اكتشف أن السماء ليست خارج جسد الإنسان، بل في داخله.

ز ـ أقول لليقين أينما رأيته:

شفتاك غيم،

وإن كان رأسك حجراً.

ح ـ كمثل السراب يتحرك الواقع في المدينة جيم. لذلك لم يعد فيها مكان للحلم.

ط ـ كيف أغوي الأشياء لكي تذكرني بالكلمات التي تقدر أن تفصح عنها؟

ي ـ كلا، لا يجوز أن يكون الشعر مصنوعاً من قبل الناس أجمعين، ولا مصنوعاً من أجلهم، بل يجب أن يكون مصنوعاً بهم.

ك ـ رأسي سجنٌ يغلق أبوابه على سجناء كثيرين، ـ كيف أحرر غيري منه، إن لم أتحرر أنا نفسي؟

*

الرهان، في كل تجربة كتابية عظيمة، خصوصاً في المدينة جيم، ليس الكتابة، بل التاريخ.

*

احتفاءً بنفي الشاعر (وقيل بموته)،

عقدت السماء منديلاً أخضر حول خاصرتها، وأخذت تراقص المدينة جيم.

المدينة دال

*

شكل الشيء في المدينة دال هو الشيء نفسه. والكلمة هي حروفها. أنت، أيها المقيم فيها، المأخوذ بالمعنى، لا مدينة لك غير المجاز.

*

العلماء في المدينة دال يحملون دائماً فؤوساً تحمل علومهم. يرابطون في الأزقة، في الزوايا، في الساحات، وفي الأسرّة ـ أحياناً. الرؤوس التي يسيطرون عليها، يفصلونها عن رقابها، ثم يصلونها ثانية. ويصح، غالباً، ظنهم: تنقلب هذه الرؤوس إلى فؤوس، هي أيضاً.

هكذا نرى أن مايسمى بالفكر في هذه المدينة مقبول لدى سكانها جميعاً، خصوصاً أنّ رسالته هي أن يخلق التآلف بينهم وبين ما يسود.

هكذا تعوّد المواطن في المدينة دال أن يعمل الأعمال الباطلة وأن يكرر الأقوال الفاسدة.

مع ذلك، لا تخلو الشوارع في المدينة دال، بين حين وآخر، من منشورات سرية، يطيب لي أنا العابر، أن أجازف فأثبت للقارىء بعضاً منها:

أ ـ منشور سري: «العمل حرية. من لا يعمل لا كيان له. باطل، إذن، كل عمل تعمله لا يزيد في طاقتك،

وفاسد كلّ يوم تعيشه لا يزيد في حريّتك ومعرفتك».

ب ـ منشور آخر: «كل مواطن في المدينة دال ينصّب نفسه ربَّ عملٍ للوطن، بدلاً من أن يكون عاملاً. كأنَّ المدينة عرش، وكل مواطن لا يبشّر بها إلا بوصفه الجالس على هذا العرش، أو بوصفه، وحده، الوليَّ عليه. من أين لهذه السياسة العمياء أن تصنع مدينة بصيرة؟».

ج ـ منشور ثالث: «رفض الروماني سيللا[1] (Sylla) أن يحكم شعباً من العبيد ـ كانت روما في أوج عظمتها. لم يكن يريد الحكم لمجرد الحكم. ولم يكن يريد أن يحكم، هو الحر، إلا أحراراً مثله».

*

ثمة في المدينة دال لحظات ميتة لها رائحة الحياة. وثمة لحظات حيّة لها رائحة الموت. ولماذا، أيتها المدينة التي اكتست بغبار السنابك عصوراً ـ لماذا تزدادين غباراً؟

كلا، لن أُجْلس حكمتك على سريري.

كلا، لن أُدَاعِبَ طفل الحاضر الذي تداعبينه.

*

من أين يجيء هذا الصراخ في المدينة دال؟ (ما أقوله هنا ينطبق على المدينة باء)، كيف يحدث أنك تحسه، تراه تلمسه، ولا تكاد أن تسمعه؟ للجدران هي أيضاً زفيرها، والفضاء نفسه شهيق.

تمحو السماء الأسئلة، ويرسو الزمن قرب العتبات كمثل أقدام أضناها السفر.

ضعي كاحلك، أيتها المدينة، فوق الحروف. والتبس، يا جسدها، بالكلام والصوت. يبدو أن السماء نثرت بذارها فيك، مرة أخيرة وإلى الأبد.

*

أسدل الجسد ستاره المهدَّب. أخذت كل نافذة في المدينة دال ترهف أذنيها. وبدأ الليل يقطع الخيوط التي تربطه بالكواكب وبساتينها. إن كانت هناك سعادة فهي بين فخذيك، أيها الإنسان: تقول المدينة دال، وكان ليلها الصوت الأول الذي بشر بذلك.

*

المدينة دال (ما أقوله هنا ينطبق أيضاً وبشكل خاص على المدينة باء)، مثقلة بأزل المعرفة، لكنها مع ذلك الريشة والدخان. مولودةٌ مع الماء الأول، لكنها مع ذلك المتقلبة أبداً في رمل الموت. طالعةٌ ضوءاً أول في سديم العالم، لكنها مع ذلك التّائهة في الظلمات.

لكن، لكن كم سأكون هانئاً عندما تقدر كلماتي أن تصعد السلّم الذي تصعد عليه مراراتها،

لكن، لكن سأظلُّ أتنوّر بها.

وسأظل أناديها في هذا الرّماد الغامر: أيُّها اللَّهب العمودي!

*

طريقُكَ في المدينة دال (وفي كل مدينة) لا تعطى.
وهي ليست طريق الآخر. طريقك هي بحثك عن الطريق.

*

لا أستطيع أن أسقط إلا في حوض الدقيقة التي أعيشها. وكل دقيقة سماء موصولة بسماء أخرى:

لا أَستطيع إلاّ أن أعلو، هكذا يقول الوحيد المتشرد خارج المدينة دال.

*

ستظلُّ طرقي هَشَّة ومتعدّدة،
ذلك أنّها لن تمتدّ إلا بين المضيء والأكثر إضاءة.

*

ما أكمل نظام المدينة دال، وما أقوى أَمْنَها:
وأكملُ وأقوى ما فيهما، الأراملُ والكلاب، ـ
الأراملُ لتزيين الشوارع
والكلاب للحراسة.

II

يقولون لي: ما أنتَ؟ في كل بلدةٍ
وما تبتغي؟ ما أَبْتَغِي جَلَّ أن يُسْمَى.

المتنبي

١٦٣ هـ.

ـ ذ ـ

إبتدغ

تتزندقْ،

أوتمنطَقْ

إذا شئتَ أن تتزندَقْ.

ـ ض ـ

إعشَقِ امرأةً

مثلما يعشق العطر أكمامَه،

خارجَ القَيْدِ،

أيًا يكنْ، تَتَزندقْ.

ـ ظ ـ

اكتبِ الماءَ، ماء الحياةِ، كما

يتفجّر في صَدْرِها،

تَتَزندقْ.

ـ أ ـ

حَلَبٌ دارُ هِجْرَتي الآنَ، كان الخليلُ[1]، كما قيل، يأتي إليها من القدسِ، يمكثُ في تَلِّها. تَلُّها قلعةٌ ـ فيه، قال الرّواة الثّقاتُ: بنوا للخليل مُقَاماً، وله في المقام، كما قيل، جرْنٌ كان يحلب أغنامَهُ فيهِ ـ قالوا: مِن هنا سُمّيت حَلَبٌ بِاسْمِها، وأضافوا: حَلَبٌ قَلبُ هذي البلاد التي سُمِّيت شآماً، وهي من عينها النبيّة إنسانُها. وقالوا: بُنيت هذه المدينة والطّالع العقربُ

وعُطَارِدُ والمشتري فيهِ...

ـ كلُّ الكواكبِ ترنو لضوئكَ، يا أيّها الكوكبُ.

* كلّ ما قالهُ،
كلّ ما لم يقلْهُ، وما لن يقولْ
كتبته الأصولُ، وتُفصح عَمّا تيسّرَ منهُ ـ
الحقولُ الرياح الفصولْ.

(١) إبراهيم الخليل.

١٦٣ هـ.

- ب -

حَلَبٌ ـ نهرُها، التّلالُ، الأزقّةُ،
أبوابُها
وساحاتُها
صورٌ ولغاتٌ،
وَدمي تُرْجمانْ.

إفْتَح البابَ كي تلمَس الضّوءَ والظلَّ معتنقيْنِ، وراءَ الشّقوق التي تتموّجُ في ليلِهِ،
تتزندَقْ.

جسَدي مائِلٌ
فوق ذاكَ الهُبوبِ الخفيِّ
الذي ينسجُ الزّمانَ وأسْرَارَهُ
بخيوط المكانْ.

غَنّ للكوكب الذي يتلألأ في غَيْهبِ الشّعر كي تتفتّح في نورِهِ،
تَتَزندقْ.

قلْ: مللتُ من الغَيْبِ يُملي عليّ خرافاتِهِ، وأهواءَهُ،
تتزندَقْ.

* يجلس الحلم في حلبٍ، كلّ ليلٍ
معه نخلةٌ
تجلس القرفصاءْ
كي تُمشّطَ شَعْرَ السّماءْ.

١٦٣ هـ.

- غ -

إنْ تقل: شِعْرُ إبن جُرَبْجٍ وبني فارسٍ،

أَرَقُّ وأجمل مِن شِعْر إبْنِ كِلابٍ وبَني مُرَّةْ،

تتزندَقْ.

أو تقلْ: لستُ أذبَحُ طيراً،

أو تقلْ: هذه الأرضُ ليست بساطاً، ولكنّها كُرَةٌ،

تتزندَقْ.

شُقَّ صَدْرَ الكلام،

لِتعرفَ أسرارَهُ،

تَتَزَنْدقْ.

- ج -

حَلَبٌ ـ شَهرزادُ الأسيرَهْ

بين ميثاقها وأشْوَاقِها

أَسْلمتني إلى نارها الأميرَهْ

وإلى نُورِها،

كيف أرجو خَلاصاً

من بَهاءِ مَدَاراتِها؟

وأنا لم أكن، مرّةً،

كوكباً تابعاً ـ لن أكونْ

جسَدي سُفُنٌ جارياتٌ

ورُبّانُهنَّ الجنونْ.

* حبٌّ ـ لغةٌ:

كلّ حروف العلّة فيها، أَعْضاءٌ

وسواكنُها

فُرُشٌ ووسائدُ، والأيّام نِقَاطٌ.

- د -

١٦٣ هـ.

أَلرّبيعُ الذي كان يبني لِنهر قويْقِ
مُدناً من رياحينهِ
مات مُسْتَوْحشاً:
هكذا، كان يهمسُ لي بعضُهم،
ويُثنّون: كلاّ،
لم يُلوّحْ له أيّ بابٍ، ولم تتقدّمْ
زهرةٌ كي تقولَ: وداعاً.
وحدهُ، تَمْتَم الشّعر: أَرفعُ هذا الرّبيعَ
إلى ذُرواتي
ليكون مليكاً عليها، ورفيقاً لها.

جِدّ عن السّمْتِ، سَمْتِ العروشِ، وأبوابِها وتعاليمها، تتزنْدقْ.

وخُذِ الشّمسَ من خارج الحروف التي تتعفّنُ في حبرها، تَتَزنْدق،

واغتربْ، واضطربْ وانخطِفْ، واجتهِدْ، تَتَزَنْدَقْ.

* زُرْقة الصّحراء تحني رأسَها
وتُحيّي اللّيلَ: بستانُ نجوم
نائمٌ، والسُّحُبُ البيضُ لِحافٌ.

١٦٤ هـ.

- ١٠ -

سَرقَسْطةُ[1] ميدانُ حَرْبٍ
بين أبنائها وأبنائِها.
الأميرُ يُصلّي لأسيافها
الماضيهْ
والحسين بْنُ يَحْيى -
بعض أشلائهِ رمادٌ
بعضها حطَبٌ وشرارْ.

لا خيارٌ:
تكونُ مع العرشِ،
أو في فم الهاويهْ.

(١) بين ١٦٤ - ١٦٥ هـ شبت في سرقسطة حروبٌ مات فيها الكثير وقيل إنّ الشخص الذي قاد هذه الحروب ضدّ عبد الرحمٰن الدّاخل واسمه الحسين بن يحيى قُتِل «بطريقة بالغة الوحشيّة».

- هـ -

كيف أَصحُّ، وكيف أُصَحِّحُ نفسي؟
تاهَتْ لغتي
في حنجرتي.

أَتُراه الشّعرُ يفكّك جسمي
ويُبَعْثِرهُ
في أجسامٍ أُخْرى؟

أُتُراهُ شِعْرِيَ مَوْتي؟

* شُهُبٌ من كلامٍ أَحْرقت حِبْرها،
غير أنّ الورَقْ
لم يَقلْ كيف غَنَّى لها، وهَوَى
مثلَها، واحْتَرَقْ؟

١٦٥ هـ.

- ١١ -

- أ -

«وضعونيَ في جوف بئرٍ،

طال شَعْريَ واسترسلا

كدتُ أفقد عينيّ» - هذا ما حكاه ابنُ داؤدَ[1] عن سجنهِ.

- ب -

حين أُخرج مِن سجنهِ، قال: «لم يَبْق مُستَمْتعٌ لشيءٍ، فخذوني إلى مكّةِ».

- و -

في يَديْ حَلَبٍ

يتقلَّب مِثليَ حِبْرُ الهمومْ،

والنّجومُ وبعض النّساءِ

رسومٌ له،

ومَرايا.

هكذا تهجس الشّمس فيَّ،

وتهجس تلك التّخومُ

التي تتطاوَلُ فيما وراءَ التُّخومْ.

* هُوَ، مِنْ ياء هذا الزّمانِ إلى
الألفِ الأوّلِ
قَلَقٌ ذاهبٌ
يَتأمَّلُ في قلقٍ مُقْبلِ.

(١) يعقوب بن داؤد. استوزره المهدي، ثم سجنه وسجن عمّاله وأصحابه.

١٦٦ هـ.

- ج -

وَضعوهُ على ناقةٍ وإلى مكّةِ أُرسلاَ.

ماتَ فيها،

تهكّمهُ شاعِرٌ:

«فَدَعْ عنكَ يعقوبَ بْنَ داوُدَ، جانباً

وأَقْبِلْ على صهباءَ طيّبةِ النّشرِ».

- ز -

جامِعٌ مَوْعِدٌ

لِطيوفٍ تَجِيءُ بلا موعدِ.

والمدينة شَحّاذَةٌ

تتمدَّدُ في بابِهِ،

ضَفَرَتْ حُزنَها أكاليلَ غَطَّتْ بها

كتفيْها.

وَجْهُها سَاهِمٌ يَتَساءَلُ:

ما ذلك المخبّأُ،

مِن أين يأتي،

وكيف سيأتي؟

* أخذته الرّياحين في حِضْنِها
شَرِبَتْ وَجْدَهُ وَسَقَتْهُ -
لا يَزَالُ كما تركتْهُ.

١٦٦ هـ.

- ١٢ -

- أ -

أَوّلُ المحدثين ابْنُ بُرْدٍ[1]: هكذا أجمعوا.

نَسبوهُ إلى امْرأةٍ أَعْتَقَتْهُ مِن الرِّقّ، واتّهموهُ

بالفُجورِ، وبالزّندقة -

ماتَ جَلْداً: تَأَسَّسَ شِعرُ

الحداثةِ في مَحْرَقَهْ.

- ح -

أَحَدٌ: لا أَذَانٌ، ولكن

نَغَمٌ آخَرٌ -

أقولُ لأجراسِهِ:

أَمْسِكِي بيديّ، خُذيني

مِثلَ طفل يسافِرُ في ظنّه

ويجرُّ السُّهولَ، يجرُّ الجبالْ،

بأعنّةِ أشواقِهِ،

ويجرّ الخيالْ.

* طمست جسدينا وحِبْرَ طفولاتنا
لغةٌ زائدهْ -
أَلهذا، لم تصل بيننا
(كلّ تلك الجسور التي بيننا)، مَرّةً
واحدهْ؟

(١) بشّار بن بُرد. كان، فيما يُروى، يفضّل النّار على التراب، ويُصوّب رأي إبليس في امتناعه عن السجود لآدم. وذلك ما اغتُمِدَ عليه في اتهامه بالزّندقة، وقتله. يقول: «الأرض مظلمةٌ والنّارُ مشرقةٌ
والنّار معبودةٌ مُذ كانتِ النّارُ».

١٦٦ هـ.

ـ ب ـ

راحَ يَهذي صَديقٌ لهُ:
«عَن يميني،
أَنْفُلُ بِاسْمكَ، بَشّارُ،
أَنْفُلُ أيضاً
عَن يساريَ ـ أَسجدُ
لِلنّار مِثْلكَ، لا للملائكِ،
أو آدمٍ».

ـ طـ ـ

حَلَبٌ ـ ألفُ مُهْرٍ من الرّوم،
تأتي إليها
هرباً، كلّ يَومٍ
كي تُسبّح فُرْسانَها
وَهي تهرب من نَفْسها
كي تُسافرَ في كُنْهِ أَحْوَالِها.

أَهُنَا، أَهنالكَ مَن يعرف الكلماتِ التي تتشهّد فيها؟
أَهُنَا، أَهُنَالكَ مَن يتفهّمُ عِطْرَ
الجراحِ، الذي يتخيَّرُ أردانَها؟

* فكرةٌ تتوهّج في رأسهِ:
نجمةٌ تضحكُ.
فلماذا يُسمَّى هنا مانويًّا،
أو يقال هناكَ له: مُشْرِكُ؟

١٦٧ هـ.

- ١٣ -

قَتل الأمويُّ[1] المغيرةَ - إبْنَ أخيهِ، وأصحابَهُ.

قِيلَ: كانوا يُغنُّونَ -

لا بُدَّ أن ينزلَ العرشُ في حيّنا، ويكونَ لنا ظِلّنا، ويَفيءَ إليهِ الذين أتوا قبلَنا، والذين يجيئونَ مِن بَعْدِنا، ويَفيئوا إلينا.

(١) هو عبد الرحمٰن الدّاخل.

قتل ابن أخيه المغيرة ابن الوليد بن معاوية بن هشام، وقتل معه آخرين بتهمة إجماعهم على خَلْعِهِ.

- ي -

تُرابُها صَوْتُها - إثْماً ومغفرةً
غَنَّى، زَها لاعِباً، يوحي ويُوقظني
ويُوقِظُ الحِبْرَ والأقلامَ والكُتُبَا
فصِرتُ أَقْرَأُ أيّامي بحكمتهِ
مُنَوّراً أَتماهى باسْمِهِ وبهِ
حَتَّى كأنّيَ مَن غَنّى ومَن لَعِبا.

* له مع الشعر للترحالِ قافلةٌ
لاتعرف القربَ إلاّ وهي تبتعدُ، -
لَن يَمنع الموج إنْ ألقى مرَاسيهُ
فيها، ولن يَئِدَ النّارَ التي تَلِدُ.

١٦٨ هـ.

ـ ١٤ ـ

ـ أ ـ

حَرْضَ الموصلا

كي تُفيقَ وكي تعملاَ.

ـ ب ـ

كان[٢] ظلوماً شِرّيراً.

قتلوهُ ـ قالوا:

حَقٌّ أن يَقْتَصَّ النّاسُ مِنَ الشّرّير الحاكِمْ

حَقٌّ أن نعملَ كي لا يحكمَ فينا إلاّ الرّجَلُ العَدْلُ العالِمْ.

ـ ك ـ

أُتُرانِي هنا راحلٌ، وأنا قاعِدٌ؟

ولماذا أرَى في الغيوم وسائدَ، في الرّيح بيتاً

ولماذا أُحِسّ كأنَّ الفضاءَ

مِثْل جَبّانَةٍ؟

أيّها الفجرُ، مَهْلاً

أَضياؤُكَ هذا الضّياءُ

أُمْ تُرَى... عَفْوكَ الآنَ،

صِفْ لي،

أيّهذا الغبار الأمينُ الصّديقْ

صِفْ لِخَطْوي، لِشعريَ هذا الطّريقْ.

* أَتُرانا سَنطحن آلامنا مِثْل قَمحٍ،
ونخبز ما يتيسَّر منها، ونعيشُ عليها مرّة ثانيه
طولَ أيّامِنا الباقيه؟

(١) ياسين الخارجيّ الذي خرج في الموصل على الخليفة المهدي وقُتِل.

(٢) موسى بن مصعب الخثعمي الذي كان والياً للمهدي على مصر.

١٦٩ هـ.

ـ ١٥ ـ

ـ أ ـ

جاريةٌ حرّةٌ،
بِسُمّها
ماتَ[١] على زَنْدِها.

ـ ب ـ

فَلْيقتلْني[٢] اللّهْ
إن لم أقتلْكَ: سواءٌ عندي
سِرُّ الخَلْقِ،
وسِرُّ الموتِ، وسِرُّ البَاهْ.

ـ جـ ـ

جاءَ حسينٌ[٣] مكّةَ، قالَ:
«العبدُ المنضمُّ إلينا، حُرٌّ».

ـ ل ـ

حَلَبٌ ـ والهواء تَخاريمُ تكسو
النّوافذَ، والضّوءُ نَسّاجُها.
أَتشرّدُ، شعْري فراتٌ
وجسمي ذبولٌ.

قَلقٌ في يديَّ وفي نظراتي
قلقٌ في عروقي ـ
آهِ، يا قَلَقي، يا صديقي؟
أَتُراها خُطايَ خُطايَ،
تُراها طريقي طريقي؟

* أَلصّواعِقُ تأتي ـ تُدلّي قنادِيلَها
بخيوط المطَرْ
كي تودّعَ إقليمَها،
قبل أن تُحتَضَرْ.

(١) الخليفة المهدي. بلغت الحملة على الزنادقة أوجها في عهده، سنة ١٦٦ هـ. (٧٨٢ م) وقد أنشأ من أجل قتلهم ديواناً سمّاه «ديوان الزّنادقة».

(٢) الكلام لخالد البربريّ العامل العباسي، مخاطباً الحسين، المعروف بـ «صاحب فَخّ».

(٣) صاحب فَخّ. وهو الحسين بن عليّ بن الحسن، وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب.

١٧٠ هـ.

- ١٦ -

- أ -

قطعوا رأسَ حسينٍ في فَخّ،
لكن، أفْلتَ إدريسٌ[١]
أخفاه واضِحُ مِثْلَ كتابٍ
ببريد المغربِ -
واضِحُ يُقتَلُ صَلْباً.

- ب -

أَلزّمانُ كما شئتهُ[٢]، والمكانُ
بهجةٌ وانشراحْ.
هذه كأسُكَ الآنَ، خُذْها:
عسَلٌ طيّبْ.
كان سُمّاً، ومات الربيعُ.
الخليفةُ في غبطةٍ:
ما الذي سوف نفعلُ
بالخيزرانْ؟

- م -

حَلَبٌ - كم تَمَرَّدْتِ، كم ضَربَ السّيفُ أعناقَ
أبنائكِ الغاضبينْ،
كم خَلطْتِ المحبّينَ بالمبغضينَ،
المقيمينَ بالرّاحلينْ.

حَلَبٌ - كم حضَنْتِ الطُّغاةْ
أين تَدْياكِ؟ مِن أين يبدأُ
في صدركِ الموتُ؟ مِن أين
يبدأ ماءُ الحياةْ؟

* أرضُها تتفجّر، تلبس طوفانها،-
أَلسّهولُ تؤاسي جراحاتِها
والجبال تسامِرُ أحزانها.

(١) فَخّ مكان قرب مكّة ويقال إن رؤوسَ القتلى كانت تربو على المئة. ظلّوا أيّاماً دون أن يُوارَوْا فأكلتهم السّباع والطير. وإدريس هو مؤسّس دولة الأدارسة، الدولة المغربية الأولى. هَرَّبه في البريد شخص اسمه واضح كان يتولّى البريد إلى المغرب. وهو مولى صالح بن المنصور فقتله الهادي صلباً.

(٢) الكلام بلسان الخليفة الهادي وهو يقتل الرّبيع متّهماً إياه بأمه الخيزران.

١٧٠ هـ.

- ١٧ -

ألخليفةُ[١] يبرأ منه الزّمانُ، ويبرأ منه المكانْ

قتلتْهُ جواريه خَنْقاً:

جَلسْنَ على وجههِ مثلما شاءتِ الخيزرانْ.

قَتْلهُ كان عيداً تغنّى بهِ الماجنون، وقالوا احتفاءً بهِ:

كي تُعيد الحياةُ إلى سيرها صِدْقَهُ

وإلى وجهها رونَقَهْ

ينبغي أن توسّعَ أحشاءها وأنحاءها

للمجونِ ولِلزّندقَهْ.

(١) الهادي الذي خنقته جواريه بأمرٍ من أمه الخيزران، وخلفه ابنها الرّشيد. وعلى إثْر موته، ظهر الزّنادقة الذين استتروا، واشتهر بينهم، على الأخصّ، يونس بن أبي فروة ويزيد بن الفيض.

- ن -

لاأُبشّرُ، أَهْوى

أن أرى كيف تمضي العروشُ

إلى موتِها،

وأحبّ رماداً تؤولُ إليهِ.

لاأبشّرُ، أَهْوى

أن يُقادَ الطّغاة إلى موتهم صاغرين

أن أراهم أمامَ الذين يَسُوسُونَهمْ

رُكّعاً، ضارعينْ

وأرى كيف يَجْرون، يمضون كالقَشّ

في لُججِ الثائرينْ.

* منذ مات امرؤ القيس شوقاً إليهِ -

إلى ملكه المنتظَرْ،

أَلفِتْنَا طيورُ السَّفَر.

١٧١ هـ.

- ١٨ -

- أ -

صَخصَحٌ[١] يهزمُ الجندَ، جُنْدَ الرّشيد، ويقتل منهم جموعاً.

أَلرّشيد يوجّه جيشاً كبيراً:

قتلوا صَخْصحاً،

وتفرّقَ أصحابهُ.

قتلوا عامل الجزيرة إبْن فَرُوخ[٢] عِبرةً وعقاباً.

- ب -

سألوهُ[٣] لماذا

تُخْرج الطالبيّين مِن دُورِهِمْ،

وتُفرّغ بغدادَ منهم؟

- س -

أطفالٌ شِبْهُ عُراةٍ

يزدحمونَ أَمامِيَ، حولي،

هذي حَلَبٌ ـ أهِي الكوفَةُ؟ أذكرُ،

أَعْلو،

وأجدّدُ عَهْدي.

لِبريقٍ يَخْبو في أعينهم

لنداءٍ يَدْمى في أيديهِمْ،

يَتَفَحَّمُ شعري، يَنْتَهِكُ

كي يتغيَّر هذا الفَلَكُ.

* مَزج الموتُ والفَقْرُ

أبناءَ تلك القُرى،

بأبناء هذي القُرى ـ

غَصَصٌ آسِرٌ، زَمَنٌ يُزْدرَى.

(١) الصَّخصح الخارجي.

(٢) أبو هريرة، محمد، عامل الرشيد على الجزيرة. والرشيد هو الذي قتله.

(٣) الإشارة إلى الخليفة الرّشيد.

١٧٢ هـ.

- ع -

لا أشاهِدُ إلاّ ظلاماً يَرينُ على صَدْرِ
آدَمَ، -
تلك الجِنانُ التي سَحَرَتْهُ وتلك
الجحيمْ
لم تُعلّمهُ حتّى الوفاءَ إلى طينه الكريمْ.

ليس رأسي غراباً
ولا أرضَ مَنٍّ وسَلْوى
ولا صَلواتٍ ولا أدعيهْ،
رأسيَ الكونُ: آدَمُ زَرْعٌ لهُ
والحَصادُ هُوَ المعصيَهْ.

* «إمْضِ، لا تتمهّلْ»:
حكمَةٌ دائمهْ
للنجوم التي تتوغّل في جَبل اللّيل،
نَشْوانَةً هائِمهْ.

- ١٩ -

بين الإخوة[1] حربٌ:
فازَ هشامٌ ونفَى أخويه.

(١) هشام بن عبد الرحمٰن الدّاخل، وأخواه سليمان وعبد اللّه. أعطاهما مالاً، ونفاهما.

١٧٣ هـ.

ـ ٢٠ ـ

ـ أ ـ

«سوف أضرب عُنُقَهْ [١] ـ
ماحياً خَلْقَهُ وخُلْقَهْ».

ـ ب ـ

موسى، آدمُ: أين التقيا؟[٢]
ـ أتشكّ؟
ـ معاذَ اللّهِ، ولكن
أسألُ: كيفْ؟
ـ هَاتوا النِّطْعَ، وهاتوا
السّيفْ.

(١) بلغ الرشيد أنّ بشر المريسي يقول بخلق القرآن، فقال إذا ظفرت به سأضرب عنقه.

(٢) قال أبو معاوية الضّرير «حدّثت الرشيد يوماً حديث «احتجّ آدم وموسى»، وعنده رجل من وجوه قريش. قال هذا الرجل ـ أين التقيا؟ فغضب الرشيد وقال: ـ النطع والسيف! زنديقٌ يطعن في حديث.

ـ ف ـ

«لا مُثَنَّى»:

تهمس الأشياءُ في أُذْنَيَ ـ
حَقّاً،
كلُّ ما في حَلَبٍ فَرْدٌ بشطرينِ،
ولا لُحْمةَ ما بينهما؟

هكذا يُوغِلُ في غُربتهِ نَهْرُ قُوْيقِ
ناحِلاً منكسراً في الضّفّتيْنْ
مثلما تنكسرُ الشّهْوةُ في أَوْجِ
التحامِ الجسديْنْ.

* قلبهُ حسَراتٌ
تَتَنَقّل مخنوقَة الهواءْ
في فُصولِ البكاءْ.

١٧٧ هـ.

- ٢١ -

أَلرَّشيد يُولّي الأمينَ ابْنهُ،
وَهُوَ في الخامِسة،
هَلَّلَ النّاسُ لِلطّمسِ يَمحوهُم
ولآياتِهِ،
وأعراسِها،
وأسيافِها،
ولكلّ تقاليده الطّامِسَة.

- ص -

أَشْتَهي لقويقِ
ما اشْتَهَيتُ لِنفسي:
أن تظلّ العيونُ التي تَقْتفيهِ
تَتَلألأُ مأخوذةً
بفقاعاتهِ.

أشتهي لقويقِ
أَن يَظلَّ النّذِيرَ المنوّرَ، حيث الزّمانُ
مريضٌ، والمكانُ ينوءُ بأشلائهِ.

أشتهي لقويقِ
أن يظلّ كما رسَمَتْهُ خُطاهُ:
لا سريرٌ له غيرُ أَمْواجهِ.

* يَتَغَلْغَلُ في كلّ شيءٍ
نَفَساً مِن هَباءْ:
لا يُريد الصّعودَ على سُلَّم الأنبياءْ.

١٧٥ هـ.

- ٢٢ -

- أ -

عـرَبٌ: ذا يَـمـانٍ، وذا مُـضَـريٌّ
والشآمُ لكلّ منهما

ساحَةٌ للقتالِ،

وأيّامُها

جزرٌ من دَمِ.

- ب -

في نصيبين والموصلِ،

قُتِلِ الفَضْلُ[1] مع صحبهِ،

لا تقل: كيفَ؟ لا تسألِ.

- ق -

في البيت. البابُ حديدٌ

والشّباكُ الضّيّقُ في الزّاويةِ

اليُسرى لم أَفْتَحْهُ.

مِن أين تجيء الرّيح، إذن؟

ريحٌ،

كلّ حطام الأرض يُصَلْصِلُ فيها.

* خُذْ يدي في يَدِكْ:
يومنا واحِدٌ
وغدي لا يُسافِرُ إلاّ طالِعاً مِن غَدِكْ.

(١) الفضل الخارجيّ.

١٧٦ هـ.

- ٢٣ -

- أ -

إنّها من جديدٍ
نزاريةٌ ويمانيّةٌ،
مُذْ هذا الشّبَكْ
أيّها الدّهرُ، واغْمُزْ
بتخاريمهِ الفَلَكْ.

- ب -

الـرّؤوسْ، نـزاريّـة ويـمـانـيّـةٌ،
كالسّنابلِ، حَصَادُها
مرّة، رَجُلٌ عاقِلٌ دون دينٍ
مرّةً،
رجلٌ دَيّنٌ دونَ عَقْلٍ.

- ر -

كادَ أَن يتمزّقَ وجهكَ ياليلُ، بين
يديَّ، وأن يتمزّق فيه القِناعْ
كدتُ أن أرفعَ المزقَ الحُمْرَ في مَوْجِ
يأسيَ مِثْل الشّراعْ،
آسِفاً:
ليس للأرض شَكْلُ الزّمانْ
كي أطابقَ ما بين جسمي وَحُلْمِي،
غيرَ أَنّي سَأُوغِلُ في شهواتي
وأتابعُ هذا الرّهانْ.

* تسكر الرّيحُ: هذي كؤوسُ الغبارْ
فَرغَتْ، والنّهارْ
أخذته يَدُ اللّيلِ، والثّلج أَغْلَق
حانوتَهُ.

١٧٧ هـ.

- ٢٧ -

- أ -

قال المهديُّ[1]: رأيتُ كأنّي أعطيتُ قضيباً للهادي ولهارونَ قضيباً.

الأوّلُ أَوْرَقَ في أعلاهُ

والثاني أَوْرَقَ من أَسْفلهِ

حتّى أعلاهُ.

- الملْكُ قصيرٌ للهادي، ولهارونَ

يَطولُ الملكُ: تكونُ له أَبْهَى أيّامِ.

(١) الحكيم بن إسحاق الصّيمري، هو الذي فَسّر للمهدي منامه.

- ش -

مَن يُصدّق أَنّي أموتُ

لكي أكتبَ القصيده؟

مَن يُصدّق أَنّيَ أُخْطِىءُ في كلّ حَرْفٍ،

وفي كلّ شيءٍ؟

وأكرّرُ ما كنتُ رَدّدتُهُ:

خَطأي أزليٌّ

خَطأٌ خالِدٌ -

وليس كما قيل عنهُ.

خَطَأي أنّ ضَوئي قريبٌ وشَمسي بَعيدَهْ.

* قَصبُ الماءِ، زَهْرُ الجنائنِ،

خَشْخَاش هذا الزّمانِ - مَزيجٌ

يتعلّم أسراره، ويفكّ الرّموز التي أقفلَتْهُ،

ويرفع منها سقوفاً

لأيّامهِ، ولأحلامهِ.

١٧٧ هـ.

- ب -

أَهْلُ أفريقيا
يقتلون ابْنَ رَوْحٍ[١].
ليس بين الرّعايا والولاة الذين
يسوسونَهم،
غيرُ أوجاعهم وأَسْيافِهم.

- ج -

هل كلّ نظامٍ يتأسّسُ سُمٌّ
مُهَرَاقٌ
مِن جسد الماضي؟[٢]

- ت -

كان ذلك ليلاً، والخريف يَسيرُ على ضفّةِ
النّهر - ليلاً. قمرٌ يتغطّى بأهدابِهِ،
زقاقٌ
يَقِظٌ يَتمرْأَى في الشّعاع الذي كان يرسمُ
حُرّاسَ أبوابِها.
كان ذلك ليلاً، والنّجوم زهورٌ
تتناثَرُ في حيّها - في المداخلِ، في
الشُّرُفاتِ
وفي العتباتِ المدينةُ بيتٌ لها،
وأنا عابرٌ
أتنشّقُ عِطراً يَجيء ويذهب في كلّ فَجّ.

هكذا - وأنا أتبعثر مُسْتَسْلِماً لحصاراتها
أخذتني المدينة بين يَدَيْها إليها
- كان ذلك
ليلاً، والخريف يُبلِّل سِروالَهُ
بمياهِ قُوْيقِ.

* لا كنيسةَ جاءت، لا كنيسٌ ولا جامعُ:
لامجيبٌ ولا سامِعُ.

(١) الفضل بن روح ابن حاتم والي الرشيد على أفريقية.

(٢) الإشارة إلى إدريس بن عبد اللّه، مؤسّس دولة الأدارسة في المغرب، والذي مات مسموماً سنة ١٧٧ هـ.

١٧٨ هـ.

- ٢٥ -

- أ -

كتب الرشيد إلى يزيدِ[١]: -

«لأوجهنّ إليكَ

مَن يأتي برأسكَ،

إنْ تأخّر في المجيء

إليَّ رأسُ التغلبيّ».

- ب -

قُتل الوليدُ التغلبيُّ،

رثته ليلى:

«أيا شجرَ الخابور، مالكَ مُورِقٌ؟

كأنّك لم تَجزَعْ على ابنِ طريفِ».

- ث -

قلتُ لنفسي، وأنا أتفكّر في ما يجري حولي:

أَأُشاغِلُ فِكري وأضلّلهُ

كي لا يعرفَ شيئاً عنّي

ولكي يَنْأى

أم أتركهُ يَقتصُّ خُطايْ؟

حولي غابَةُ حبٍّ:

أصواتٌ في أوراق الغابةِ، رقْصٌ، -

أَهَوىً آخَرُ يأتي؟ أم أشباحٌ

تَتَحَرَّكُ، ترصدُ ما يتوالَدُ مِنّي

في آثار خُطايَ،

وفي أنقاضِ هَوايْ؟

* شاهدُ الشعر يملي رؤاهُ على شاهدِ السّنواتِ العِجافْ،

أَلعُروشُ سَكاكينُ أوهامِنا

والشعوبُ الخِرافْ.

(١) يزيد بن مزيد الشيباني، والإشارة إلى الوليد بن طريف التغلبي الذي خرج على الرّشيد في الجزيرة، وليلى هي أخت الوليد.

١٧٩ هـ.

- ٢٦ -

بَرْبَرْ تاكَرْنَا[1]

ثاروا، خلعوا الطّاعةَ،

أَفْنَاهُمْ

جيشُ هشامٍ.

قالوا: بقيت تاكرْنا

سَبْعَ سنينٍ، لا يسكنها إنْسيٌّ،

لا يدخلُها إنسيٌّ.

(١) من أقاليم الأندلس التي كانت خاضعة آنذاك لهشام بن عبد الرّحمٰن الدّاخل.

- خ -

نَهْرُ قوْيقِ

جسرٌ ماتَ، وجسرٌ

لم يُولَدْ.

ما بينهما

لغةٌ تتمرأَى في ماءٍ عابِرْ -

مِن أي أتيتَ؟ وكيف ستمضي

يا هذا الشاعِرْ؟

* أوّل الشعر ماءٌ - (في قويقِ تموّجُ ماءٍ لهُ رغباتٌ لم يفهْنَ بأسمائهنَّ لغير الضِّفافْ)

وأنا لا أريد القطافَ: أريد الدّروبَ التي سلكتها الثمارُ إلى مُسْتَهَلّ القطافْ.

١٨٠ هـ.

- ٢٧ -

- أ -

في الجزيرة، ثارَ خُراشَةُ[١].
قالوا:
- بَدَدَ اللّه جمع الخوارجِ،
قالوا:
أطْفأ اللّه نيرانهم.

- ب -

المحمرّة استبسلوا مِن جديدٍ
بقيادة عَمْروٍ[٢]. وقالوا:
بُدِّدوا. وأضافوا:
أَطْفأَ اللّه نِيرانَهم.

- ذ -

أَسْتَشْرِفُ الشّعرَ: في عينيهِ قافلةٌ
ضَلّت، وقافلةٌ تحيا بلا وطنِ
دُروبُها الضّوءُ - ممزوجاً بحيرتِها
وحِبْرها الدّمعُ مَسْكَوباً على الدِّمنِ
أُضِلُّ فيها وأَهْدي: أيُّ وَسْوسَةٍ
تقولُ موجيَ محمولٌ على سُفني؟

أرضي كلامي، - كلامي جَنّتي عَشقت
وجهَ الجحيم، وَربّي - حاضِناً وثني.

* آهِ، من أين يخرجُ هذا الفراغُ
الذي يُمْسِك الأرضَ مِن عُنْقِها؟

(١) خُراشة الشيباني الخارجي.

(٢) عمرو بن محمد العمركي، وقُتل في مَرْو.

١٨١ هـ.

- ٢٨ -

- أ -

إبنُ مُرَّة[٢] يُذبَحُ في القيروانِ،
وعمرانُ يُقتل من بعدهِ،
والتمرّد في تونُسٍ أثَرٌ بعد عينِ.
وطليطلةٌ تحتفي
بالرؤوسِ التي قُطِعت وسيقت
إلى ربّها، كالنّذوز -
هتفوا، أنشدوا حولها:
هكذا تَستقيمُ الأمورُ!

- ض -

قال لي، وهو يَشْربُ - يَهْذي ويبكي:
لستَ لي، ياأخي، مثالاً.
إنني أتمثَّل بالحارث بْنِ مُضَاضٍ[١]، -
سأقولُ: تَقَمّصْتُ فيهِ
مِثْلهُ أتطوّحُ فوق التّراب كأنّي
ترابٌ،
وأعيش على الأرض في غُرْبَةٍ.
مثله أتقدّمُ، أمزج في ذات نَفسي،
وفي كلماتي وفي خطواتي
بين وجه السّماءِ ووجه السّرابْ.

* يحيا قريباً إلى أحلامهِ الأُوَلِ،
كأنه العِطرُ - مَسْكوباً، يطوف على
وجه المكانِ، وَيَسْتَجلي أقاصِيَهُ
بلا اكتراثٍ، بلا يأسٍ، بلا أملِ.

(١) رجلٌ شبه أُسطوري. يقال إنه من ملوك العرب قبل الإسلام وضربت الأمثال به لاغترابه وطوافه في أنحاء الأرض. ويقالُ إنه حارب بني إسرائيل.

(٢) مخلّد بن مرّة الأزدي وعمران ابنه. ثارا على إبراهيم بن الأغلب. وكان قائد التمرد في تونس، رجل يدعى حمديس، قبل قتل من أنصاره عشرة آلاف.

وفي طليطلة كان المتمرّد عبيدة بن حميد، وقتل مع آلاف من أنصاره، كما يروى. وحملت رؤوسهم جميعاً وطرحت أمام «صاحب الأندلس».

١٨٢ هـ.

- ٢٩ -

رجلٌ غامضٌ - يسأل النّاسُ عنه، يجهلون اسمه

والدُّروبَ التي جاء منها،

ويُحبّونه: ينتمون إليه بأحلامهم.

ويُحيّونه بالصّفات التي ميّزَتْهُ:

«لم يضَعْ مرّةً

جراحاتِهِ على المائدَهْ،

ليس من هذه اللّغاتِ،

ويجهل هذا الصّراطَ،

وينبذ ما ترسمُ القاعِدَهْ».

- ظ -

كم أخاصِمُ نفسي، أسائلُ نفسي:

- لماذا نُزوعكِ دوماً إلى وطنٍ آخَرٍ؟

ولماذا

كلّما جئتِ أرضاً صبوتِ إلى غيرها؟

كيف لي أن أُدَجِّنَ فيك انفجاركِ -

ذاكَ الهديرَ، وذاك الشّرارْ؟

- إنّه وَلَهُ الشّاعرِ

إنها فِتْنَةُ الرّحيل إلى لا قَرارْ.

* قدماه هما تِيهةُ الأوّلُ:

كيف لا يَصعد الوَحي فيه،

كيف لا ينزلُ؟

١٨٣ هـ.

- ٣٠ -

- أ -

مات الكاظِمْ[١]
في السّجن - وقالوا:
أرسل لِلسجّان[٢] يقولُ:
«بَلائي يمضي،
ورخاؤك يمضي،
لكنّ الخاسِرَ أنتَ،
فأنتَ الظّالِمْ».

- ب -

كيف تعارض يا بهلولُ [٣]؟
كأنّك، حقّاً، بهلولٌ.
رَفْضُكَ سِجْنٌ -
تُرْمى فيهِ، لا عودةَ مِنهُ
أو تُقتَلُ فيهِ.

- ج -

قَيّدوه، اسجنوهُ، ألَهُ أن يخالفَ رأيي؟»

- د -

مات من أَثَرِ السّجن، في بيتهِ.

- غ -

عند بابِ بُزاغا
فاجأتني خُطاها
فاجأتني ضفائر أوجاعها
مُسْدَلاتٍ على كتفيها.

لم أكن أتوقّع أنّ التّعَبْ
جسدٌ آخَرٌ
تتناسَخْ فيه حَلبْ.

* أَلعزيزُ المشرّدُ - في قدميْهِ
جَبَلٌ راكعٌ، وفي راحتيهِ
وجْهُ أَيْقُونَةٍ.

(١) موسى الكاظم، ومات في سجن الرّشيد. لُقّب بالكاظم لأنه كان يُحسن إلى من يسيء إليه، كاظماً غيظه.

(٢) الخليفة الرشيد.

(٣) البهلول بن راشد، كان عالماً راهداً عارضَ أمير أفريقية (وكان آنذاك محمد بن مقاتل العُكّيّ)، في إرساله النحاس والحديد والسّلاح إلى ملك أسبانيا فضربه الأمير وحبسه.

غ ـ ١/ طِلَّسْمات

يَجري مِن باب بُزاغَا
نَهْرٌ ذهَبٌ
يتجمّد ملحاً، لكن في طَعْمٍ معتدلِ.

*

حَجَرٌ أسودُ فوق بلاطٍ أسودَ ـ قالوا:
لمّا نزعوه مِن موضعهِ
انْهارَتْ
أسوارُ القلعة سوراً سوراً،
وانْهارَ الجامع فيها.

*

حجَرٌ حدٌّ
حين يغيّر موضعهُ
تتبرّج كلّ نساء الحيّ، وتأخذهنّ الشّهْوه
ويجامعْنَ، اسْتِمتاعاً
جَهْراً، أوفي خَلْوهْ.

*

ماءٌ ـ
إن قَطرَتْ منه قَطْرَهْ
فوق العقرب ماتَ. وقالوا، استطراداً:
قرية يَحْمولِ
لا يحيا العقرب فيها،
وإذا جاء إليها ماتْ.

*

حين يفيض قويْقٌ
يحمرّ الماء وتبدو فيهِ
صورٌ، وتماثيلُ نحاسٍ.

*

عينٌ كبريتيّهْ
يأتي النّاس إليها
من كلّ الآفاق، وتشفي الأمراضَ جميعاً.
لا يدري أحدٌ
مِن أين يجيء الماء، وكيف، وأين يَروحُ؟
قالوا: جرحٌ

يتطهّر فيه
كونٌ مجروحُ.

*

جرْنٌ
لِدماء سَلاحفَ تَشْفي المصروعين، وتَشْفي
كلّ الأوجاع السّريّهْ.

*

بالروميّهْ
كُتبت أسماء المقبورينْ:
هذا نورٌ من عند الله، وهذا في عِلّيينْ.
مقبرةٌ ـ يغمرها نورٌ
لا يَسْطَعُ إلاّ في اللّيل، وحين يجيء النّاس إليه، يَخْفى.

غ ـ ٢/ أبواب

في التاريخ أنّ الدخول إلى مدينة حلب، كان يتمّ من أبوابٍ متعدّدة، يعود أقدمها إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ويعود أحدثها إلى بداية القرن السادس عشر.

الأبواب التي زالت ولم يبق لها أي أثر، هي: باب العراق، باب العدل، باب الفراديس، باب السّعادة، باب السّلام، باب العافية، باب الأربعين، باب القناة، باب الأحمر. الأبواب التي زالت وبقي اسمها. هي: باب الفرج، باب الجنان، باب التيرب. الأبواب الباقية هي: باب أنطاكية، باب النصر، باب قنّسرين، باب المقام، باب الحديد.

بَابُ النَّصْرْ، ـ

غِزْلانُ فراقٍ ومرَاراتٍ

تتقافَزُ مِن أسْوارِ القَصْر.

*

بابُ أنطاكيهْ، ـ

رأس قدّيسةٍ

تتفتّح فيه ورودٌ

لا يراها سوى عِطرها.

*

بابُ قنّسرين، ـ

في يديهِ ثلاث نجومٍ

يتفقّدْن أضواءهنّ، على رأسِهِ

قمرٌ هائم؛

*

بابُ الحديد، ـ
لا تَسْلْني،
وقلْ أيَّ شيءٍ.

❊

باب المقام، ـ
ذِبْحٌ،
وإبراهيم يَسكبُ في المقامْ
دَمْعَ الكلامِ ـ دَمَ الكلامْ.

❊

باب العراق، ـ
يعشق الضّوءُ ليل الرّحيلْ،
كيف مالت أبابيلهُ، يميلْ.

❊

باب العدل، ـ
ما أصفاه، ما أوهنَهُ هذا النّبْعْ:
نسجته الحيرة في الأحشاءِ بخيط الدّمعْ.

❊

باب الفراديس، ـ

وجه عشتارَ فوق المدينةِ، رُدّوا

عن وجوه النّوافذ أَسْتارَها.

❊

باب السعادة، ـ

موسيقى ماءْ

تتبجّسُ مِن كبدِ الصّحراءْ.

❊

باب السّلام، ـ

إرحلْ، أو لا تَرْحلْ

بابُ الغرب كباب الشّرقِ، فماذا تأمَلْ؟

❊

باب العافية، ـ

وضع الدّاءُ يديهِ

في ماءٍ بارِدْ.

❊

باب الأربعين، ـ

هيَ قافلةٌ للبكاءْ

تتفتّح فيها السّماءْ.

❊

باب القناة، ـ

بَانَقُوساءُ تَحفظ أسماء مَن مرَّ فيها

وتَقولُ دَفَنَّا

ليلَ أحزانِنا

في شذَى وَرْدةٍ.

❊

باب الأحمر، ـ

مركبٌ من شرارٍ يسافر في لُجّةٍ من شَرارْ

بين هذا الجدارِ وذاك الجدارْ.

❊

باب الفرج، ـ

شارعٌ يتغطّى حياءً من الضّوء،

يخجلُ من عُرْيِهِ.

❊

باب الجنان، ـ

آهِ، ما أجمل الأغنيه

في فم المعصيهْ

*

باب النّيرب، ـ

طِفْلٌ

يتخيّل وجهَ اللّه ويغفو

في إصْطَبْلِ.

*

باب لا اسْمَ له، ـ

لبس الماءُ كتّانَهُ

كلّ خيطٍ له شكل نايٍ

والعناكب أوتارهُ.

هـوامـش



شَرُّ البلادِ
مكانٌ لا صديقَ بهِ.

المتنبي

بهلول المجنون

مات سنة ١٩٠ هـ.

بومتانِ على غُصُنٍ واحدِ:
فَأْلُ خَيْرٍ -
جسَدٌ لا يَنامُ
والسّريرُ الكلامُ.

بُومَتانِ على غُصُنٍ واحدِ:
حبُّنا وزْدتانْ
لكما، أيّها العاشِقَانْ.

مات سنة ١٩٤ هـ.

سيبويه

لغةٌ ـ فتنةٌ

غير أنّ بنيها وأحفادهم

أسلموا جسمها

لرطوبة أيّامهم.

شَرَري موثقٌ بأحوالِها ونارِيَ في سَفَرٍ كاسرِ

كي أعاشِرَ أسرارَها،

أتقصَّى مداها

في هوًى آسِرِ.

أبو نواس

مات سنة ١٩٥ هـ. وكان في التاسعة والخمسين من عمره.

- أ -

«هو لِلمُحدثينْ
كامرىء القيسِ للأقدمينْ» (أبو عبيدة)

- ب -

«ليته لم يكن ماجناً
إذن، كنت آخذ علميَ منهُ» (الإمام الشافعي)

- ج -

. . . . .

أوّل من أخرج الشعر من داره البدويّةِ،
أعطاه سِرّاً جديداً، وسحراً جديداً.
وهو بدءٌ لهذا الأبَدْ.

- د -

«لو تقدّم في الجاهليّةِ:
لم يتقدّمْ عليه أَحَدْ» (عمرو بن كثلوم العتابي)

جابر بن حيّان

كوفيّ، له حوالى ٢٣٢ كتاباً. منها: أسرار الكيمياء، علم الهيئة، تصحيحات كتب أفلاطون، الخمائر، صندوق الحكمة، الرحمة، العهد في الكيمياء... وهو أوّل من وصف أعمال التقطير، والتبلّر، والتذويب، والتحويل. مات سنة ٢٠٠ هـ.

إهْدنا صَنْعَةَ الكيمياءْ
إهدنا لِهواها، لإكسيرها النّبيلْ ـ
زئبقاً، بَوْرقاً
حطباً ومنافخَ، فحماً
وأَنابيقَ من كلّ فَنٍّ.

إهْدِنا للخداع الجميلْ
ولتقطيرها، ولتحويلها.
إهدنا صنعة الكيمياءْ
لِنُحوّلَ هذا التّرابَ الجميلَ، جِناناً
وأنهار شعرٍ وحبٍ
لأحبّائِنا ولأعدائِنا،
مَنْ على الأرض منهم، ومَن منهمُ في السّماءْ.

الإمام الشافعي

مات سنة ٢٠٤ هـ.

لغة الشّرْع في رَأْسهِ،
لغة الشِّعر في رئتيه وفي شفتيهِ؛

الأقاليمُ فَيْحاءُ في وجههِ،
غيرَ أنّ المدائنَ تَعْنو وترزحُ مقطورةً،
تَتقلَّبُ في فقههِ.

هشام الكلبيّ

النّسّابة، وصاحب كتاب «الأصنام». مات سنة ٢٠٤ هـ.

لاتَزالُ إلى الآن أصنامُكَ الرّاسِخهْ
تتَوهَّجُ في ليلِنا.
لانزال ننام على دفْئِها،
في أسْرة أطيافها الباذِخهْ
لانزال إلى الآنَ نشربُ مِنْ ضَرْعِها:
كيف ضاعَتْ وضِعنا، وها زَرْعُنا
يَتَناسَلُ من جَذْعِها
ويعودُ إلى زَرْعِها.

الفرّاء النحوي

كان يُسمّى «أمير المؤمنين» في النحو. وكان مؤدّباً لابنيْ المأمون اللذين كانا يقدّمان له نعليه، احتراماً. مات سنة ٢٠٧ هـ.

لغةٌ تتساءَلُ عن حالِها:

ما الذي نسجته عن الشّيء، ماذا

يعرف الشّيءُ منها؟ وأيّ جسورٍ

نُصبت بين أمواجه وأمواجها؟

لغةٌ تتساءَلُ عَمّا ترى

عن مرايا تقول لها ما ترى،

والمرايا ضَياعٌ

مثلَها، وسؤالٌ.

أحمد بن صَدقة

قُتل سنة ٢١٠ هـ.

طُنْبوريٌّ حذَقَ الصَّنْعةَ، غَنّى:
غَنّى رملاً، هَزَجاً ـ يشكو
لِلصَّخرة قلبَ حبيبتهِ، ويؤاسي
وَرْدة حبٌّ تَذْوي.
هوذا يَمْضي، يَرْجو أن يَلقى الأحبابْ
في الشّام، يحادِثُ طيْراً
يتفيّأ غيماً.
صَخَبٌ، أصواتٌ ـ بَعضُ الأعرابْ
يلتفّون عليه:
أخذوا ما مَعهُ ـ قتلوهُ.

موسيقى طنبورٍ
تَتَغلغَلُ في صَمْتِ الأعشابْ.

بشر بن المعتمر

توفي سنة ٢١٠ هـ. له، كما يُروى، قصيدة في أربعين ألف بيت يردّ فيها على خصوم المعتزلة.

- I -

معتزلاً رائداً،
جَمّعَ آراءه وأفكاره
وصاغها قصيدةً واحده،
ينقد أعداءه
طرائقاً، ولغةً فاسده.

- II -

الأفكار ظلالٌ تأتي وتروحُ ـ فأين الجَدْوى
في أن تُقنع رأساً ليصير يميناً،
وهو شمالٌ
ليصير شمالاً وهو يمينٌ.
ليس الفكر وريداً أوشرياناً.
والأفكار عباءَةُ راعٍ
يتوهّم أنّ الأشجارَ قطيعٌ.

عَليّة بنت المهدي

ماتت سنة ٢١٠ هـ. «كانت من أجمل النساء، وأظرفهنّ وأكملهنّ، أدباً وعقلاً».

(رسالة عن رجلٍ أحبّته)

منذ أن لبس الوقْتُ قُفطانَهُ
وتبختر تيهاً بهِ،
لم يعد يتذكّر أوقاتَنا
لم نعد نتلاقى
لم يعد بيننا
غير ذاك المكان الذي كان يحنو علينا
حين كنّا نفيءُ إليهِ ـ
يُلابس حُزْني،
وألابسُ أفراحَهُ.

الرّواية

III - II

(. . .)

ـ «خُذِ الشعر، أنت أيّها المأخوذ بالمرئيّ ارفعْهُ بيتاً وأَقِمْ فيه سيكون حتماً عليك آنذاك أن تسكن في الجانب الآخر غير المرئي حيث يهدر دمُ العناصر حيث الماء والهواء التّرابُ والنّار ثديٌ واحد آنذاك، ربّما عانقكَ الشقاء طويلاً طويلاً ولن تقدر أن تؤاويكَ حتى أحلامك لن تقدر شجيرات الفستق، بحقولها الفسيحة كلّها أن تُظلّلك لن يجديك عبق البرتقال أو حنان الزّيتون والتين».

(. . .) هذا ما جَهَرَ به لفضاء القلعة توهّماً منه أنّه سيفهمه، ولم يكن يريدُ منه أَيَّ شيء قال ذلك لوجه القول، ربّما لأنه كان يشعر أن جسده تلك اللحظة طافحٌ بحكمة القلق والوحدة، ألاّ قدرة له تقريباً على التّطق. دائماً يُملأُ فمه بماءٍ كلّما جهد أن يفرغه مُلىء بماءٍ آخر (. . .).

(. . .) قرأ:

«اهتمّ الملوك بعمارة القلعة وتحصينها» ـ

أ ـ كُتب على جانب الباب الأوسط في القلعة:

«بالإشارة العالية، المولويّة، الأمريّة، الشمسيّة، قرأ سَنْقَر الجوكندار المنصوري الأَشرفي كامل المملكة الحلبيّة، أعزّ اللّه نصره».

ب ـ كُتب على زنّار باب القلعة:

«أُمِر بعمارته بعد إهماله وإشرافه على الدثور، في أيّام مولانا، السلطان الأعظم، الملك الأشرف، صلاح الدنيا والدّين، ناصر الإسلام والمسلمين، عماد الدّولة، ركن الملّة، مجبر الأمّة، ظهير الخلافة، نصير الإمامة، سيد الملوك والسّلاطين، سلطان جيوش الموحّدين، ناصر الحقّ بالبراهين، محيي العدل في العالمين».

ج ـ كُتب على برج القلعة الشمالي:

«جدَّد هذا السور المبارك مولانا السلطان الملك الأشرف قانصوه، عزّ نصره في أيّام المقر الأشرفي الأمير السّيفي عين مقدام الألوف

بالديار المصرية سيباي الأشرفي نائب القلعة المنصورة بحلب عزّ نصره سنة ٩١٥».

هل ذلك البخار لهاث؟

هل تلك الحفرة سرير؟

نثار خشبٍ، نباتٌ شبه ذابلٍ شجراتٌ تكاد أن تبكي
ركام حصًى وغبار أشباحُ ذاكرةٍ تتكىء حاسرة
الرأس على عجيزة القلعة القلعة أمٌّ فقدت جميع
أبنائها تنحني على شرفاتٍ تُطلّ على صحراء
الِذكرى. حولها طرقٌ يرسمها فراغ الخطوات،
أشخاصٌ يخرجون لِتوّهم من أنقاض التّاريخ[1]،
مهزومين يحملهم اليأس على أطراف أظافره.

(١) التاريخ جسَدٌ خرابٌ، ـ كيف يدخل فيه وروحه أكثر خراباً؟ لكن كيف يهرب منه، هو الذي يتقلب بين يديه؟

استحضرَ سِرّاً شبحَ الموت وعجب من نفسه كيف أخذت تتحدّث معه وتتنزّه خفيةً خارج جسده، بين يديه وعينيه.

لم يلمح طفلاً أم ترى شُبّه له أنّ الأطفال هنا كلّهم رجالٌ قبل الأوان؟

لم يلمح كتاباً أم ترى شُبّه له أن الكلمات هنا أخشابٌ ومسامير؟

غير أنّه سمع من يقول: ينبغي أن تكون القصيدة قَناةً ينبغي أن يكون الكتاب رغيفاً

وخُيّل إليه أنّ الأبجدية طفلةٌ متشرّدة لا مكان لها مع أنّها تقيم في المتحف داخل قفصٍ، وأنه أخذ يتشرّد وراءها لكي يطبق عليها حنان ذراعيه.

قرأ كتابةً بأبجديةٍ ثانية على باب أنطاكية، ـ

«بسم اللّه

أمر بعمارة الباب والأسوار بعد خرابها ودثورها ومَحْو رسومها،

مولانا السلطان الأعظم مالك رقاب الأمم سيّد سلاطين العرب والعجم سلطان البرين وخاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين سلطان الإسلام والمسلمين ناظر الغزاة والمجاهدين العالم الكامل الملك المؤيّد المنصور خلّد اللّه ملكه

في كفالة المقرّ الأشرفي السّيفي...»

(....) («هنا،

كان يتدرّب على الموت في قلعةٍ ثانية تلّة عالية تشرف على المدينة ليس فيها إلاّ الصّراخ وإلاّ قدور الطّعام التي يغطيها الذّباب

كأنه يرى الآن ذلك الطاهي عابساً ضاحكاً معاً يكشطُ بمغرفته الخشبيّة الضخمة الذّباب عن وَجْه القدْرِ ثمّ يملأ بالمغرفة ذاتها صحنه النحاسيّ الصّدىء.

وكان يأكل كغيره كان في الطعام رغم كلّ شيء وربّما بفضل كلّ شيء لذّةٌ ومتعة.

كان الجنون توأمَ الخبز والرّأس فريسةَ القدم

ولم يكن لديه آنذاك شيءٌ يقوله لأيّ شخص

لكن كان أحياناً يجرؤ على التنهّد خِفْيَةً وهمساً»).

قَرَأ كتابةً على باب الحديد، ـ

«أمرَ بعمارة هذا الحصن المنيع الباب

مولانا السّلطان الملك قانصوه الغوري

عَزَّ نصره

بولاية مملوكه أبرك مقدام الألوف بالدّيار المصريّة وشَادُّ الشّرَّابات والخانات الشريفة، ونائب القلعة المنصورة بحلب المحروسة، أعزّ اللّه أنصاره سنة ٩١٥».

وقرأ كتابةً على قَصْطلِ شبادق: ـ

«أمر بإنشاء هذا السّبيل المبارك المقرّ الأشرف العالي المولوي المالكي المخدومي الكامليّ السّيفي يلبغا الصّالحي كافل المملكة الحلبيّة المحروسة أعزّ اللّه

أنصاره، من ماله، ابتغاءَ لوجه اللَّه تعالى يقيه العطش الأكبر يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى اللَّه بقلب سليم، في ربيع الأول سنة ٧٤٦».

وقال أبجد:

رأيتُ أَيّامي كأنّها تخرج من الحجارة[١]، وتندلق أمامي. حاولت أن أقول لذلك النّهار: اذهب واتركني. حاولت أن أقول لشمسه: كوني يديَ اليمنى، ولو مرّةً واحدة، واكتبي ما أمليه عليكِ.

لم تسمعني الشمس. كانت تعطي أذنيها لصوتٍ آخر. وخُيّل إليّ كأنني غيمةٌ لا تعرف من أين جاءت ولماذا وكيف؟ تراها غيمة عشقت «حارة الجُبّ»؟ تراها لا تزال في «ساحة فَرْحات»؟ أم لعلّها آثرت البقاء في «سوق الحراج»؟

تنهّدتُ: «أَيتها الغيمة أنا أنتِ، وأنتِ لستِ أنا».

قرأ كتابةً على خان القصّابيّة، ـ

«أنشأ هذا الخان المبارك في أيّام السلطان الملك الأشرف أبي النّصر، قانصوه الغوري عزّ نصره، المقر الأشرف السّيفي في عين مقدام الألوف بالديار المصريّة،

(١) «لمّا ضاقت مكّة على بني إسماعيل وجرهم، تفسّحوا في البلاد يلتمسون المعاش. كان لا يرحل واحدٌ منهم إلاّ حمل معه حجراً من الحرم، تعظيماً له، وصبابةً بمكة وبالكعبة، يضعه حيثما حلّ، يطوف به طوافه بالكعبة.

ثم أخذ الناس يعبدون ما استحسنوا من الحجارة».

*

«كان عمرو بن لَحيّ أوّل من غيّر دين إبراهيم وإسماعيل، ونصب الأوثان.

*

«رأيت عمرو بن لحيّ، يجرّ أمعاءه في النّار، على رأسه فَروة». (حديث).

*

«قَدِم عمرو بن لحيّ بصنم يقال له هُبَل، من هيت، من أرض الجزيرة، نصبه على البئر في بطن الكعبة، وأمر الناس بعبادته. كان الرجل إذا قدم من سفرٍ بدَأ به على أهله، بعد طوافه بالبيت، وحلقَ رأسه عنده».

*

وشادّ الشّراب خاناه الشريفة بها ونائب القلعة المنصورة الحلبيّة المحروسة أعزّ اللّه أنصاره، ابتغاءً لوجه اللّه تعالى. ومن تعرّض إليه كان اللّه ورسوله خصمه، وذلك في شعبان المكرّم سنة ٩١٦».

هكذا يجلس الزمن في القلعة على كرسيّ يَسَع التّراب والهواء. حين يعمل تبرد الشمس وتتمدّد على الأرض. تخرج رياح كثيرة تسير خارج القلعة أشجاراً أشجاراً. تهيّج هذه الرّياح أجزاء الكون، فينحني جسده قوساً تضطرب وتلتهب وتكون المسافة التي نسمّيها المدينة قد تحوّلت إلى جرّة مملوءةٍ عطشاً. وترطب النّفس ثم تيبس ثم تنصدع، ويعلو منها بخارٌ برقّة النسيم يدغدغ الشجر وما يختبىء وراءه وفي تقاطيعه من غاباتٍ وينابيع.

للشمس في هذه المسافات خيوطٌ حين تنقطع تتحوّل إلى غيوم. وكلّ نجمة فيها طريقٌ تنزل منها ألوان تختلط بالتراب، فيتحول كلّ شيء: الندى مطرٌ يمشي، والثلج مطرٌ ينام.

وقال أبجد:

ـ رأيت في هذه المسافة حجراً أسودَ يسقط من السّماء، يتكىء عليه شيخٌ، والغربان تطير فوق رأسه تنتظر موته.

«كان عند هبل في الكعبة سبعة قِداح، كلّ قدح في كتاب.

العقل نعم لا منكم (وسيط)، مُلْصَق (لا نسب له) من غيركم (حليف) المياه».

*

«دخل رجلٌ من جرهم بامرأة منهم إلى الكعبة فَجَرَ بها.

اسم الرّجل أساف اسم المرأة نائلة، مُسِخا حجرين.

أُخرجا من الكعبة. نُصب أحدهما على الصّفا والآخر على المَرْوة. لم يزل الأمر يتقادم حتّى صار يتمسّح بهما مَن وقَف على الصّفا والمروة، ثم صارا وثنين يعبدان، وكان يُنْحَر عندهما».

*

«دخل الرسول مكة، يوم الفتح، وفيها ثلاثمئةٌ وستّون صنماً شَدّها إبليس بالرّصاص. وكان بيد الرّسول قَضيب، كان يقوم عليها ويقول: جاء الحق وزهق الباطل. ثم يشير إليها بقضيبه، فتتساقط على ظهورها. ثمّ جمعت وكُسّرت

ورأيت جنازةً ترافقها المشاعل والمزامير، وكنت أسمع تسبيحَ الشجر.

قلتُ: بُنيت القلعة في تطابُقٍ تامٍّ مع المدينة الأولى. وسألتُ القلمَ أوّل الخَلْق عن تكوين المدينة الأولى فاستجاب. قال:

«خلقَ الخالِقُ غماماً تحته هواء فوقه هواء

خلق الماءَ

جعل عرشه[1] على الماء

جعل الماء على مَتْن الرّيح

أخرج من الماء دخاناً ارتفع فسمّاه السماء

أيبَس الماءَ أرضاً واحدةً ـ فتقها سبعاً

وضع الأرض على الحوت

الماءَ على حجرٍ عريضٍ أملس

الحجرَ على ظهر مَلَك

المَلَكَ على الصّخرة التي ذكرها

لقمان (ليست في السماء ولا في الأرض)

الصخرةَ على الرّيح

تحرّك الحوت

وحرقت بالنّار. خرجت من أحد الأصنام المكسورة المحروقة امرأة سوداء شمطاء عريانة تخمش وجهَها وتدعو بالويل. قيل للرسول الخبر. قال: تلك نائلة».

*

«رَنَّ إبليس ثلاث رَنّات: رنّة حين لُعِن، فتغيّرت صورته عن صورة الملائكة، ورنّة حين رأى الرّسولَ قائماً بمكّة يُصلّي، ورنّة حين افتتح الرّسولُ مكّة.

اجتمعت إليه ذريّته، قال:

ـ عبثاً تردّون أمّة محمد إلى الشرك، لكن أفشوا فيهم النّواحَ والشعر».

(١) «تقول طائفة من أهل الكلام إن العرش فلك مستديرٌ يحيط بالعالم. لكن ثبت في الشرع أن العرش سريرٌ ذو قوائم تحمله الملائكة. وهو كالقبة على العالم، أو هو سقف المخلوقات» (الحافظ بن كثير الدمشقي).

اضطربت الأرض وتزلزلت

أرسى عليها الخالق الجبال فقرّت (لهذا تفخر الجبال على الأرض).

خلق الخالقُ اللّيل قبل النّهار

خلق الشّمسَ والقمر على عجلتين، لكلّ عجلةٍ ثلاث مئة وستون عروة، يجرّها ثلاث مئةٍ وستّون ملاكاً،

يسقط الشمس والقمر في بَحْرٍ بين السّماء والأرض، وهذا كسوفهما

تخرجهما الملائكةُ جَرًّا، وهذا شروقُهما».

*

(...)

«أيّتها الغيمة، أنا أنت، وأنتِ لستِ أنا».

*

ربّما، بفعل هذه الغيمة، لم يزر عمود سمعان لم يكن في حاجة إلى أن يحوّل حياته إلى عمود آخر لم يكن في حاجة إلى أن يرى السّماء جريدةً والشجر أقلاماً كان انحيازهُ مريباً ولم تكن فضّة المدينة كلاماً ولم يكن ذهبها صمتاً.

كان النّهار يتوكّأ على طفولة المساء

الشمس تنام إيذاناً بصلحها مع المُتْعبين واللّيل يتهيأ ليملأَ جيوبَه برؤوس العُشّاق

في مثل هذا الوقت الذي ينسج المدينة وتنسجه،
والذي هو صيفٌ ربيعٌ كأنه الخريف،

خَطر له أن يتساءل: هل الكتابة هي، وحدها،
الشّتاء؟

وخطرَ له أن يضعَ مكان التّاء حرفاً آخر، لا لأنّ
الأشياءَ في أوج وضوحها لا لأن التخيّل يفارقه
ويَنْأَى لا لأنّه يعيش حقيقة ما ظَنّه خيالاً،

بل لأنّ الكتابة في مثل ذلك الوقت تُشْبِه التّيَمّمَ في
أرضٍ يغمرها ماءُ المعنى

هذا ما كان يقوله الشّيْخُ فيه،

هل للطفل فيه نزوعٌ آخر لا يتبيّنه؟

ماذا تريد، إذن، أيّها الطفل؟

قلت له مرّةً: «الأفكار سُرعانَ ما تموت»، ولم يُصْغِ
كان الحقّ معك هي ذي يراها كمثل ثمارٍ
تتساقط ولا يأبه لها حتّى البستانيُّ الذي أمضى حياتَه
ساهراً عليها.

الآن، ماذا تريد أيها الطفل؟ لكَ كلُّ شيءٍ إلاّ أن
تُحاولَ إغراءه بأن يشاركَ في لهوك الفردوسيّ.

أنت أيضاً تخطىء أحياناً أيها الطفل.

قلت له مراراً: «أينما ذهبت في أنحاء المدينة **سترى المتنبي**.

ربّما لن ترى أثراً لسيف الدولة لكن ستجد في كلّ زاوية أثراً من صديقك المتنبي».

قَلّب الشّوارعَ نَقِّبَ في الأزقّة تَقَرّى الجدران
تَسلّق جبال الهواء أمسك بحبال الشمس لا أثر
كلاّ لا أثر.

أنت أيضاً تخطىء كثيراً أيّها الطفل.

ليست السّماء زرقاء فوق المدينة وليست رمادية ليس للسّماء لون، للسّماء رائحة وليس هناك مصدر تستطيع أن تقولَ عنه بيقين: هوذا أصل الرّائحة. وعندما تحاول أن تسأل الشّمس أو ناحيةً في الفضاء، لا يأتيك جواب تزداد حيرتك وتشطُّ بك البلبلة

مِنشارٌ بعلوّ السّماء يغوص في جسد المدينةِ

أهو أصل الرائحة؟

كلاّ، قالت له حجارة تتوّجت بالنقوش وجاهر بالكلمة ذاتها خَطٌّ كوفيّ مورّق.

غضب على قدميه لأنّهما لم تتعبا غضبت عليه مئذنة جامع الأُطروش لأنه لم يعرف، هو الذي يقول برؤية ما لا يُرى، أن يقرأ وجهها ولا أن يقرأ ما وراءه.

«سعيدةٌ بهذا الفراغ الذي أتلألأ فيه»: قالت له مئذنة جامع التّوتة وكان قد سَلّم على جامع القيقان في حيّ العقبة وشعر منذ وقعت عليه عيناه كأنه هو الذي يقبل نحوه آتياً من سفرٍ في أقاليمَ مِمَّا قبل التّاريخ.

حَيّ التِّلل، ـ

في حيّ التِّلل، سار وسط أريج ينبعث من ثياب النّساء وأعناقهن دافقاً كمثل طوفانٍ أخضر أريجٌ أحسَّ كأنه يجعله، بسحرٍ ما، كائناً غير مَرْئيٍ يمضي وقته في صناعة الغيم

لم يفهم كيف يلبس الفضاء هنا ثوباً مليئاً بالثقوب. لم يفهم كيف أنّ الكلام هو الذي يفتح هذه الثقوب.

هل يقدر الكلام أن يتحوّل إلى نَمْلٍ طائر؟.

لكن، أصغوا.

بحر قائم في الهواء

«كانت المدينة ألف قبل تكوينها جوهرة خضراء،
نظر إليها الخالق نظرة هَيْبَةٍ، فصارت ماءً.
نظر إلى الماء غَلَى وتصاعدَ منه دخانٌ وزبد
صار الزّبد أرض المدينة والدّخان سماءَها
شَدّها الخالق بالجِبال لكي لا تهوي أو تميد،
وجعلَها مَسْكَناً لِلرّياح والماء والشّجر وحجارة الكبريت والإنسان أحياناً.
وزيّنها بالأزمنة ووعدَها بأن تتحوّل إلى أرض ثانية،
بيضاء ـ جميلة كالخبز ووضع في سمائها شَمْساً
من ضوئه تتدلّى منها عجلةٌ بثلاثمئةٍ وستين عروة
يتأرجح فيها ثلاثمئة وستون ملاكاً لكلّ ملاكٍ وجهان
الأول يُسمّى النهار والثاني يُسمّى اللّيل
وسوّر السّماء ببحرٍ قائم في الهواء تسكن فيه النّجوم
ويدور حول نفسه سريعاً كالسّهم ومنح لكلٍّ ما فيها نعمة الكلام، ـ
كان النّسر يأتي إلى الحوت في البحر فيخبره بما في البرّ، ويأتي الحوت إلى النّسر فيخبره بما في البحر».

الشمس والقمر

«كانت الشمس في المدينة ألف تسقط أحياناً من عجلتها، وتسودّ، تخويفاً للناس.

وكثيراً، كانت تُحبس هي والقمر، تأديباً، ـ

وكانا يسجدان ويُصلّيان ويستأذنانِ بالشّروق، فلا يُؤْذَنُ لهما، إلا بعد انقضاء ثلاث ليالٍ حيث يكونان في سُرّة السّماء،

ويأتي إليهما ملاكٌ يأخذ بقرونهما، ويطلعهما من الشرق، مِن باب التّوبة.»

تكوين
(المدينة ألف)

«نَصبَ بانيها أخشاباً

شَدّها بحبالٍ طويلة تتدلّى منها أجراسٌ صغيرة ووصلها بعمودٍ من الرّخام علّق على العمود جرساً كبيراً أمر البنّائين أن يضعوا أساساتِها دفعةً واحدة من سائرِ أقطارها حين تتحرك الحبال ويرنّ الجرس.

ثم أخذه النوم

في نومه

جاء غرابٌ أسودُ أبيض جلس على حَبْل الجَرَس حرّكه رَنّ الجرس الكبير وتحرّكت الحبال وخفقت أجراسها الصّغيرة آنذاك وضع البنّاؤون الأساسَ دفعةً واحدة

وتَمّ هذا كلّه بحيلٍ

وحركاتٍ فلسفيّة.

كان بناء المدينة طبقاتٍ بقناطر عالية يسير تحتها الفارس، رافعاً رمحه وكان لهذه القناطر والطّبقات ثقوبٌ لِلضّوء ومنافذ للهواء وقيل إن المدينة بنيت على مثال مدينة أخرى تجلس على كرسيّ من الزُّجاج بهيئة السرطان في جوف البحر ـ مليئة بالتّماثيل:

تمثالٌ يشير بِسبّابة يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت تعلو الشمس فتعلو السبّابة وتنخفض فتنخفض.

تمثالٌ يُنبىء بالعدوّ ـ

حين يدنو من المدينة

يسمع للتمثال صفيرٌ هائل.

تمثال يقيس الوقت: يستقبل كلّ ساعةٍ تجيء بصوتٍ يختلف عن صوته الذي استقبل به الساعة التي مضت.

مصادفةً مرَّ أبجد في ناحيةٍ من المدينة ألف يقال لها، شجرة الزّقوم. تمتد هذه الناحية بين جهتين ـ وفُسِّر ذلك بأنّ ساكنيها لا يعرفون المستطيل أو المربّع أو المثلث أو متوازيَ الأضلاع أو غيرها من مثل هذه الاشكال هي خَطّ مستقيمٌ أو متعرّج أو منْحنٍ أو لولبيّ: خَطٌّ له بداية محدّدة ونهاية محدّدة.

الإنسان في هذه الناحية جهتان: أبيض أو أسود، قصير أو طويل، فقير أو غنيّ. الكون كذلك جهتان: واق وَوِيق. لذلك نادراً ما تتحدث عن شيء اسمه البرّ أو البحر وهي إن تحدّثت عن البحر تسمّيه جهنّم، وإن تحدَّثت عن البرّ أو اليابسة سَمّتها الفانية.

في هذه النّاحية تسير الجبال سير السّحاب فتكون سراباً وترتجّ الأشجار فتكون كالسُّفن في البحر أو كمثل القناديل المعلقة في الرّيح

وفيها صُوْرٌ

ينفخ نفخة الفزَع

ونفخة الصَّعْق

ونفخة القيام للربّ،

فيطير النّاس هاربين من الرعب، فتلقاهم الملائكة وتضرب وجوههم.

وفي هذه الناحية،

تطلع الشمس من المغرب قِصّة ذلك أنّها كلّما غربت جاءت إلى العرش سجدت استأذنت في الرجوع يأذن لها وحين يقرّر العرش أن تطلعَ من المغرب تستأذن في الرجوع فلا يسمح لها يطول اللّيل تعرف أنّها وإن أُذِنَ لها لن تدرك المشرق تجيء إلى العرش وتقول:

رَبِّ، ما أبعد المشرق! مَنْ لي بالنّاس؟

وحين يصير الأفق مثل الطّوق، تستأذن في الرّجوع، فيقال لها:

ـ ارجعي واطلعي من مكانك هكذا تطلع على الناس من المغرب

وفي ناحية أخرى رأى شجرة الزقوم كانت تفصله عنها أمّةٌ هي بين الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود (وقال آخرون: كالشعرة السّوداء في الثور الأبيض)

حول شجرة الزّقوم سوقٌ لا يُباع فيها ولا يُشترى إلا صور النّساء والرجال مَن يشتهي صورةً يدخل فيها

ثم تجيء ريحٌ تهبّ في الثوب والوجه، فيرجع المسافر إلى زوجته أجمل وأشهى
ويكون الصّخر كافوراً،
والمسك عالياً كالجبال.

رأى كرسيًّا أخذ يكلّمه، وليس بينهما ترجمان.

كان عنده حوضٌ، وعند الحوض ميزان ورأى رجلاً في كِفّة فيها تسعةٌ وتسعون سجلاً لذنوبه وخطاياه وفي الكفّةِ الثانية بطاقة كالأنملة فيها كلام
كانت الكفّة التي تحمل البطاقة هي الرّاجحة.

كان حول الميزان بقرة كمثل الغمامة، والكتب تتطاير. وقيل له هنا تبدأ مدينة الواق.

التفت رأى حشداً يسير على خيط رفيع يقال له الشّعرة يَسْتجِدُّ حتى يُصبح كشفرة السّيفَ ويستحرّ حتى يكون كمثل الجمر كان الجميع صامتين إلاّ واحداً يركب ناقةً وآخر يغنّي بصوتٍ يشبه الأذان مَرّوا على الشّعرة غُرًّا محجّلين ـ

واحدٌ كمثل انقضاض الكوكب،

واحدٌ كمثل الرّيح،

آخر كمثل شَدّ الرّحْلِ ـ يُرْمِلُ رَمَلاً.

حين رأى الخالق، ما رأى، أمر الملائكة أن يرشّوا ماءً يقال له ماء الحياة أخذ النّاجون ينبتونَ كما ينبت الحَبُّ في السّيل الجميل، ويخرجون كأنّهم اللؤلؤ وفي رقابهم عقودٌ وخواتيم.

سمع أحدهم يقول:

لكلّ شخصٍ في مدينة الواق خيمة من لؤلؤةٍ واحدة، مجوّفة، طولها سِتّون مِيلاً.

ولكلّ رجل في مدينة الواق اثنتان وسبعون زوجة يدخل في كلّ واحدةٍ دَحْماً دَحْماً.

وفي مدينة الواق فرسٌ من ياقوتة حمراء لها جناحان تحمل الرّجل وتطير به حيث يريد.

وفيها شجرة تخرج الثياب من أكمامها، وهي ثيابٌ لا تَبْلى، وفيها سحائب لا تُسأل شيئاً إلاّ أمطرته حتى أنّ بعضهم يقول للسحابة: أمطرينا نساءً، فتمطرهم نساءً.

وعنقود العنب فيها لا ينتهي يظل صاحبه يأكل منه حتى نهاية العالم وهو كبير بقدر مسيرة شهر للغراب

وفيها شجرة يقال لها الظلّ الممدود يسير الإنسان في ظلّها مئة عام. وليس في الواق شجرةٌ إلا ساقها من ذهب[1].»

فيما أخذ يفتكر في هذه المدينة العجيبة خرج عنقٌ من النّار وبدأ يتكلّم كان رجلٌ يتّجه نحو العنق سمع العنق يزفر ورآه ينزوي وينقبض ثم يشهق إليه شهقة النّاقة إلى بعيرها وكان قعر النّار سبعين خريفاً.

وعرف أنّ هذه مدينة الويق.

أصغى سمع الرّجل يتحدث مع الخالق أو يتحدث إلى نفسه:

ـ «مَسّتْني ريحُها يا ربّ، وأحرقني حَرّها.

(أزاحها الربّ عن وجهي).

ـ ياربّ، قرّبني إلى باب الواق.

(١) روى أحدهم، قال: «رأيت في هذه المدينة صنماً عظيماً رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء. أعلاه من ذهب، وأوسطه من فضة، وأسفله من نحاس. وساقاه من حديد ورجلاه من فخّار. فبينا أنا أنظر إليه قد أعجبني حسنه، وإحكام صنعته، قذفه اللّه بحجر من السّماء، فوقع على قمة رأسه، فدقّه حتى طحنه. فاختلط ذهبه وفضّته ونحاسه وحديده وفخّاره حتى تخيّل إليّ لو اجتمع جميع الإنس والجنّ على أن يميزوا بعضه من بعض، لم يقدروا على ذلك، ولو هبت ريحٌ لأذرته. ونظرت إلى الحجر الذي قذف به، يربو ويعظم حتى ملأ الأرض كلّها. فصرت لا أرى إلاّ السّماء والحجر...».

(قَرّبني قائلاً: لا تسألني غير ذلك)

سكت قليلاً، ثم قال:

ـ يا ربّ، أَدخلني مدينة الواق.

(قال: ألم تقل إنك لن تسألني؟ ما أغدرك، يَابْنَ آدم لكن، ما زال يسأله ويدعوه حتى ضحك. حين ضحك عرف أنّه سيأذن له بالدّخول إليها.

(أَدخلني وقال: اشْتهِ كلّ شيء!)

اشتهيت كلّ شيء وحضر بين يديّ كلُّ ما اشتهيت.

وقال لي: خَلّصِ اللّبنَ من الماء!»

«مدينة الويق نارٌ كلّها،

النّار التي نعرفها جزءٌ من سبعين منها ضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك لم يكن فيها منفعةٌ لأحد،

وكانت نار مدينة الويق حمراء ثم اشتعلت ألف سنة فابيضّت ثم اشتعلت ألف سنة فاسودّت وهي الآن سوداء بيضاء

فوق هذه النار جسرٌ أدَقُّ من شعرة وأحدُّ من سيف عليه كلاليبُ وحسَكٌ ويعبر الناس عليه كمثل الرّيح والبرق، وكمثل أجاويد الخيل.

ورأى رجلاً، يجيء وعلى ظهره شاةٌ لها ثغاءٌ،

وآخر على رأسه فرس تحمحم،

وآخر قتيلاً يمشي ورأسه في يده.

ورأى واحداً ينتعلُ نعلاً من نار، ودماغه يغلي من حرارة نَعْليه، ورأى رجلاً يحكي ثم يسكت فجأة، وحين سكت فمهُ أخذت تتكلَّم ساقاه.

ورأى واحداً يُصَبُّ الحميم على رأسه فينفذ من الجمجمة حتى يصل إلى جوفه فيسلب ما فيه ثمّ يمرق من قدميه،

ورأى شخصاً يُرْمى في عينٍ من النّار يقال لها غساق، ثم يُخْرَجُ منها وقد سقط جلده ولحمه عن عظمه، فَيُعلَّق جلده ولحمه في كعبه، ويترك وحيداً يمشي يجرّهما وراءه كما يجرّ ثوبه

ورأى فوق أهل مدينة الويق سحابة سوداء تناديهم: ماذا تطلبون؟ فيقولون: ماءً، ماءً!

لكنّ السحابة تمطرهم سلاسل وجمراً

وكان بعضهم يتمدّد في توابيت من حديدٍ توضع في القعر في تنّور صغير كمثل القمع يقال له: جُبّ الدّمع. وقيل إنّ لهم طعاماً ذا غَصَّة لا يدخلُ البطن ولا يرتفع إلى الفم، فيبقى بين المعدة والحلقوم.

وأهل مدينة الويق لا ينامون ولا يموتون. يجلسون في النّار، يأكلون النّار ويشربونها ويلبسونها. وقيل بين أذن المقيم في مدينة الويق وكتفه مسيرة سبعين خريفاً.

وكان يسمع ضجيجاً فيقال له هذه أحجارٌ أرسلت في مدينة الويق منذ سبعين خريفاً، والآن تصل إلى قرارها.

وقال أبجد:
حين يستقر أهل مدينة الواق وأهل مدينة الويق كلٌّ في مدينته، يجيء واحدهم بكبشٍ لونه أسود يخالطه بياض يضعه على الشعرة وينادي:
يا أهل مدينة الواق، أتعرفون هذا؟
فيقولون: نعم، إنه الموت.

ثم ينادي:
يا أهل مدينة الويق، أتعرفون هذا؟
فيجيبون: نعم، هذا هو الموت.
ثم يذبح الموتُ الكبش فوق الشعرة، ويقال لأهل المدينتين:
خلودٌ في ما تجدون،
خلود ولا موت.»

الذّكرى

III - II

المدينة هاء

المدينة هاء
مولودة لا تقدر أن تنهض من الفراش
الذي ولدت فيه.

*

تركب المدينة هاء
عربة تائهة،
لا تفكر، لا تحلم، ولا تتوقف عن الكلام.

*

تقول المدينة هاء:
إن لم تكن سعيداً بي، أنت يا من تبحث عن السعادة،
فابحث عن وكر ـ تَمدَّدْ فيه،
سُدَّ فمك وأُذنيك،
أَغمض عينيك، ونم، ولا تستيقظْ.

*

المدينة هاء
تُحل الكلامَ محل الأَرض ـ
هكذا لا تظهر فيها الكلمات إلا مغطّاةً
بِعباءة الغيب.

*

المدينة هاء

تفصل بين الوردة وعطرها

وتحرض الجسد على أَعضائه.

*

المدينة هاء

عرَبةٌ تجرّها ألفاظٌ أَنْحلَها السّير.

مكانٌ يهمس أَخباره

في أذني سجن.

*

المدينة هاء؟

ضعوا رؤوس أعدائكم على رفوف الهواء،

وانتظروا الطير الأبابيل.

*

المدينة هاء

ذئبةٌ تقتل كلّ يوم غزالةً

لكي تغتسل بمسكها!

*

المدينة هاء

تغطي وجهها وتضع على رأسها قبعة،

لها كذلك أظافر خاصة
تحكّ بها ظهر التاريخ.

*

المدينة هاء
جسر بين العنق والمشنقة.

*

المدينة هاء ـ
كثيراً، رأيتها تركب نهدين
من معدنٍ لا أَفقهُ شيئاً من أسراره.

*

المدينة هاء
تعيش هانئةً في مزمار
يعيش هانئاً في طَبْلٍ.

*

المدينة هاء
تحمل زمنا أعرجَ أبكم
يحمل تماسيح ـ بيوتاً للناس.

*

المدينة هاء
كمثل عبارة في حرفها الأول رجل
في حرفها الأخير امرأة،
وبينهما جسر
لا من الحب لا من العمل،
بل من القَتْل.

ثلاث لافتات
على بوابة المدينة هاء

- ١ -

لا وجود لشيء اسمه الحرية
وما لا وجود له، لا يحتاج إليه الإنسان.

- ٢ -

لن تقبلك هذه المدينة
إلا إذا أقمت فيها ومعها
على بضع خطواتٍ من جهنم.

- ٣ -

تأملوا في هذا السّيف:
غمده رأسٌ
يحرس سجناً هو نفسه رأس.

المدينة واو

كل عمل تقوم به المدينة واو، تحسبه نصراً. لذلك تحيا في هزيمة متواصلة.

*

تحتفي المدينة واو بماضيها كثيراً، ظَنًّا منها أن الأشياء والأفكار لا تدخل التاريخ، إلا عندما تصبح خارج التاريخ ـ متحجّرةً.

*

حولت المدينة واو سكّانها جميعاً إلى آلات. لم يعد أحد منهم يبادر للقيام بعمل ما، بل لم يعد يدري ماذا يفعل. ينتظر كل منهم يداً تجيء من فوق، أو من خارج، لكي تجد له مكاناً أو ثقباً في سلسلة آلتها الثانية، الموصولة بالآلة الأولى.

*

طبيعي أن يجد الفأر نفسه حراً في السجن الضخم الذي أقامته المدينة واو لغزلانها.

*

أن تقول لبلادك، كما تقول لأمك، أحياناً، أكرهك، وأن تقبل منك ذلك، فيما تحتضنك، أمر يؤكد عظمتها،

ويعطيها القيمة والمعنى.

وهو أمر لا تريد المدينة واو أن تفهمه، وترفض أن تسمعه.

*

غداً، لن يكون للمدينة واو وللمقبرة إلا اسم واحد.

*

التفتْ، أيها العابر في المدينة واو: قل لي كيف امّحت الطرق يميناً وشمالاً وراءك وأمامك؟

*

يصرّ سيد المدينة واو على أن أفراد الأمة يمكن أن يكونوا مشوهين، وأن تكون الأمة في الوقت ذاته، كاملة الخلْق والخلُق!

*

نعم، تحلم المدينة واو، هي أيضاً، لكنها لا تحلم إلا بالخلاص من هؤلاء الذين تسميهم المرضى والذين يتحدثون عن الحرية.

*

كل شيء في المدينة واو متهم، أو مشتبه به. ولست مستثناة، أنت أيتها الوردة. حتى لو صارت لك أجنحة وطرت بعيداً، فسوف يقال عنك: هه؟ تحولت إلى غراب.

*

أن تحيا في المدينة واو، هو أن تشيّع دائماً جنازة الحياة.

*

كل ساكن في المدينة واو، يفكر راهباً ويعمل شرطياً.

*

التقدم في المدينة واو، هو أن تنتقل من سجن كامل إلى سجنٍ أكثر كمالاً.

*

لا تقرأ القصيدة في المدينة واو، ولا تكتب إلا بوصفها دجاجة.

*

واحد وواحد وواحد إلى ما لا نهاية، لا تساوي في المدينة واو إلا واحداً.

*

لماذا تسكن في المدينة واو؟

ـ لأنها تتيح لي أن أختبر العدم، وأنا حي.

*

الكلمات في المدينة واو ليست أبجدية، إنها نوع آخر من الحيوانات الداجنة.

*

أَتنبّأ أن تتحول الحجارة في المدينة واو إلى ملائكة.

*

أَن يمشي مخلوق على قدمين لا يعني بالضرورة أَنَّه إنسان: هذا ما نتعلمه من المدينة واو.

*

أوه، لماذا لا تسقط المدينة واو إلا على رأس الإنسان؟

*

تمضي المدينة واو وقتها باحثة في كيفية تحويل القدم إلى رأس، والمعدة إلى أذنين!

*

قال العدم للمدينة واو: أحب أن انتمي إليك.

*

ليس ساكن المدينة واو مسجوناً داخل جدرانها وحسب، وإنما هو مسجون أيضاً داخل رأسه.

*

العنف هو لازورد المدينة واو.

*

كتب ـ أبواق وركب منحنية، كتب ـ سلاسل يقين، سدود ومتاريس، كتب ـ دروب مقطوعة، كتب ـ لا تجرؤ أن ترفع بصرها، كتب ـ حروب لقتل الأخ أخاه، كتب ـ أصول في فن إبادة الرغبات: تلك هي بعض من الكنوز التي تختزنها المكتبة العامة في المدينة واو.

❊

يخترق المدينة واو نهر، نصفه دم، ونصفه الآخر سائل لتمويه الدم.

❊

التبريز في فن اعتقال الهواء وسجنه، التبريز في فن محاكمة الورد، التبريز في فن صيد الأصوات: اختصاصات جديدة أضافتها المدينة واو إلى الاختصاصات المعروفة في برامجها التربوية.

❊

ما لا يقال عن المدينة واو، هو القنديل الذي أَكتب في ضوئه ما يقال.

❊

المدينة واو فأس بطيئة تحفر قبراً بلا قرار.

❊

المدينة زاي

قَدمٌ إلى الجهة التي تفتتح الفوضى،
قدمٌ إلى الجهة التي تفتتح النظام،
الجهتان هما معاً طريقه إلى المدينة زاي
ومنها تجيءُ وحدة خطواتهِ:
مفارقَةٌ لا ترقى إليها أيّة مسيرة.

*

تتكوّن المدينة زاي من الحروف التي تكوّن اسمها،
لا أكثر،
وربّما أقلّ.

*

تكرّر المدينة زاي دائماً:
ليس بين الجُثَّةِ والجنَّة،
إلاّ مسيرةُ نقطتين.

*

(من يوميات عثرتُ عليها بين أوراق شاعر نفته المدينة زاي، ومات في المنفى):
أ ـ «الموت نفسه ليس مخرجاً.

ب ـ بَخّروا أعضائي بالرّفض..

ج ـ للكلمات هي أيضاً جثث

وهي غالباً تظلّ سابحةً في رأس هذه المدينة.

د ـ أناسٌ

يحملون أفكارهم في جيوبهم.

هـ ـ أرفض أن أطردَ شياطيني،

وإلاّ كيف أقدر أن أرى الملائكة؟

و ـ أتنزّه كلّ صباحٍ، مع رفيقي الدائم:

المستحيل.

ز ـ ليس للحصاد أخلاقٌ غير ما يقوله المنجل،

ولا حيلةَ للسنابل.

ح ـ منذ اللحظة التي ولدت فيها

بدأت اتعرّف على موتي.

طـ ـ ربما انقسمت في نفسي، خصوصاً في شعري، إلى أشخاصٍ عديدين. ربّما حرّضت أحدهم على الآخر، وواجهت أحدهم بالآخر، وانتصرت لأحدهم دون الآخر. وهذا كلّه، لكي أكتشف الاحتمالَ، الممكن، الوجه الآخر. لكي أهدم بلادة الوضوح، ولكي أعطي للتّناقض حدوده القُصوى».

*

المدينة حاء

ليس الجسم وحده هو الذي يتفتّت في هذه المدينة، بل الاسم أيضاً. رضيَ الأوّل أن يتمدّدَ في حقيبة من التراب، وقَبِلَ أن تحمله، مع أنها تشبه القبر. غير أنّ الثاني الذي رفض أن يتّخذ له كفناً إلاّ من كتّان القمر، لا يزال يلتطم بحبرٍ لا أعرف كيف أصفه. ليس في كلّ حال، الحبر الذي تنتجه آلة المعنى.

أتحدّث عن غائبٍ، لكنه في الوقت نفسه حاضر. ويُكتَب كلّ يوم في هذه المدينة.

*

تنزلق بين أوراقه، ملء كلماته،

شظايا منطفئة تترمّد بطيئاً بطيئاً،

صفائحُ من معادنَ يجهلها،

هالاتٌ لا يقدر أن يفسّرها ألا بمعاجم الكيمياء، وهي ليست بين يديه.

وَثَمّة شهبٌ تخترق فضاءَ المدينة حاء ملوّنةً حتّى كواحلها بلهب الغضب،

يُشبّه له أنه يحيا فيها.

*

القلب ـ مفكّراً، والعقلُ ـ عاشقاً:
هكذا تريد له الحياة أن يكون، لكي يقدر أن يعيش في المدينة حاء.

*

(من خواطر شاعر في المدينة حاء، مات شابًّا):

أ ـ كيف أنتمي إلى وطنٍ، لا ينتمي هو نفسه إليّ؟

ب ـ مئة رغيفٍ من القمح، لا تصنع رغيفاً واحداً من الذُّرة.

ج ـ تجاهل وانْسَ،
إن كنت تريد أن تتجدّد باستمرار.

د ـ أيّها القَصص، إنك تملؤني شيخوخةً.

هـ ـ لا أخاف، ولا أُفاجأ: ذلك أنني لا آمل شيئاً.

و ـ الغزالي ـ مُسْتنجداً بأبي نواس: هذا هو المشهد الذي سيتكَرّر في الغرفة الطبيّة المقبلة، غرفة التشريح المعرفيّ.

ز ـ المسألة هي أن تكذّب السّماء، إن شئت أن تصدّق الأرض،
وأن تكذّب الأرض إن شئت أن تصدّق السماء.

ح ـ لن اعترف بأخطائي إلاّ لهذه الغيمة العابرة.

المدينة طاء

من زمن، دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء،
لاتكاد أن تفتح لك أبوابها،
حتى تدخل في متاهة من العناق بين الموت والأفق.
تشعر كأنها لاتحيا بأحيائها، بل بموتاها.
تشعر كأن حياتها اليوم هي موتها أمس.

*

من زمن، دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء،
لم تعد إلا عربة تجرها ألفاظ أنحلها السير في صحراء الآلة،
لم يكن لمعماريّها أن يتنبأ أن نوافذها لن تمتلىء بالأعين بل بالستائر
ولا تتحقق من بشاعة الآلة إلا في هذه المدينة:
ترى جسدها يئنّ تحت أكداس القمامة، من كل نوع،
وتكاد أن تصرخ عالياً ملء الأرض
هي ذي محاكم تفتيش أخرى لقتل الإنسان.

*

من زمن، دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء،
كل ساكن فيها،
يعيش في ورقة، في خزانة، في دكان.
هكذا يتحول فيها التاريخ إلى حانوت، وتتحول الكلمات إلى نساء يسرن في الشوارع بنصف جسد،
هكذا تبدأ الشمس يومها خطأ في المدينة طاء،
مثلك أنت، أيها العابر.

❊

من زمن، دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء، ولست هنا لأوحِّد بين الرباب والأرغن أو لكي أمزج حزني بوردة الغياب.
أنا هنا لكي أمعن في التساؤل:
هل المنفى أول العتبات وآخرها؟
هل التاريخ بيت أشباح؟

❊

من زمن دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء، هكذا يغمرك فيها ضوء ـ
لا ضوء الشمس الطالعة، بل ضوء شمس غابت.
هكذا واكبني فيها مستقبل تخيلته واستدعيته،
وأخذ يقرأ معي:
لكن، ما تأويلك أيها الشعر؟

❊

من زمن، دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء،
ألهذا تدخل أعضاؤك إليها في عيد، وتخرج منها في جنازة؟
ألهذا تقرأ أينما توجهت عيناك في صفحة فضائها:
«التاريخ غبار ذاكرة، والحاضر ذاكرة غبار»؟

(خواطر عُثِر عليها بين أوراق شاعرٍ نفته المدينة طاء)

أ ـ «أفضّل اليدَ الصديقةَ على اليد العاشقة،
غير أنّ مشكلتي هنا،
هي أنني لا أعرف حبّاً خارقاً، ولا أعرف صداقةً خارقة.

ب ـ لا يذكر صديقي أنه عاش يوماً واحداً، خارج هذا المأزق:
إمّا أن ينفصلَ عن نفسه لكي يلتقيَ بالآخر،
وإمّا أن ينفصلَ عن الآخر لكي يلتقيَ بنفسه.

ج ـ يموتُ من كوني حيّاً، ـ
مسكين هو. لا أملك، مع ذلك، إلاّ أن أُشْفِقَ عليه.

د ـ لماذا أشعر أنني مشرّدٌ إلى الأبد، في كلّ جملةٍ أكتبها؟

هـ ـ نام اللّيل على وسادتي،
فيما كنت ساهراً.

و ـ عَصْرٌ، ـ
سريرٌ تهزّه الآلة.

ز ـ تنحني سنابل القمح للريح،
لا لكي تُحيّيَها،

بل لكي توذعها.

ح ـ لِحصى الشاطىء حكمةٌ ما أرحبها وما أقواها:
بصمتِ أبديّ، يُصغي
إلى الموج الذي يثرثر أبديّاً.

ط ـ أتكلّم كثيراً على المتاه،
لا تظنّوا أنّه في العالم الخارجيّ ـ

إنه في أحشائي.»

المدينة ياء

يتكلّمون في المدينة ياء على الأجنحة دائماً، لكن ليس في كلامهم غير القيود.

❋

تبدو السّياسة في المدينة ياء كأنّها مِرْجَلٌ ضخمٌ بحجم العالم، مليءٌ بحساء الرؤوسِ من كل نوع.

❋

لو صَحّ أن تكونَ الحريّة جسماً، لما كان هذا الجسم في المدينة ياء، إلاّ حشداً هائلاً من الجراح خِيط بعضها إلى بعض في هيكل يطفو تائهاً في نَهْرٍ من الدم.

❋

تؤكد المدينة ياء، وفقاً لتقاليدها وتعاليمها، أنّ المعرفة، في البدء، لم تكن للإنسان، بل للغراب، وأنّ القتلَ (وليس الكلمة) هو الذي كان في البدء.

III

هـانَ عـلـى قـلـبـه الـزّمـانُ، فـمـا
يـبـيـنُ فـيـه غـمٌّ ولا جَـذَلُ
فـي سَـعَـةِ الـخـافِـقـيـنِ مُـضْـطَـرَبٌ
وفـي بـلادٍ مـن أخـتِـهـا بَـدَلُ.

المتنبي

١٨٤ هـ.

- ٣١ -

ألشّاريُ أبُو عَمْروٍ[1] يخرجُ، يَقتلُ باسْمِ الدّينْ،

ويُحارَبُ، يُقْتَلُ باسم الدّينْ.

ما أعْجَبَ هذا الإيمانَ، وأعجبُ منهُ أنّ القاتَلَ والمقتولَ سواءٌ

في عِلّيينْ!

- أ -

يبكي آدَمْ

لا مِن إثْمٍ، لا مِن نَدَمٍ أو من حُزْنٍ.

يبكي فَرحاً

مِن نشْوتهِ

ببهاءِ العالَمْ.

* طَبَخَتْنا، وتطبخ هذا الوجودَ
على نارِها المُلْغزَهْ،
حكمة المعجزهْ.

(١) مِن قُوّاد الخوارج.

١٨٥ هـ.

- ب -

نَصْلٌ ذَهَبٌ
يَنْفذُ حتّى القلبِ. تُراهُ
كان نزيلاً في فردوسِ؟

أتُراهُ الخالِقُ ينفخ أيضاً مِن روحِهْ
في الرُّمْح؟ تُراهُ
تَسبيحُ القاتلِ، باسْم اللَّهِ، ضياءٌ
يصدرُ فيضاً عن تَسْبيحِهْ؟

* يُولَدُ الغيبُ توأمَ قابيلَ ـ قَتْلاً،
تُولَدُ الأرض تَوْأمَ أُنشودةِ.

- ٣٢ -

سِرْ[1] إلى قرطبَهْ
أيّها الرّأسُ، لا عهدَ عندي
لِمَنْ كان ضِدّي.

(١) الحكم، صاحب الأندلس، يخاطب رأس عمه، المقطوع، سليمان. وقد بعث به إلى قرطبة ليراه الناس، اعتباراً.

١٨٦ هـ.

- ٣٣ -

في نَسَا[١]،
ألنّساءُ سبايا،
والبلادُ رمادٌ ـ
هل تشكُّ؟ تَقدّمْ
لكَ أن تتفحَّصَ،
أن تَلْمسَا.

- ج -

قلْ، إذن، أيّها الفقيهُ،
أَيا هادِيَ الحيارَى،
قُلْ لنا: أيّ ماءٍ
يطهّر مائدةَ الحنجره
مِن أقاويلها المُنكرَهْ؟

لاتقلْ هذه وحدةٌ بيننا،
لاتقلْ ذاكَ وَصْلٌ،
ليس بيني وبينكَ غيرُ الصّحارَى.

* بيدٍ من ضياءْ
ترسم الشّمس وجه الحجَرْ،
وبحبر الهبَاءْ
يرسم اللّه وجهَ البشَرْ.

(١) الإشارة إلى علي بن عيسى بن ماهان، قتلَ في مدينة نَسَا، أبا الخصيب وسبَى نساءه وذراريه.

١٨٧ هـ.

- ٣٧ -

- أ -

«هوذا أجهزتُ عليهِ،
وَاستأصلتُهْ،
- جعفرُ كان شهاباً
وأنا من سَوّاهُ، مَن أَشْعلَهُ،
وأنا أطفأتُهْ».
- كيف، لماذا؟
- «لو أعلمُ أنْ قميصي
يعلمُ ذلكَ،
أَحْرَقْتُهْ»[1].

- د -

عندما يلبس اللّيل جلبابَه
ويُجيّش حولي تهاويلَهُ
ويقول: تَهَيّأْ، أتَتْكَ الرُّؤَى
في بوارقَ مكسوّةٍ بالغيومْ.

لا أَرى ما أَفِيءُ إليهِ
أو أفوّض جسمي إلى جسمهِ،
غيرَ مِعْراج هذي النّجومْ.

* لم تَبُحْ هذه المئذنَهْ
بالقتيل - بِمَنْ تَلَّهُ، وبمن جَرّهُ،
وَبِمَنْ كَفَّنَهْ،
وحده النّخْلُ نكّس أغصانَهُ.

(١) الكلام للخليفة الرشيد، بعد أن قتل جعفر البرمكي، ونصب رأسه على جسر في بغداد، وقطع جسمه نصفين نُصبا على طرفي الجسر، ثم أُحرِقا.

١٨٧ هـ.

- ب -

لا برامكةٌ، حاصِروهُمْ
وأبيدوهمُ.
وخذوا جعفراً -
قيّدوه بقيد حمارٍ. اضربوا عُنُقَهُ، وانصبوا رأسَهُ عالياً،
واقطعوا جمسه قطعتينِ -
اصلبوا القطعتين على الجسرِ، ثم احرقوهُ.
لا برامكةٌ - لا أمانٌ لهم، لا أمانٌ لمن ينتمي إليهم، ولمن يلجأونَ إليهِ.
واقتلوهم كباراً صغاراً، وعلى كلّ دربٍ،
وفي كلّ دارٍ.

- هـ -

أصحيحٌ
أَنّنا لا نموتُ، كما قال بعض النبوّاتِ،
لكننا ورَقٌ يتساقَطُ من شَجرٍ لا نراهُ،
نغيّر أيقاعَنا وخُطانا
وسَرابيلَنا
ونسافر من ظاهر الجواب إلى باطنِ السُّؤالْ -

زادُنا صمتُنا
والدرّوبُ أَظلّةُ أيّامِنا
والمَطيّ الخيالْ.

أَصحيحٌ
ما تراءى لتلك النبّواتِ، يا هذه السّهولُ
ويا هذه الجبالْ؟

* كيف نقدرُ أن نفهم العقابَ السماويّ، أو نفهَم الثّوابْ،
والحقيقة تأتي وتمضي - غيمةً تتقشّعُ في رَفّةِ الهدب، أو لمعةً من سَرابْ؟

١٨٧ هـ.

- ج -

أَنَسُ بْنُ أُبَيٍّ[١]؟

ذاك سيفيَ تحت فراشي،

خُذه، ياعبدُ، واضربْ به عُنُقَهُ.

- د -

«آهِ، واجعفراهْ»:

كان يَهذي ابْنُ عثمان[٢] في شُرْبِهِ. إبْنُهُ وخَصِيٌّ لهُ

وَشَيَا للرشيد: اضربوا

عُنُقَهُ/

ضربَ الابن عُنُقَ أبيهِ.

- هـ -

آهِ، واحيرتاهْ،

ما تقولون في الإبْنِ يقتلُ،

زُلفى لسلطانهِ، أباهْ؟

- و -

قال عن نفسه

إنّه السّيد الحاكمُ الكامِلُ

وهو مفتاح هذا الوجودِ، وميزانهُ العادِلُ

بعده، لا كلامٌ: لا سؤالٌ ولا سائِلُ.

فلماذا صَمَتَّ وآمنتَ، يا أيّها المُتَفقِّهُ،

كالآخرينَ، وأنتَ الأمينُ المُرجَّى،

كما علَّمونا،

وغَيرُك مُسْتَتْبَعٌ جاهِلُ؟

* من أين يجيء، وكيف يَجيءُ

ليجلسَ في كرسيّ الحاكِمْ،

طاعونٌ دائِمْ؟

(١) كان أَنَس بن أُبيّ صاحباً لجعفر، ومتّهماً بالزندقة.

(٢) هو إبراهيم بن عثمان بن نُهيْك. كان يذكر البرامكة ويبكي عليهم، فإذا شرب النبيذ مع جواريه يأخذ سيفه ويقول: واجعفراه، واسيّداه واللّه لأقتلن قاتلك ولأثأرنّ بدمك. وشىٰ به للرشيد ابنه وخصيٌ له. وابنه هو الذي أسرعَ وضرب عنقه، امتثالاً لأمر الرّشيد.

١٨٨ هـ.

- ٣٥ -

- أ -

«مِن نَقْفُورِ[1] ملكِ الرّومِ،
إلى هارونِ ملكِ العَربِ:
كان حقيقاً أن تحمل أنتَ المالَ
إليّ، لهذا
أطلبُ أن تُعطيَني
ما أعطَتْكَ الملكه -
ضَعْفاً واسْتِخْذاءَ.
وَلسوفَ أحكُم سيفي
إن لم تَفعلْ».

- ب -

«مِن هارونَ إلى نَقْفُورِ، كَلْبِ
الرّوم: إليك جوابي -
لن تسمعهُ، لكن ستراهُ».

- ز -

يهبطُ وجْهُ الخالقِ نحوكَ، لكن
تعلو بين يديهِ -
معجوناً بِهما
مرسوماً بِهما
محمولاً في مَوْجِهما.

عَجباً!
كيف تجيء، إذن، مجبولاً
بالقُبْحِ، وكيف تكون شقيّاً؟

* تتساءَلُ؟ ضوءُ التساؤلِ هادٍ، ولكنّه افتتانٌ
لا يقودُكَ إلاّ لكي تَتَرحَّلَ مِن مَهْمَهٍ إلى مَهْمَهٍ.

(١) نصّ الرسالتين، كما وردتا في المصادر التاريخيّة.

- أ -

«من نقفور ملك الروم، إلى هارون ملك العرب، أمّا بعد، فإنّ الملكة التي كانت قبلي، أقامتك مقام الرخّ، وأقامت نفسها مقام البيدق. فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بك أضْعَافُه إليها. لكن ذلك لضعف النساء وحمقهنّ. فإذا قرأت كتابي هذا، فاردد ما حصل لكَ من أموالها، واذْكر نفسك بما تقع به المصادر لك، وإلاّ فالسّيف بيننا وبينك».

- ب -

«من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الرّوم، قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب، ما تراه دون ما تسمعه».

١٨٩ هـ.

- ح -

إنّه الدّرهَمُ
يتدثّر أحلامهم، ويغيّر ميثاقهم
ويُصوّر أيّامهم
ويقول لهم مَن هُمُ.
أَلحَياةُ تموتُ، تُشَيَّعُ، تُدْفَنُ -
لم يَتقدَّم إلى قَبْرِها
حاكِمٌ أو فقيهٌ.

وحده الشّعر، صلّى وغَنّى.

- ٣٦ -

ثورةٌ في طرابلسَ الغَرْبِ
ضِدّ الولاةْ،
مَزَجَتْ خَمرَها بالدّماء،
وأسيافَها بالصّلاةْ.

* أَلقرابينُ في منجنيقٍ،
والمصلّون يُلقون أيّامهم وأعمالهم
في دَمٍ في رصَاصٍ: في قذائفِ وَعْدِ.

١٩٠ هـ.

- ٣٧ -

- أ -

لِسَمَرْقَنْدَ[1] في هذه الآونة
أنَّةُ الرّئةِ الواهِنة -
قاتلونَ وقَتْلَى
وحروبٌ تغيب، وأخرى
خلفها كامِنة.

- ب -

سَيْفٌ[2] يتكسَّرُ، يَهْوي
في قَبضة سَيْفِ.

- ط -

لا أريدُ ولا أتحيَّرُ - لكن
أصادِفُ:
بيني وبين الكلامْ
شهواتٌ -
مرّةً، لا أفيقُ،
وأترك جسمي لباساً لها.

مرَّةً، لا أَنَامْ

لا أصادقُ إلاّ شَهَواتي ومعراجَها، -
تتغيَّر في كلّ يومٍ، وتغيِّر أمواجَها.

* زمنٌ بيتٌ: وعدُ لقاءٍ
لكنّ البابَ، الجدران، السَّقْفَ،
وكلّ نوافذهِ،
تلويحاتُ وَداعٍ.

(١) تمرد رافع بن الليث على عامل سمرقند. قتله، واستولى عليها.

(٢) سيف بن بُكير، خرجَ وقُتِل.

١٩١ هـ.

- ٣٨ -

- أ -

يَسْكَرُ ابْنُ هشام[1]

بالرؤوس: الدّماءُ له كالخمور -

الرّؤوسُ كؤوسٌ لها.

مرّةً، تتدحرجُ بين يديهِ،

ويُنكّس أجسامَها.

مرّةً، فوق أعوادهِ

لَعِبٌ مُتْرَفٌ/

سَكَرٌ مُتْرَفٌ.

- ي -

ارْتابَ، اسْتوْحشَ: كلّ كبيرٍ

صار صغيراً في عينيهِ،

وتَفرَّق ذِهْنُهْ:

يَسْمَعُ ما لايُسْمَعْ

ويرَى ما ليس يراه أحدٌ.

قال فقيهٌ عنه:

هذا رجلٌ مجنونٌ.

* فاجأتْهُ الغيومْ

بتآويلِها،

عندما راح في اللّيل يقرأ ما كتبته إليه النُّجومْ.

(١) قتل الحكم بن هشام، كما يُروى، ما يزيد على خمسة آلاف من أهل طليطلة وأعيانها. وصلبَ جماعةً من قرطبة منكّسين، وضرب أعناق جماعة.

١٩١ هـ.

- ب -

ثَرْوانُ[1] يثورُ، سَوادُ الكوفةِ أخضرُ، والأشجار بيوتٌ.

أُتْرى حَظَّ الثائِرْ

يبقى في أرض اللَّهِ،

وعند ملائكة

الآتي،

حَظّاً عاثِرْ؟

- ج -

«اهْدموا[2] في الثّغورِ الكنائسَ، قولوا لأصحابها:

البسوا ما تشاؤون إلاّ

اللّباس الذي يتزيّا

به المسلمونَ، وقولوا لهم:

اركبوا غيرَ ما نركبُ

فَلنا مذهبٌ ولكم مَذْهبُ».

- ك -

بابلٌ سُرِقَتْ شَمْسُها

ومجامِرْ يونانَ مِن بَعْدِها

لَهَبٌ ضائِعُ.

كلّ شيءٍ لكَ الآنَ، يا أيّها المتفقّهُ،

جِسْمٌ

وَرِعٌ ضارِعُ.

أنتَ بابُ الخروج إلى كلّ بابٍ،

وأَنتَ الصّنيعَةُ والصّانِعُ.

* ساعَةُ المتفقّهِ رَمْلٌ

عَقْرباها كلامٌ

لا يَقولُ سوى نَفْيِهِ.

(١) ثروان بن سيف قتل عامّة أصحابه.

(٢) «أمر الرشيد بهدم الكنائس في الثغور، وأمر أهل الذمّة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم».

١٩٢ هـ.

- ٣٩ -

- أ -

حمزةُ[١] سيفٌ
يتَنزّهُ بين رقاب النّاسْ.

- ب -

أذربيجان والخُرَّميّةُ[٢] في ثورةٍ،
والرشيد يوجّه فرسانَهُ إليهمْ:
«اقتلوا كلّ شبّانهم،
وبيعوا ذراريهم
كالعبيدْ»/
ذاك أمرُ الرّشيدْ.

- ل -

قالَ فقيهٌ يَهْدي طفلاً:
لا مَهْرَبْ
لن تقدرَ أن تذهَبْ
حتّى لو فُتحت أبوابٌ
حتّى لو مُهِدَتْ طُرقٌ.

ما أعجبَ هذا الشّيء الرّاسخ فيكَ،
الأقوى منكَ،
الصّارخَ دَوْماً:
لا مَهْربْ.

* الأذانُ يُدَلّي قناديلَهُ
في قِباب المساءْ
يرتقي زفرةً زفرةً
درجاتِ السّماءْ.

(١) حمزة الخارجي.

(٢) كان قائد جيش الرشيد عبد اللّه بن مالك بن الهيثم الخزاعي.

١٩٣ هـ.

- ٤٠ -

صَلّى، حمدَ اللّهَ، وصاحَ كأنَّ على شفتيهِ ناراً:

هاتوهُ[1]، واذعُوا قَصَّاباً لِيُقصّبهُ،

وأرى كيف يُقَطِّعُ عضواً عضواً.

ثم تنهَّدَ: يا أَللّهْ،

مَلّكْني أيضاً من رافِعْ

لأرَى،

كيف يُسافِرُ في الأحشاءِ

وفي الأعضاءِ،

الحدُّ القاطِعْ.

- م -

- ما الفَرْقُ بين الرّمح في يد مُسلمٍ

والرّمحِ - رُومِيّاً؟ أذلك مؤمنٌ

والآخر الروميّ كافِرْ؟

- أسألتَني؟ لا، لا تُكابِرْ

أنّى لكَ الإيغالُ في سِرّ الأصولِ،

وأنتَ شاعِرْ؟

* قال يهدي امرأةً تلطم خديّها على عاشقها:

عملٌ كفْرٌ - من البِدْعةِ أن يُلْطَمَ

خَدٌّ فوق مَيْتٍ».

(١) قبيل موت هارون الرشيد في طوس دعا بقَضّابٍ وأمره أن يقطّع أعضاء بشير بن اللّيث، فلمّا فرغ القصّاب من عمله، أغمي على هارون، ولم يلبث أن مات. وكان قد قال له: «واللّه، لو لم يبقَ من عمري إلاّ أن أحرّك شفتيّ بقتلكَ، لقتلتك». ورافع هو أخو بشير.

١٩٤ هـ.

ـ ن ـ

ـ أصحيحٌ،
مَلِكُ الموتِ خليلٌ، وهو لا يأكلُ،
واللّحدُ
كمثل المَهْدِ، أسرارُ طقوسٍ؟

ـ ٤١ ـ

ماتَ في حبسِهِ الفضلُ[1]،
كانوا يقولون عنه:
«لا مثيلٌ له في البشَرْ».

ـ أَصحيحٌ
تخرج الرّوحُ من المؤمن رشْحاً،
ومن الكافر تنسلّ انسلالاً؟

إنقطعُ إنْقَطِعْ
أيُهذا الوتَرْ.

ـ أَصحيحٌ
يضغط القبرُ على صاحبِهِ؟
أصحيحٌ أنه يَحكي ويمشي؟

* صرخَ الجلاّدُ: غريبٌ
كيف تطول وتنمو هذي الشّجره؟
لا ناب لها، لا أظفارٌ ـ
مِن أين تجيء إليها الثّمَرهْ؟

(١) الفضل بن يحيى البرمكي، ومات في حبسه بالرّقة. كان يقال عنه: «لم يُرَ في العالم مِثله».

١٩٥ هـ.

ـ ٤٢ ـ

ـ أ ـ

القتالُ يمزّق بغدادَ،
بغدادُ في كلّ يومٍ
تتبخترُ في حلّةٍ من جُثَثْ
في قصور العَبثْ.

ـ ب ـ

جِيءَ برأس عليٍّ[١]:
طُوِيَ الجسم كطيِّ الثّوب،
يَداهُ
في رِجْلَيْهِ.
لُفَّ بِلِبْدِ
ورموهُ في بِئْرٍ.
قال بزهوٍ طاهِرُ[٢]:
«رأسُ عليٍّ بين يديَّ،
وهذا خاتَمهُ ـ
حمداً لِلّهْ».

ـ س ـ

ينبغي أن تسافرَ، يا أيّها الفِقْهُ،
في ألف ليلٍ وليْلٍ:
تُفَرِّقُ ما بين نَجْم ونَجْمٍ
وتجمعُ ما بين فَجْر وفَجْرٍ،
وتؤالِفُ بين النّقيضينِ:
وَجْهِ الزّوالِ ووجهِ الأبَدْ،
قبل أن تتلمَّس بدْءَ الطّريقِ
لِسِرِّ الجسَدْ.

* زمَنٌ تتقدّم أيّام عقربِهِ المُبهَمِ
في طبول الدّمِ.

(١) علي بن عيسى بن ماهان، قائد جيش الأمين.

(٢) طاهر بن الحسين، قائد جيش المأمون.

١٩٦ هـ.

- ع -

أَتُراهم، مثلما قيل عنهم،
يَشْترونَ الجبالَ وعقبانها
والغيومَ وأطفالَها
ويبيعونَ ليلَ البحارْ؟
ألهذا، إذن، لا يرون الحقولَ، ولا
يَنْحنون على الوَرْدِ، لا يُومِئُونَ
إلى الجُلّنَارْ؟
ألهذا، إذن، ساحِرُ القولِ يَمْلأ كفّيهِ
مِنِ فَلكيّ القِمارْ؟

- ٤٣ -

حَرْبُ الأخوينِ[1]: رَحَاها
أدغالُ جنونِ.
إبْنٌ يَتنصَّلُ مِن أبويهِ
وأخٌ لا يقتل إلاّ أخويهِ.

(١) الأمين والمأمون.

* لو قيل الفقه قراءة ظَنِّ
لا تُلزم إلاّ الظنَّ، فماذا
سيقال إذن
عن لغةٍ تتهرّأُ في شفتيهِ
عن جسد الأرض المخنوقة بين
يديهِ؟

ـ ٤٤ ـ

عَرّاداتٌ ومجانيقٌ:

بغدادُ حصارٌ ـ

عيّارون[١] غُراةٌ

ويخوضون الحربَ عُراةً

إلاّ مما يَسْترُ عورةَ كلٍّ منهم.

والرّأسُ مُغطًى

بالخَوْص المحشوّ برَمْلِ:

خَوْصٌ سَمّوهُ خُوَذاً.

والمقلاع سلاحٌ لهمُ ـ

نهبوا بغداداً،

صارت بغدادُ خراباً ـ

«قَفْراً خلاءً تعوي

الكِلابُ بها

يُنكِرُ منها الرّسومَ زائرُها».

ـ ف ـ

كلّما جاءَ وقتُ الهلالْ

يتخيّرُ مِن إرثه قِناعاً، ثم يهبطُ في خِفْيةٍ

يدورُ، يخصّ النّساءَ بأسرارهِ،

ويقول الذي لا يُقالْ.

ويسائِلُ أعضاءَهُ:

أَتُراهُ يُحسّ المطَرْ

بالأنين الذي يَتَصَاعَدُ من شهوات الشّجَر؟

أتراه يُحسّ الشّجر

بالأنين الذي يَتَنَزّلُ من شهواتِ المطرْ؟

* عندما تشهدون القمرْ

وَشْوِشوا البحرَ، غَطّوا سريرَ مناماتِه

بِشراع السّفَرْ.

(١) العيّار هو الشخص الذي لا يهتمّ بأمور عيشه وإنما يعيش كيفما اتّفق. وقد ظهر العيّارون في بغداد في أثناء الحرب بين الأمين والمأمون.

والبيت الأخير للشاعر يعقوب الخريميّ من قصيدة طويلة مشهورة، كتبها في خراب بغداد، آنذاك.

ولعمرو بن عبد الملك العِثْريس قصيدة في وصف العيارين قال فيها:

«خرّجت هذه الحروبُ رجالاً

لا لقحطانها ولا لنزار؛

معشراً في جواشن الصّوف يغدون إلى الحرب، كالأسود الضواري

ليس يدرون ما الفرار، إذا الأبطالُ عاذوا من القنا بالفرار

واحدٌ منهمُ يشدّ على ألفين عُريانَ ما له من إزارِ

ويقول الفتى إذا طعنَ الطعنة خذها من الفتى العيّارِ».

١٩٨ هـ.

- ٤٥ -

- أ -

ذبَحوا من قَفاه الأمينَ[1]:

خذوا رأسَهُ

إلى طاهرٍ.

نصبوا رأسه فوق رُمْحٍ. خُذوه للخليفة كي يطمئنَّ،

خذوا بُردة الخلافةِ، والخاتَمَ،

القضيبَ: اطمأنّ الخليفَةُ،

لمّا رأى

كلّ هذا، وخَرّ سُجوداً: «لكمُ أَلْفُ ألفٍ...»

(١) «نُصب رأسه على برج، وكتب عليه: «هذا رأس المخلوع محمد».

أمر المأمون لمن أتوا بالرأس بألف ألف درهم».

- ص -

عالَمٌ داخِلٌ

كيف نُصغي إلى وَقْعهِ

والدّروب إليه بلا مَنْفَذِ؟

عالَمٌ خارجٌ

كيف نَقْتصُّ آثارَهُ

والدّماء تغطّي خُطاهُ؟

عبَثٌ نحن فيه ومنهُ

والرّياح تبدّل قمصانَه

وتُجَدّد أحوالَهُ.

* لست فقيهاً،

وأنا لا أشربُ خمراً:

ما يَشْربُ عقلي، لا أشربهُ.

١٩٨ هـ.

- ب -

أَجسامٌ أجسامْ[1]

تتحوّل في الشّهواتِ إلى

صُلْبانِ.

أَلْمَخْمورُ يُقيم النّهبَ،

القَتْل، الحَرْقَ

ثلاثة أيّامٍ في قرطبةٍ

ونواحيها.

أَلمَخْمُور يسوق النّاسَ

فرادى وجماعات،

كالأَنْعامْ.

(١) قتل الحكم بن هشام في الأندلس، وكان يُنادى: يا مخمور، عدداً كبيراً من المتمردين عليه في أرباض قرطبة. وقيل إنه اختار ثلاثمئة من وجوههم، فقتلهم وصلبهم منكّسين. وأقامَ النّهب والقتل والحرق ثلاثة أيام.

- ق -

هل أقول لذاكَ الفقيهِ:

خُلِقْتُ وفي قدميَّ دروبُ الضّياعْ؟

هل أقول: لهذا تلبَّسَ جسميَ

حالَ القِلاعْ -

يَتَغَلْغلُ فيها، يروز مفاتيحها،

يَتَبطّنُ أَسْوارَها.

هل أقول له كيف أجمعُ بين

الطّبيعةِ والطّبْعِ:

كي أتعلّم أسرارها.

* رجلٌ - نجمةٌ تتطوّح، تَنْسابُ في لُجّةِ البحر،

تطفو على الماء، تعلو وتشرد

في طبقاتِ الغيومْ، -

أَتُراها تُجَنُّ النُّجومْ؟

١٩٩ هـ.

- ٤٦ -

«سِرْ إلى ذلك الخارجيّ[1]،

وجئني برأسِهْ،

فأنا ها هنا قاعِدٌ في انتظارِكَ،

إن لـم تـجـئـنـي بـه، سـأجـيءُ برأسكَ» - هذا هو الرّأسُ بين يديهِ،

والأمير، كما قال، في قصره قاعِدٌ.

(١) الـحـكـم لـلـحـكـمَ ابـن هشام، مخاطباً أحد قوّاده. والخارجيّ المشار إليه ثائرٌ من البربر. ويقال إن الحكمَ صلب اثنين وسبعين شخصاً من أعيان قرطبة وفقهائها، لمجرّد نقدهم إيّاه على شرب الخمر والانهماك في الملذّات.

- ر -

أوّل الدّهر يَغْفُو على زَنْدِيَ الآنَ،

أقرأ أحوالَهُ،

وأقاليمَها، وتقاسيمَها، -

أسألُ الشّمسَ: لم يبق مِنْهُ

غير ما حَفظتْهُ،

وما قلتهُ -

مثلما قرأتْهُ الغيومْ

في كتاب النّجومْ.

* هاتِها، نَخْبكَ الآنَ، يا أيّها المارِقُ

أنتَ بابُ الدّخول إلى كلّ سِرٍّ،

وأنا الطّارقُ.

٢٠٠ هـ.

- ٤٧ -

- أ -

إقطعوا رأسه[١] وطوفوا بهِ، واقطعوا جسمه اثنين - نصفَيْنِ: نِصْفاً إلى ضفّةٍ، ونِصْفاً إلى ضفّةٍ، -

دجلةُ ظامىءُ لِلنَّظَرْ

كيف يُذْبَح في ضِفّتيهِ البَشَرْ.

- ب -

قتلوهُ[٢] - بعضهم قال: أُعطيَ سُمّاً،

وهو في سجنهِ.

- ش -

هِمْتُ، غَنَّيتُ، ناديْتُ:

يا أَلفَ البَدْءِ، ياياءُ،

يا أيّها الأبَدْ

كيف تزعمُ أنّكَ أبقى وأجملُ من ذلك الحجرِ المتوحّدِ

في ركن بيتي؟

عَجبي يتوغَّلُ في غيّهِ، وصَوْتي

بَطِرٌ، هائِمٌ.

لم يُجبني فقيهٌ، لم يُجبني أَحدْ.

* بدم الأزمنَهْ
يَتَبقَّع مُسْتَسْلماً
للحروب وأهوالها
جسَدُ الأمكنه.

(١) الإشارة إلى قتل أبي السّرايا قائد عسكر الطالبيين الخارجين في الكوفة، سنة ٢٠٠ هـ.

(٢) هَرثمة بن أعين.

٢٠٠ هـ.

- ت -

لا نعرفُ إلاّ أشياءَ
لا أسماءَ لهنَّ، ونعرفُ أنّ
الإسْمَ كمثل الطّيفِ،
وما أَبعدهُ
حتّى حين نجاهِرُ: ما أقرَبهُ!

أهناكَ فقيهٌ يعرف سِرّ الإسْمِ،
ويعرف أين يكون، وكيف يَجيءُ
المعنى؟

- ج -

يايحيى[1]، كيف تُسمّي
رأسَ الإيمانِ، أميراً
للكفّار؟ ـ تُراكَ سئمتَ الدّنيا،
فطلبتَ الموتَ لكي تترحّلَ
عنها؟

(١) يحيى بن عامر ابن إسماعيل، الذي قتله المأمون لأنه قال له: يا أمير الكافرين.

* ليس لي ثقةٌ في نجومٍ
لا تقبّل، في كلّ يومٍ،
كتفيْ شاعرٍ.

٢٠١ هـ.

(١) زهير بن المسيَّب.

ـ ٤٨ ـ

ـ أ ـ

بعد أن قطعوا رأسَهُ[١]

ربطوا جسمه بِحَبْلٍ على جذْعِ رَمْحٍ، وطافوا به في مدينةِ بغداد ـ مرّوا على بيته ليراه ذَووهُ، وطافوا به الكرخَ، ثُمَّ رَموْهُ إلى دجْلةِ ـ

أيها النهر، ما أنْهَمَكْ!

أيها النهرُ، ما أكرمَكْ!

ـ ث ـ

نَصْنَعُ من كرسيٍّ وطناً

ونُسيّجهُ

برؤوسٍ قُطِعت، بحِرابٍ تَدْمَى

ونعزّزهُ

بسجونٍ لا حُرَّاسَ عليها

إلاّ قَتْلٌ ـ

يَثْأرُ، أو يَسْتَكْمِلُ قَتْلاً.

اجْلسْ، يا هذا التّاريخ الواهِنُ في

أحضانِ الفِقْهِ ـ تَفَتَّتْ

وارقُدْ مِثْلَ رمادٍ.

* كي أضحكَ أوكي أبكي
أسكبُ ظنّيَ في خطواتي،
وأُذيبُ يقينيَ في شَكّي.

٢٠١ هـ.

- ب -

آذَى فُسّاقُ الحَزبيّةِ، والشُّطّارُ النّاسَ كثيراً.

قطعوا في بغدادَ الطُّرُقا

أخذوا غلماناً ونساءً، جَهْراً.

في قُطْربُلَ، راحوا ينتهبون، وقالوا:

لم يَبْقَ مكانٌ فيها،

أوشيءٌ،

إلاّ سُرِقا.

- خ -

أَبَديٌّ - ولكنْ

لا يكونُ، ولا يتجلّى،

ولا يتمثّلُ إلاّ

في دَمٍ زائلِ:

هذه صورة الغَيْبِ أو صورة الكونِ،

أو صورتي -

ولكَ الآن أن تتيقّنَ، أو تتحيَّرَ،

يا أيّها المتفقّهُ،

يا سائلي.

* لا يجيء الأبَدْ
لا تجيء السّماء إلى الأرضِ إلاّ
في نشيدِ الجسَدْ.

٢٠٢ هـ.

ـ ٤٩ ـ

ـ أ ـ

خَلعُوا[1] المأمون، وقالوا:

إبْرَاهِيمُ بْنُ المهديّ، خليفتُنا.

ـ «كلاّ،

لا طاعةَ للمأمونْ

ترَكَ التّسْويدَ، وشَاءَ الخُضْرةَ،

هذا

مَسْحورٌ، أو مجنونٌ!».

(١) جماعات من بغداد.

ـ ذ ـ

ـ عندي، يا مولايَ سؤالٌ.

ـ قُلْهُ.

ـ كيف يقولُ العضوُ العُضْوَ، وينزلُ فيه ـ في ماء القَلْبِ، وكيف يُلابِسُ، كيف يعيشُ البَاهُ البَاهْ؟

ـ سبحانَ اللَّهِ. سؤالُكَ؟ ماذا قُلتَ؟

أَتسأَلُ؟ عَفْواً

تلك أمورٌ

لا يعلمها إلاّ اللّهْ.

* النّساء اللّواتي ربطنَ سريري
إلى قَصَبٍ في ضِفافِ النّهَرْ،
لم يَزلْنَ كما كُنَّ ـ حِبْراً غريباً
في كتاب الصُّوَرْ.

٢٠٢ هـ.

- ب -

إبراهيمُ بنُ المهديّ يسودُ الكوفةَ. حَزِبَ.

هوذا الفَضْلُ[١]، وزيرُ المأمونِ، قتيلٌ.

- ج -

أَعْلنَ بابَكُ[٢]: «جاويدانُ روحٌ حلّت في جسمي

صارَتْ مَعنايَ،

وَصارَ اسْمي».

- ض -

جَرَسٌ يعشق الأذانَ، أَذَانٌ

تَترنّمُ أجراسهُ -

باسم تلك الجبال النّحيلةِ في الصّوتِ،

بِاسْم اهتزازاتِها،

ومقاماتِها،

وإيقاعِها.

غيّروا التَّسْميه

غيّروا الحرفَ والشّكلَ والتّهجيهْ.

* قمرُ اليوم يفركُ بالجاثليق

يديه، وبالفقه يفرك أجفانَهُ، -

أَتُراه يعود إلى بيتهِ سالِماً؟

(١) الفضل بن سهل، وكان يوصف بأنّه «ذو الرّئاستين» القلم والسّيف. قتله في الحمّام أربعة أشخاص مختلفو الأصول، وقد ضرب المأمون رقابهم، وهم غالب المسعودي الأسود، قسطنطين الرّومي، فرج الدّيلمي، موفّق الصّقلّبي.

(٢) بابك الخرّمي الذي ادّعى أن روح جاويدان بن سهل حلّت فيه. قادَ أصحابه الجاويدانيّة وتمرّد.

قيل عنه: «دينهُ دين الفَرَج، ويؤمن بالتّناسخ».

٢٠٣ هـ.

ـ ٥٠ ـ

ـ أ ـ

بَغْدَادُ تُغَيِّرُ: تَخْلَعُ
إبراهيمَ بن المهديّ،
وتدعو
للمأمونْ.

ـ ب ـ

قال المأمونُ: «النّاسُ على دَرَجاتٍ، ـ
مظْلومٌ، أو ظَلاّمٌ
أو لا مظلومٌ لا ظلاّمْ.
الأوّل يرجو مِنّا عدلاً،
والثاني يرجو عفواً،
والثالثُ مُسْتَغْنٍ،
يكفيه بيتٌ يرتاحُ إليهِ».

ـ ظ ـ

كنت أعرفُ سِرّ القتالِ، وأنشودةَ النَّصْرِ،
أعرفُ كيف سَيُحْفَرُ قَبْري، ويُصلَّى عليهِ،
ومن سينوحُ عليَّ، وكيف وأَنّى،
وأعرف شَكْلَ الزّهور التي سَتُكَدِّسُ حوليَ،
واللَّونَ والرّائِحهْ،
عندما كنتُ أُصْغي لصوت الفقيهِ
يُرتّلُ مَرْثاتَهُ
لِلشّهيد المشيّعِ، أو يقرأ الفاتِحَهْ.

* اهبطوا أيّها الصّاعدونَ، وذوقوا
بَهاءَ الهبوطْ،
ما الذي كان آدَمُ لولا الخطيئَةُ، لولا
السُّقوطْ؟

٢٠٤ هـ.

ـ ٥١ ـ

«قد أبحنا[1] الكلامَ:
فَمن قالَ حَقّاً، حَمِدْنا
ومَن قالَ جَهْلاً، نَبَذْنا.
إجْعلوا بينكم أصولاً:
الكلامُ فروعٌ
فإذا ما افترعتم،
رجعتمْ إليها».

ـ غ

لِعَصاً لم تكن حيّةً
ولن تتحوّلَ في الجَهْرِ أو في
الخفاءِ إلى حيّةٍ،
تُشْعِلُ الأرضُ قِنْديلَها
وتُقدِّم للعاشقِ المتمرّدِ،
مِرْآتَها
وسريرَ هواهَا
ومنديلَها، ـ
هل أقول: السّلامُ على مَن عَصى
أيُهذي العَصَا؟

* نَهَرُ التكوينِ، من هابيلَ مشطورٌ
يميناً وشمالاً،
ما الذي يشطرُ بين الضّفّتَيْنْ
غيرُ حَرْب الأخوينْ؟

(١) القائل هو الخليفة المأمون.

- غ ٢ -
(استطراد)

سأل الرّواي:

ما رأيُ الفِقْهِ بقول عليٍّ[١]

لغريبٍ ضَيْفٍ كان يَسيرُ لبيت المقدسِ - (هذا إنْ صَحّ النّقْلُ):

«لماذا السَّيْرُ لبيتِ المقدسِ؟ بعْ راحلتكْ

وَأَقِمْ في الكوفةِ - في مَسْجدِها

أَلرّكعةُ فيهِ خمسٌ في غيرهْ.

فيه صَلّى إبراهيمُ، وصلّى كلّ نبيٍّ، كلّ وصيّ[١].

وعَصا موسى فيهِ، واليقطينُ، وفيهِ.

فارَ التنُّورُ، وفيهِ

ماتَ يَغوثُ وماتَ يعوقُ وفيهِ

صلّى نُوحٌ -

فلماذا السّيرُ لبيتِ المقدِسْ؟»

(١) عليّ بن أبي طالب

(٢) في رواية: «ألفُ نبيّ، ألف وصيّ».

وثنَى الرّاوي:

قالوا: غمَس اللّه حروفَهْ

في دَمْع[٣] الكوفَهْ.

(٣) في رواية: حِبْر.

هوامش



إذا اعتاد الفتى خوض المنايا
فأَهْوَنُ ما يمرّ به الوحولُ.

المتنبي

دنانير المغنيّة

نبَغت عند يَحيى[1]

وكان الرّشيدُ يُحِبّ السّماع إلى صَوْتِها: أَبت أن تغنّي لغير البرامكةِ ـ استأثروا بهواها.

وأَبَتْ أن تغنّيَ حتى لهارونَ مِن بعدهم،

ولم تَقبل الزّواجَ، وظلّت

بعدهم، في اعتزالٍ عن النّاسِ،

في بيتها ـ

إلى أَنْ قَضَتْ.

ماتت سنة ٢١٠ هـ.

(١) يحيى بن خالد البرمكيّ.

أبو العتاهية

مات، سنة ٢١١ هـ. سجنه المهدي العباسي لأنه هجر قول الشعر وهدّده بالقتل إذا لم يعد إليه!

هجرَ الشّعر ـ قَرّر أن يتوقّف عن قولهِ:
لماذا، وماسِرّ هذا القرارْ؟
أَهُوَ الشعر لَهْوٌ؟ أم طريقٌ بلا مخرجٍ
نَتَعلَّم فيها الفرارْ؟
أهو الحِسّ أَنَّا نغامِرُ فيه ونَهْوي إلى لاقرارْ؟
ولماذا يثور الخليفة، يُلقيه في السّجنِ: «تبقى سَجيناً
إذا لم تعد إليهِ،
وقد أقتلُكْ.
ها أنا أُمْهِلُكْ».
عادَ للشعر، أُطْلِقَ من سجنهِ.
ما الذي قاله بعد ذلك: شِعرٌ
لمجد الخليفة، أم شعر فاجعةٍ واعتبارْ؟
. . . .
شاعِرٌ كان في بدء أَيّامهِ بائعاً للجِرارْ.

هشام الفُوطي

فيلسوف معتزلي، مات سنة ٢١١ هـ. (وفي رواية، مات سنة ٢٢١ هـ.). من آرائه: «فالنّاس لوكفّوا عن الظلم، لا ستغنوا عن الإمام» وَصفه الفَخْري في تلخيص البيان، بأنه «الشيطان».

قال هشامٌ:

«لو كَفّ النّاسُ عن العدوانِ،
لكانوا اسْتَغْنَوْا
عن كلّ إمامٍ»،

كلاّ لا حاجةَ لِلسُّلطانْ
إلاّ حيث الظلم وحيث العدوانْ.

ألهذا سَمّوه الشَّيطانْ؟

مات سنة ٢١٣ هـ.

إبراهيم الموصلي المغنّي

لم يكن دجلةٌ نرجساً
لهوايَ ولا مَرْكباً،
والفرات على عهدهِ
سفنٌ مِن جراحْ، ـ
مُدَّ لي يدكَ الآنَ، ياحبُّ،
دَهْريَ مُستودَعٌ
لِلأعاصير تجتاحني ـ
ودمي مُسْتباحْ.

مات سنة ٢١٣ هـ.

جبرائيل بن بختيشوع

قال، وكان قولهُ

يَسْتَشْرِفُ العصورْ:

«لا شأنَ لي بِمَذْهَبٍ

لاشأن لي بِسلطةٍ،

أوثِرُ أن أكتبَ في الطّعام والشّرابِ،

أو في صَنْعَةِ البخورْ.»

الأصمعي

مات سنة ٢١٥ هـ. من أقواله المشهورة: «الشعر نكدٌ بابه الشَرّ، فإذا دخل في الخير فَسُد».

رِغبةُ الشرِّ تَنْسابُ في رغبة الوَصْلِ،
والوَصْلُ ينسخ أحوالَهُ
في تجاريبَ تنسخ أَحْوالَها
ليس للشعر، في لحظة الوَصْلِ، إلاّ
أَنْ يُفارِقَ أهوالَهُ
ويُعاشِرَ أَهْوالَها.

أبو الهذيل العلاّف

شيخ المعتزلة في وقته. مات سنة ٢٢٦ هـ. يقول ابن الراوندي ساخراً من إحدى مقولات العلاّف «وليّ اللّه يتناول الكأس من بعض أزواجه، في نعيمه، بيده اليمنى، ويتناول من بعضهن ماأتحفه اللّه به، بيده اليسرى. إذا أُحضِر وقت السكون الدائم (سكون أهل الخُلْدين: الجنة والنّار) الذي هو آخر الأفعال وهو على تلك الحال فبقي كهيئة المصلوب ماذاً يديه في جهتين مختلفتين». حضر مجالس المأمون، وكان يحاول أن يوفّق بين القرآن وآراء أرسطو، في ما يتعلق بفكرتي الخلق واللّه.

قُلْ لي:
ماذا أخذت يَدُكَ اليُسرى
مِن تُحَف اللّه، وماذا
في يدكَ اليُمنى:
نَهْدٌ، أم كأسٌ؟
كأسٌ؟ أيّ شرابٍ؟
لكن السّاكنَ في الخُلديْنْ
هل يتحرّكُ،
هل يَتجلّى، هل يَسْتَتِرُ؟
أمْ هو غَيْبٌ في المابينْ؟
قل لي: أَيْنَ يكون هنا وهنالك،
هذا القدَرُ؟

أبو تمام

مات سنة ٢٢٨ هـ. قيل عنه: «كان يسقي النّاس ماءَ بالجرّة في جامع مصر»/ «كان يخدم حائِطاً بدمشق» / «كان أبوه خمّاراً بدمشق»/ «كان أسمر طويلاً حلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة».

لأبي تَمّامْ
حِبْرٌ في الضّوءِ، وضوءٌ
في طبقاتِ الحِبْرِ، له ميثاقٌ
مع مجهولاتِ
يستَشْرفها، يستخلصُها، ويعاشرُها
ويجادِلُها ويجافيها ـ طوراً،
ويُعانقها ـ طوراً،
كي يتدفّق منها حُرّاً
نسْغُ المعنى
في الأشياء، وفي الكلمات،
وفي الأيّامْ.

مات سنة ٢٣١ هـ.

إبراهيم النّظام

ذكروا أنَّه

عاشَرَ الثنوّيةَ والملحدينَ وأشباهَهم

وله سَقطاتٌ،

وتهمته الزّندقَةْ

غير أنّ صديقاً له قال عنه:

«رجلٌ

لا نظيرٌ له»[1].

(١) الجاحظ.

مُخارق المغني

قل لي: ماذا يَعْني

في صوتِكَ، في أحشائِكَ، في كلماتِكْ

أن يَنْسَى العِطْرُ

براعمَ يخرج مِنها؟

قُلْ لي:

أتظلّ غريباً بعد الموتِ،

وكنتَ الخارق طولَ حياتِكْ؟

مات سنة ٢٣١ هـ. خاطبه مرّةً أبو العتاهية، قائلاً: «يا دواء المجانين، لقد رقَقْتَ حتى كدتُ أن أحسدكَ، فلو كان الغناء طعاماً، لكان غناؤك أُدْما. ولو كان شراباً لكان ماء الحياة». وحاولت مرّةً المغنية شارية أن تقلّده في حضرة إبراهيم بن المهدي، فقال لها: «إياكِ ثم إياك أن تعودي فإن مخارقاً خلقه الله وحده في طبعه وصوته ونَفَسِه، يتصرّف في ذلك أجمع كيف أحبّ، ولا يلحقه في ذلك أحد. وقد أراد غيرك أن يتشبّه به، في هذه الحال، فهلَك، وافتُضِح، ولم يلحقه».

(الأغاني: ١٨/ ٢٧٥).

الرواية
IV

(. . .)

على الخيوط التي تتدلّى من قرص الشمس تصعد وتهبط حُمّى لها رائحةٌ لا اسْمَ لها بُني للمصابين بهذه الحُمّى أو هكذا شُبّه له مستشفى جَوّال يمكن لسرعة تجواله أن يُسمّى مستشفى الهواء تتناثر هذه الخيوط في فضاء القلعة الذي يبدو كمثل سقفٍ طويلٍ على مدى النّظر سَقْفٍ لم يبق من المادّة التي صنعته غير القَشّ والغبار وَهْمٌ ما يقوله بعضهم عن كبريتٍ أحمر يدخل في تكوين هذه المادّة.

لماذا لم يتجرّأ أحدٌ أن يسأل سيف الدّولة: كيف هيّأتَ لرعيّتك أن تصنع السّيوف والرّماح، الخناجر والقصور وأن تنعمَ بالسّبايا ولم تهيىء لها صناعة العلم والفن.

لو تيسّر له اليوم أن يرافق سيف الدّولة في نزهةٍ لمشاهدة المدينة التي أعطته ملكها وراقب كيف ينظر إلى أيامه الملقاة على أرصفتها وكيف يمرّ بها العابرون ولا يأبهون لكرّر صارخاً: أوه! ما هذا السرّ الذي يجعل حياة أمثال هؤلاء القادة عقيمة وجرداء؟

وَلكرّر أيضاً، لكن بلسان من جاء بعده، وأحبّه ـ المعرّي:

ما أدهاكِ، وما أبقاكِ، يابيوت العناكب.

لكن، اهتمّ الملوك بعمارة القلعة وتحصينها ـ

«سيف الدولة، سعد الدولة، بنو مرداش، عماد الدين

آق سنقر، ابنه عماد الدّين زنكي، ابنه نور الدين محمود، ابنه الملك الصّالح

ولمّا ملكَ الملك الظاهر غياث الدين غازي، حَصّنها وحسَّنها

بنى مصنعاً للماء ومخازنَ للغلال

بنى سفح تلّها بالحجر الهرقليّ

بنى على بابها برجين لم يُبْنَ مثلهما

وعندما خرّبها التتار، جدّدهاالملك الأشرف خليل بن قلاوون وعندما خرّبها تيمورلنك وأحرقها أعاد بناءها الأمير سيف الدين جكمر: عمل بنفسه، واستخدم في العمل وجوه النّاس: كان الأمراء يحملون الأحجار على ظهورهم».

هوذا،

تفاجئه عائلة أحزانه جلست والتفّتْ حوله

ربّما لأنه قال: سأزور التلّة أوّلاً تلك التي كانت النّجوم تهيمن عليها لا السّابحة في الفضاء بل في الأيدي

ـ «لا تعرف كيف تهرول، ولا كيف تقفز،

لا تعرف كيف تسدّد، ولا كيف ترمي.

لا تعرف حتى أن تمسك بالبندقية،

ماذا تعرف، إذن؟»

حتّى عندما كان يختبىء كعصفور في سرير نومه الشبيه بالحفرة، كان يشعر أن تلك النّجوم تجثم ساهرةً بين كتفيه.

أيّامٌ ـ غدرانٌ من العذاب،

مع ذلك، تطفو عليها عائلة أحزانه

كمثل أزهار اللّوتس.

أو ربّما فأجأته عائلة أحزانه لأن القلعة تذكّر بتلّةٍ أخرى غير تلّة النجوم أصبح اسمها جبل الجوشن؟

ـ «احتزّ رأسه أخذه مع رؤوس القتلى والنّساء والأطفال وسار إلى يزيد مرّ بطريقه على حلب نزل

بهم عند الجبل غربي حلب قطرت من رأس الحسين نقطة دم على الصّخر بقي أثرها إلى عهد سيف الدولة عَمّر على الصّخر مشهداً سُمّي مشهدَ النّقطة

(. . .) وأسقطت إحدى نساء الحسين جنيناً دفنوه عند ذلك الجبل. مرّةً، رأى سيف الدّولة نوراً عنده. ثم تكرّر ظهور النّور مراراً، ذهبَ إلى المكان أمر بحفره وجد حجراً نُقش عليه: «هذا الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب».

بنى عنده مشهداً سُمّيَ مسجد الطّرح وهو الآن مشهور باسم مشهد الشيخ محسن

من ذلك الوقت سُمّي الجبل جبل الجوشن نسبةً إلى قاتل الحسين شُمّر بن الجوشن».

أو لعلّ عائلة أحزانه فاجأته لأنه ذكرَ ذلك التلّ الآخرَ.

ـ «ظهر قومٌ يُقال لهم الرّاوندية خرجوا بحلب زعموا أنهم بمنزلة الملائكة صعدوا تلاً بحلب ولبسوا ثياباً من حرير وطاروا. . ./

وقيل: هلكوا.»

غير أنه ليس ملاكاً، ولا يلبس الحرير

وداعاً لعائلة أحزانه.

كان فيما يعبر المدينة إلى القلعة يشعر كأنه يكتب خطواته على جدران لحظاتٍ تواكب جدراناً من الحجر لفّت أعناقها بمناديلَ من حِبْر لا يفنى وبدت هذه المناديل كمثل غلائل سماويّة تتدلّى فوق الأبواب غلائل لها أشكال الرّقم ينقشها ويزركشها حِبرٌ أسود، ـ

أ ـ منديل زاوية الحيدري:

«أَنْشَأ هذه الزاوية المباركة
المقرّ الكريم العالي السيفي، قَطْليجا
والمقرّ الأشرف الكريم، طازْ
كافل المملكة الحلبيّة، سنة ٧٥٧».

ب ـ منديل جامع الطُّنْبغا (في ساحة الملح):

«أنشأ هذا الجامع المبارك
الفقير إلى اللّه تعالى
المقرّ الأشرف العالي العلائيّ
الطُّنْبغا الناصري
في أيّام دولة مولانا السلطان الملك الناصر محمد،
عزّ نصره في شهور سنة ٧١٨».

لم يكن يحق له الجلوس تابع طريقه مُبلّلاً
بأصواتٍ تعلو في الأزقة كأنّها لهاث الأيّام.

ج ـ منديل جامع الجوشيّة (في السّويقة):

«بسم اللّه
أنشأ هذه الزاوية المباركة
العبد الفقير إلى اللّه تعالى الشيخ صالح العابد الحاجّ
جنيد بن عمر الأقصراي الأبو سنجاقيّ.
تغمّده اللّه بالرّحمة ـ
برسم سلطان الأولياء والأقطاب،
المرشد إلى طريق الحقّ والصواب
قدوة السالكين وزبدة الواصلين
هادي المسلمين خليفة اللّه في الأرضين
سرّ اللّه في الآفاق
حجّة اللّه على الإطلاق
الشيخ المرشد أبو إسحاق إبراهيم
شهيريار الكازُرُوفيّ،
قَدّس اللّه روحه،

وعَلَّى خلفاءه ومريديه

وليس لأحدٍ جلوسٌ على سجّادة المجلس غير خلفائه،

وكان الفراغ في شهر ربيع الأول سنة ٧٤٧».

*

ـ ماذا تعمل؟

ـ لا أعمل. أصلّي لكي يصبح الزّرنيخُ عسلاً.

*

جامِعٌ ـ

كلّ حَجَرٍ حنجرة.

*

وجهُ عاملٍ: صحنٌ من الغبار.

وجه بدويّة: أَكْثَرُ من حديقة.

*

ـ الوقت؟

ـ سلسلة في يد الغيب/

كان يتكىء على كيس مليءٍ بحنطة الفرات إلى جواره امرأةٌ شبه نائمة. أهي رفيقته في حصاد القمح؟ ربّما. كانت أهدابه، وهو ينظر إليها، تنزل على وجهه كمثل السّنابل.

*

بدأت الشمس تتدحرج على منحدرات الظلّ.

*

نباتاتٌ تخترق وجه الإسفلت، احتفاءً بالضوء.

*

كبشٌ في عنقه خيط حريرٍ أحمر: كبشٌ مسحور.

*

شخص له شهرة عالية كمثل ضبابٍ يغطّى الجبال،
آخرُ له قامة الألف: هل عمله الدائب هو أن يضرب جسده بسيف النّحول؟

*

امرأة مسكوبة في عمود أسود جرة سوداء مليئة بكحول سوداء ومن ضفافها تطفح الشّهوة.

*

لا تزال القلعة تنتظره جالسةً في حضن سوادٍ آخر.
القلعة، ـ
من الفضاء الذي يحيط بها يتصاعد هباءٌ يتدثّر الهواء والهواء كمثل عرباتٍ بلا نهايةٍ تقطرُ النّاس.

ترفّقْ، يامهماز الغبار.

وكانت الشمس تنزل بطيئةً بين فخذي المساء،

ما أطيب النظر إليها وهي تغسل وجهها بماء الغروب.

*

رجلٌ بدا كأنّه يحفر قبراً يرمي فيه جثّة النّهار.

*

امرأة ـ

تسدل ستار نافذتها كمثل غيرها تتهيّأُ

لكي تصعدَ سلالم اللّيل نحو شموسه العالية.

ـ ينبغي، أيها العابر، أن تقتديَ بطمأنينة الغبار.

ـ هيهات هيهات،

من أين لي الأسنان التي تقرضُ صخرة الوقت؟

وقال أبجد:

رأيت في المدينة دال، في ناحية تسمى ناحية المقابر شبحاً جالساً على قبر. اقتربت. قال:

«ـ هل كان طريقك إلينا طويلاً؟

لم أجبه. ظنّ أنني خِفت. قال:

ـ لا تخف. أنا ميت، وهذا قبري. ولست هنا، الآن.

ـ إذن أين أنت؟

ـ في برزخٍ، مع أصحابٍ لي نتحدث عنكم.

ثم رأيته يتلاشى، وتظهر وراءه قبّة جوهرٍ تنفتح وتطلع منها امرأة، أومأت، وقالت:

ـ غداً، يزورنا شخص يُقبر في هذه القبّة.

ثم غابت، لا أعرف كيف.

وغير بعيد،

رأيت قبّة ثانية يغطّيها كساءٌ أخضر، وإلى جوارها امرأة تدق على الحائط وتصيح:

ـ أنا المرأة الضالّة، من يدلّني على الطريق؟

وأخذت تبكي.

اقتربت وسألتها:

ـ ماذا بكِ؟ ماذا يبكيكِ؟

قالت:

ـ حملتني عيناي. نمتُ. أضعت الطريق. كنت أحلم أنني ذاهبة إلى...

فجأة، رأيتها تسقط ميتة.

آنذاك سيطر عليّ الخوف. ركضت، وفي منعطفٍ خططت بيديَّ خطًّا جلست فيه، وأخذت أتمتم كلماتٍ تعلّمتها في طفولتي،

غشيتني سحابات سودٌ حجبت عنّي ما حولي، وسمعت فيها أصواتاً تقطعها

ورأيت عظاماً تتناثر وتبكي.

ثم سمعت شجرة تقول:

ـ هذه ليلة الوسوسة، هذه ليلة الجنّ.»

*

«مرّة، ظهرت لي بئرٌ وكنت عطشاناً. اقتربتُ لأشربَ منها طلعت منها امرأة قالت بلهجةٍ آمرة:

ـ تزوّجْني!

كانت جميلة. تزوجتها.

ثم قالت:

ـ أنا غريبة عن هذه المدينة. وأنا عائدة إلى مدينتي. طَلّقْني.

ولمّا كنت أحبّ الوحدة، طَلّقتُها.

لكن في اللّيالي التالية، جاءتني شبحاً وهيئة.

وذات صباحٍ،

رأيتها تلتقط قمحاً عن الأرض. كلّمتها. وضعت يدَها على رأسها ورفعت عينيها إليّ وقالت:

ـ بأيّ عينٍ رأيتني؟

أجبت:

ـ رأيتكِ بقلبي لا بعيني.

أومأت بإصبعها وغابت، دون أن أراها.

فقد ملأ الدّمعُ عينيَ اليُمنى، وملأ اليُسرى ضبابٌ أخضر.»

*

«ورأى في المدينة ألف جبلاً غريباً كان ملكها يتردّد إليه بين ليلة وليلة. للجبل، كما سمع، مسامٌ ترشح منها الرّياح والبخارات. وفيه صهريجٌ معلّق في الهواء، عليه قبّة تسقط منها حجارة رخوة.

في القبّة النّهر العجيب الذي يجري في دوائر حتّى ينتهي إلى الصّهريج فتُغلى الحجارة وتُطبخ،

وتكون منها الأمواج المختومة، والتوابيت المقفلة،
وفلك المصباح والرّياح،
وتكون منها الحكمة والكيمياء.»

*

«ومرّة، كان يسير على طريق ضيّقة فجأة، ظهرت من الأرض أغصانٌ متشابكة كأحسن ما يكون من الشجر واستقامت في الجو كأعلى ما يكون من الصنوبر والحَوْر،

ثم انحنت وانْدَسَّتْ في التراب وهوت إلى الأسفل بقدر ما كانت عالية.

ورأى شجرة استوقفتْه وامتدّت نحوه ثمرة أخذها انفلقت في يده أربع قطع

خرجت من كلّ قطعةٍ امرأة ملأت بالعطر والشّهوة مابين الأفق والأفق.»

*

«ومرّة رأى رجلاً يهرب كانت تُطارده الحجارة إلى ناحيةٍ في المدينة ألف يبقى الحجرُ فيها معلّقاً لأنّها ناحية مسحورة تمنع أن يقع فيها ضربٌ أو قَتْل.

ورأى النّاس الحجر آتياً يطارد الرجل

فصاحوا به: توقّفْ وعُدْ.

توقّف ثم عاد بقيَ عالقاً بين السّماء والأرض على حدود النّاحية، حتّى مات الرجل فطار الحجر عائداً إلى مكانه.

ورأى مرّة في المدينة ذال، في ناحية تُسمّى ناحية الطير، طيوراً تتعانق. حين اقتربت، طارت وبقي طائرٌ كان ميتاً تفوح منه رائحة المسك قال: إنه مليء بالخير كانت معه عمامة زائدة لفّ بها الطائر ودفنه.

ناداه صوت:

هذا الذي دفنته شهيدٌ ـ بعضهم يقول كان يسمع وحي النبّوة، وبعضهم يقول كان شهيد الحبّ.»

ورأى في طريقه شبحاً بلون الرّماد يمشي بطيئاً كأنه يخرج من بئر ثم تقدّم نحوه وسلّم عليه. دُهِش خائفاً قال:

«ـ لا تخف. لكن اقرأ عليَّ شيئاً من الشعر.

أخذ يقرأ سُرّ كثيراً وعاد الاطمئنان إلى قلبه

قال: ـ نحن نحبّ الشّعر أغلب الأشخاص الذين يسلكون هذه الطريق لا يفهمونه أو لايحبونه أو غرباء عنه نهجم عليهم ونخنقهم.

وحين أراد أن يسأله: ومن أنتم؟ رآه يغيب. لكن، شعر أن الطريق أصبحت آمنة كأنما تحرسها الأزهار والكواكب.»

*

نام مرّة في بيت صديقه يارجوج

«وبينما كان في الليل، قبيل النوم، ينقل خطواته في ساحة البيت، رأى السّماء تحمرُّ احمراراً شديداً وسمع في الجوّ أصواتاً وهمهمة ثم رأى غيمة حمراء كمثل نار قريبة منه، فيها أشباحٌ أمثال النّاس والحيوانات تحمل رماحاً وسيوفاً

ثم اقترب غيمٌ أحمر آخر فيه أشباح أمثالُ الناس والحيوانات أيضاً تتقلد الرماح والسيوف وتحمل على تلك الغيمة كجيش يقاتل جيشاً.

كانت الغيمة تهجم على الغيمة فتختلطان ثم تفترقان.

فزع وأسرع يسأل يارجوج عن هذا. قال:

ـ كان أجدادي يقولون هؤلاء أصدقاء حكموا المدينة ألف وعاشوا فيها قبلنا وهم يقتتلون في سمائها كلّ عشيّة.»

*

حكى يارجوج أنه سمع رجلاً يروي هذه الحكاية، ـ

«عشق رجل اسمه اطروش امرأة رفض أبوها أن يزوّجها منه، وزوّجها من آخر. جُنّ أطروش قَيّده أهله كان يعضّ شفتيه ولسانه حتى خافوا أن يقطعها

رآه هذا الرّجل مرَّة يجلس على تَلّ ويخط بإصبعه خطوطاً وحين دنا منه فرّ كما يفرّ الوحش من الإنسان ثم ظهرت غزالة فوثب يركض وراءها.»

*

وكان بعض سكّان المدينة ألف يعبدون شجرة صنوبر

«كانوا في كلّ شهر يقيمون لها عيداً يجتمعون حولها يضربون عليها مظلّةً من الحرير تزخرفها الصّور ثمّ يقدمون لها الذبائح خِرافاً وعجولاً وديكة حين يتصاعد دخان الذبائح يسجدون باكين ضارعين

كانت الشجرة آنذاك تتحرّك وتحرك أغصانها يطلع من جذعها صوتٌ كصوت الأطفال:

«طوبى لكم، إني أمنحكم ملكوتي».

عندئذٍ يرفعون رؤوسهم ويشربون ويرقصون.»

ومرّة ركب البحر في المدينة «وركب معه شابٌ صبيح الوجه لمّا توسّطوا البحر فقد صاحب المركب كيساً فيه مال فتّش كلّ من كان في المركب وحين وصل إلى الشّاب ليفتشه وثب وجلس في البحر فقام له الموج على مثال السّرير ثم سمعوه يقول:

«مولاي،

هؤلاء اتّهموني. أقسم عليك، يا حبيب قلبي، أن تأمر كلّ دابّة في هذا البحر أن تخرج رأسها وفي فم كل واحدة جوهرة».

فما أَتَمّ الشّاب كلامه حتى رأوا دوابّ البحر قد أخرجت رؤوسها وفي فم كلّ منها جوهرة

ثُمَّ وثب الشاب ثانية في الموج، وصار يمشي

وأخذ يغيب رويداً رويداً.»

وأخبره أحدهم «أنّ صديقاً له تزوّج امرأة وسافرا في الطّريق استراحا مَرّ بعضهم فرأوا المرأة جالسة على بطن الرّجل تأكل كبده،

ثم رأوا ناراً تنزل وتشقّها اثنتين.»

ورأى في أحد أحياء المدينة ألف حدّاداً يُدخل يده في النّار ويخرج الحديد المحمّى دون أن يحترق[1] سأله:

«ـ هل تضيفني هذه الليلة؟

قال

ـ نعم. بحبّ.

مضيا إلى منزله. أخذ يراقبه لم يشاهد شيئاً غريباً يخوّله أن يكون في هذه المرتبة: لا تؤثر النّار في جسمه قال له:

ـ كيف لا تحترق بالنار ولم ألاحظ أمراً خارقاً يؤهّلك لذلك؟

قال:

لهذا سرٌّ غريبٌ وحديث عجيب.

وروى هذه الحكاية.

«كان لي جارة جميلة أحببتها كثيراً وراودتها عن نفسها مراراً عديدة لكنها كانت ترفض جاءت سنة قحط وجدب وعمّ الجوع فبينا أنا جالسٌ، ذات يوم، في بيتي وإذا بشخص يقرع الباب قمت لأرى من هو فإذا بها واقفةٌ بالباب قالت:

ـ يا أخي إنني جائعة فهل تُطعمني لِلّه؟

(١) في المأثور أن أناساً أرادوا أن يغزوا المدينة ألف ويدمّروها. وفي طريقهم إليها، خرجت عليهم طيرٌ من البحر لها خراطيم شبيهة بالوطاويط، حمرٌ وسود، رمتهم بحجارةٍ مدحرجة كالبنادق تقع في رأس الرجل، فتخرج من جوفه.

قلت لها:

ـ ألا تعلمين، كم أحبك، وأقاسي من أجلك؟ لن أطعمك إلا إذا مَكّنتني من نفسك.

قالت:

ـ الموت، ولا المعصية.

ومضت إلى منزلها.

بعد يومين، عادت إليّ وسألتني أن أطعمها ثم دخلت إلى البيت وجلست حين قدمت لها الطعام بكت وسألتني:

ـ هذا لِلّه؟

قلت:

ـ لا.

لم تأكل. قامت وخرجت إلى منزلها.

بعد يومين جاءت وقد هَدّها الجوع قالت:

ـ يا أخي، أعيتني الحيل لم أقدر أن أسأل أحداً غيرك هل لك أن تطعمني لِلّه؟

قلت

ـ لا.

أطرقت ثم دخلت إلى البيت، ولم يكن عندي طعام. أشعلت ناراً وصنعت لها طعاماً

وَبَيْنَا أنا أضعه أمامها جاءني هذا الخاطر: «امرأة تمتنع عن طعام، مع أنها جائعة جوعاً لا قدرة لها على تحمّله، وأنا لا أمتنع عن معصية اللّه؟ سأتوب، ولن أقربها في معصية».

ثم قلت: هذا طعامٌ لِلّه.

لمّا سمعت ذلك، رفعت رأسها إلى السماء وقالت:

ـ ياربّ، إن كان صادقاً، فحرّم عليه النار في الدّنيا والآخرة.

تركتها تأكل.

قمت لأزيل النار، فوقعت جمرة على قدميّ لم تحرقني دخلت إليها وأنا فرح وأخبرتها رمت اللّقمة من يدها وقالت:

ـ حقّقت أمنيتي.

خذني إليك يا ربّ، هذه اللحظة.

ثمّ رأيتها تسقط وتموت بين يديّ».

الذّكرى

IV

المدينة كاف

طاب لي كثيراً في المدينة كاف
أن أقطعَ الغصن الذي أجلس عليه.

*

يمكنك، في المدينة كاف، أن تستغني عن نصف اليوم. فهذه المدينة هي نفسُها الليل.

*

في كل إنسان شيء من نيرون، خصوصاً في كل ما يتصل بفنون الذبح والطبخ والأكل، وهذا مما يخفيه بعضهم، ويحاربه بعض، ويبرأ منه بعض آخر. غير أنه، ويا للعجب، موضع اعتزازٍ لدى الناس جميعاً في المدينة كاف. خصوصاً أن الإنسان فيها مأخوذٌ بأكل اللحم. وتتفتح شهيته، وتبلغ متعته أوجها عندما يأكل لحم أخيه الإنسان.

*

لكل شيء في المدينة كاف نهاية، إلا شيء واحد: قتل الآخر، بشكل أو آخر.

*

أنا أوسع بيت في المدينة كاف: يقول السجن.

*

لن تقدر أن تقابل أي شخص في المدينة كاف، إلا من وراء حاجز.

*

يعتقد الأشخاص الذين يقودون المدينة كاف أنهم لم يولدوا من امرأة، بل من فكرة، ورسالتهم التي يعملون لها بإصرار هي: على أبناء المدينة كاف أن يولدوا هم أيضاً من هذه الفكرة.

*

يُقال إن المدينة كاف تسير على طريق عالية. ربما. لكنها، بدلاً من أن تنظر إلى الأمام، لا تنظر إلاّ إلى الوراء.

*

قبل أن يدخل العابرُ إلى المدينة كاف، يكون شكُّه ضعيفاً. بعد أن يخرج منها، يكبر شكّه ويقوى.

هو ـ حاضر في المدينة كاف، لكنه موجود في غيرها.

*

الصفر هو الواحد في المدينة كاف.

ويحار علماء الرياضيات في تفسير ذلك.

*

أينما اتجهت في المدينة كاف، ترى كتباً مصلوبة

وترى دماً ينزف من الثقوب التي أحدثتها المسامير في جسد الكتاب

وأحياناً، لا تقدر أن تميز بين شكل الكتاب، وشكل الجسد.

المدينة لام

«ليس الوطن لمن يقيمون فيه، بل هو لمن يهيمنون عليه. الوطن أخطر الأفكار الحديثة التي ابتكرتها شهوة التملك»: هذا نص لمنشور يتداوله الناس سرياً في المدينة لام.

*

«تبتكر بعض الثورات أبواباً لا يقدر أصحابها أن يخرجوا منها، ولا يقدرون أن يغلقوها»: نصٌّ لمنشور سري آخر يتداوله الناس سرياً في المدينة لام.

*

«من جهة الضوء أيضاً، يجيء الخطر»، ـ

قرأت ذلك في رسالة آتية إلى صديق في المدينة لام.

*

هو ـ مواطن في المدينة لام. ويبحث، مثل كثيرين غيره، عن الحقيقة. لكنه حتى الآن يتردد في الجهر بذلك. فهو لم يقرر بعد أن يذهب ـ

لا إلى الجنون

ولا إلى الموت.

*

يتربَّى المواطن في المدينة لام على الإيمان بأنه لا يكون حيّاً إلا بقدر ما يكون كل ما حوله ميتاً.

*

المنهج في ثقافة المدينة لام هو:

سِرْ، لكن لا تسأل.

*

الموت الواقعي، والحياة الممكنة: ذلك هو المناخ الذي يكبر فيه أطفال المدينة لام.

*

يفكر الناس في المدينة لام ويسلكون، مدعين أنهم هم الذين يحرسون السماء.

*

بقدر ما تختلف في المدينة لام مع الواقع، تأتلف مع الحقيقة.

*

الفكر في المدينة لام يُورَّث هو أيضاً،

وليس من رأس إلى رأس، بل من يد إلى يد.

*

لافتة في ساحة المدينة لام:

عشرون كوكباً على كرسي واحد.

*

معظم المواطنين في المدينة لام،
يرسلون أحلامهم (بطريقة خاصة، لا أعرف كيف أفسرها)، إلى القائم على المدينة، لكي تستأذنه، قبل أن تزور أجفانهم.

*

في المدينة لام حوانيت لا يتاجر أصحابها إلا بعظام الموتى وأسمائهم.

*

يلوم نفسه أحياناً في بعض لحظات الضعف: لو أنه صَفّقَ مرة للمدينة لام، لكان عنده، اليوم، قمرٌ ـ على الأقل!

*

القيم كلها في المدينة لام قائمة على «أفعل» التفضيل: أكبر، أعلم، أجمل، أشعر... إلخ.
والسبب جهل سكانها: حِسّ الفروقات عندهم معطل، ولا يعرفون أن يميزوا بين شيء وشيء.

*

أفضل أن يبقى رأسي فارغاً على أن يكون ممتلئاً بأفكار المدينة لام. وأفضل أن أُسمّى مخرّباً على أن أحتفي بعمرانها القائم.

*

عهداً
سأسهر دائماً على إغراء المدينة لام
بجمال الخراب وسحر الفوضى.

المدينة ميم

في المدينة ميم، تحدثك الجدران سرياً، عن قلب يريد أن يخرج من نفسه لكي يسكن قلباً آخر، أو عن نافذة تريد أن تؤاخي الأفق.

هكذا، لكل كلمة في المدينة ميم سجن، باستثناء كلمة واحدة: السجن.

*

الحاضر في المدينة ميم هو نفسه الخادم الذي يغسل قدمي السيد الماضي. وعندما يتاح لك أن تدخل بيتاً في هذه المدينة، وترى إلى جدرانه، يخيل إليك أن لحظات الماضي كلها تحولت إلى صور تتدلى عليها، وتشعر أن الحاضر كله ليس إلا مسامير لتثبيت هذه الصور.

يطيب لك، بعد ذلك، أن تقسم البشر إلى قسمين:

جماعات تجلس على الزمن،

وجماعات يجلس الزمن عليها.

*

دخان في زاوية. في الدخان ما يشبه أجنحة ليست أجنحة طيور. وفيه أحياناً ما يشبه أجفاناً لعيون ليست عيون امرأة أو رجل. لكن، يا للغرابة، يبدو أنه دخان بلا نار. انظر من هذه الزاوية، عبر هذا الدخان، إلى الفضاء: سترى أن وجهه يتعفن ويبلى.

المدينة نون

من السّتار إلى الغبار، ومن الغبار إلى السّتار: ذلك هو مدار المدينة التي تأخذ اسم الجسد أحياناً وتحلّ محلّه، غالباً، أو تتجلى في شكل المدينة نون. في الستار تجد وجهها، وفي الغبار تجد مرآتها. أما الفم فبعيد، وربما كان قطعة نَقْدٍ زائفة في جيب الموت.

*

أنظرْ، عند الغروب أو عند الشروق، إلى أعالي الجدران وإلى العتبات في المدينة نون. سترى أن بياض الصحراء يجلس هانئاً وربما رأيت في هذا البياض عربة تحسبها ماعزاً، أو شجرةً متحركة تمتلىء بفراشات زُيّنت أجنحتُها بالرّصاص والفضّة. لن تلمح أثراً للبحر، مع أنه يقيم على بضع خطوات.

*

تقدر بيسْرٍ أن تشاهد الأبدية وهي تتسلق ما بقي في المدينة نون من جدران الأزمنة. تقدر بيسر أن تشاهد الأيام وهي تتحول إلى أفواه، رافضةً أشكال العين والأذن والأنف عند أبناء آدم. تقدر بيسر أن تشمّ البخور المتصاعد من كهف سمي تيمّناً: التاريخ. تقدر بيسر أن تشاهد المسرح الذي تنقلب فيه الفاكهة إلى نساء. لكن ينبغي أن يكون لك صبر الهواء لكي تقدر أن تشاهد كيف يكون الإنسان إنساناً.

*

هذا الذي أقوله عن المدينة نون، أقوله بالسماع والتواتر. عبثاً حاولت أن أدخل هذه المدينة، مع أنها تسكن في مخيلتي. قلت مرة، وقد يئست تقريباً: سأنجّم، سأستغيث بأفلاك الذكورة والأنوثة، سأكتب التعاويذ ـ مؤالفاً بين النون والحاء، النون والخاء، النون والدال، النون والسين، النون والعين، النون والياء. . . إلخ،

*

كأن المدينة نون لا تريد أن تكون أكثر من عكاز في يدٍ ما. كأنّ الكلمات في المدينة نون جبال لكي تتسلقها، لا ألفاظ لكي تنطقها.

كأن الزمن في المدينة نون صخور تربط إلى قدمي الإنسان لكي تسهل عليه الهبوط أعمق فأعمق حتى قرارة اللازمن.

كأن الشمس في المدينة نون دكان، والهواء ميزان

كأن الأشياء في المدينة نون هي التي تتخذ من البشر بيوتاً لها

كأن الكلام في المدينة نون حلقة وصل بين الطرق التي لا تقود إلى مكان.

*

صحيح أنّ المدينة نون واحدة موحدة. لكن، صحيح كذلك أنّ كل زقاق فيها لا يكتب رسائله إلا بدم الآخر.

*

هو، المواطن في المدينة نون، يمضي حياته كلها في خياطة الرمل، ويصف نفسه بأنه الأمل.

هي، المواطنة في المدينة نون، تولد، تنمو، تكبر، تشيخ، تهرم، تموت، لكن دون أن تمر في أية مرحلة من مراحل الحياة.

*

قَلمّا رأيت في المدينة نون إلا النصر. كانت الأبجدية تتغطى بعباءات تتغطى هي نفسها بعباءات لا تعرف أن تنسجها إلا يد الرمل. ولست أجهل أنّ الريح هي التي تنتصر دائماً.

لكن، ماذا يعني نصرٌ تحقّقه الريح؟

*

تجلس المدينة نون حيث تقدر الجهات كلها أن ترى أين هي، وحيث لا تقدر هي أن ترى حتى نفسها. لهذا، أينما تسكّعت في هذه المدينة، ستسمع الماء يتأوه، والهواء يزفر ويشكو. لهذا ليست المدينة نون إلا طنيناً في أذن الوقت.

*

ما أكثر الأعمدة، من كل نوع، في المدينة نون. في كل عمود حكيم يرث الحكمة عن الكواكب حين كانت تقص على الأرض أحسَن القصص. وكلّ عمود خزانة من الأجوبة، لكن ليس عن الأسئلة التي تطرحها أنت، المقيم الزائل، بل عن

أسئلته هو. هو السائل وهو المجيب. وليس لك أنت إلاّ أن تقول نعم.

كل ليلة، قبيل الغسق، ينصب الكلام خيامه بين أغصان هذه الأعمدة، وينام في انتظار الليلة الآتية. اين ينتهي الحد الذي تقف عنده وسادة أحلامكِ، أيّتها الأعمدة؟

المدينة سين

ليت الشمس تساعدني، لكي أنقذ ذلك الشعاع الذي يحاول أن يهرب من ظلام المدينة سين.

*

عبيدٌ ـ لكن، تطوعاً:

هذه عبارة لا تجد لها ترجمة عملية إلا في المدينة سين.

*

قتل البصيرة وإحياء القدمين:

هذا هو قانون الحياة في المدينة سين.

*

لماذا تضطرب؟ هل تخشى أن تسقط تحت ضربات العداء الذي تكنّه المدينة سين لاسمك ولدروبك؟

أَدْخِلها في محيط حبك، واتكىء على هذا الحب كلما ذُكِرت أمامك.

آنذاك، على الرغم من اللاّمبالاة التي تخصها بها، لن تسقطَ أبداً.

*

ما أَجمل جسدك، أيها الحب مجزأً ـ مصلوباً، عضواً عضواً، على جسد المدينة سين.

*

بعد، لم تترجم الريح
ذلك الرمل الذي تختزنه الصحراء التي تختزنها أحشاء المدينة سين.

*

تفكر المدينة سين وتعمل لغاية واحدة:
أن تجعل ساكنيها يألفون ما يأكلهم،
كما يألفون ما يأكلونه.

*

أيتها المدينة سين،
لماذا، وأنتِ الغنيّة بالقتلى لا تبددين إلا الأحياء؟

*

سأبتكر أحوالاً تشتعل فيها نيران تتمدد في الفضاء كمثل الأسرّة العاشقة، ولن تجد المدينة مفرّاً من الاستسلام إليها.

*

فتح لي الرعد أبوابه،
فيما كنت أقرع باب المدينة سين. قال:
ينبغي أن تعيد ابتكار الطريق.

*

في المدينة سين ليس للسجن حدّ. تتموّج حدوده مع الهواء، ومع الضوء والظلام. لا أحد يقدر أن يقيسها. لا أحد يعرف أين تبدأ وأين تنتهي.

وتبالغ بعض الروايات، فتقول: المدينة سين هي التي ابتكرت السجن.

كأنما يجب، لكي نمحو السجن في هذه المدينة، أن نمحوها هي نفسها.

*

أَبحث عما فعلته المدينة سين زاعمة أنه الحق، فلا أعثر إلا على الخطأ.

*

أتحدث عن أحلام تكسرت أهدابُها،

أتحدث عن بلد لا يحلم به أحد ـ لا المشرد، ولا التائه، ولا من ليس له بلد،

أتحدث عن ثقوب يهيمن عليها ملائكة لا يتوقفون عن النبش في معاجم الحديد والنار،

أتحدث، وأعني المدينة سين.

*

للمدينة سين رسالة واحدة: أن تضع حياتها ومصيرها وطاقتها كلها في بضعة ألفاظ.

المدينة عين

أية شفرة هذه التي تنزهها المدينة عين، في تلك الساحة المقفرة: الإنسان؟

*

لا تقدر المدينة عين أن تفعل شيئاً، كما يبدو، إلاّ أن تنتظر خرابها. ربما في هذه الحالة، سيكون الانتظار نفسه فعلاً، أو يشبه الفعل.

*

أتدلى في فضاء المدينة عين ـ جسداً مفرداً، غريباً، مع ذلك، لن اعتصم إلاّ بجسدي.

*

الحياة قصيرة، تقول الحكمة.
غير أنها في المدينة عين أطول من الأبدية.
تقول الحكمة أيضاً: الأرض واسعة،
لكنها في المدينة عين أضيق من سُمّ الخياط.

*

تستقبل المدينة عين ضيوفها بأقواسٍ من الضحك، وتخصص لاستضافتهم بيوتاً من الدمع.

*

«اصطدمت يداي بعنق الليل. كان مستلقياً على خاصرتي. لم أقدر أن أرفع غطاءً وضعه الحلم فوقنا. أخذه النهار وضمه إلى أشيائه التي يستعين بها على مواجهة الحواس الخمس لجسد ينتظر على العتبة»، ـ

هذا جزء من رسالة كتبتها امرأة في المدينة عين، قبيل موتها.

*

صرت مقتنعاً أن للأيام في المدينة عين قشوراً، وأن هذه القشور مسكونة بسحر أخضر.

*

إن لم تكن لديك في المدينة عين الجرأة على مجابهة الأسطورة نفسها، فإن مجابهتك للأشياء الأخرى لا قيمة لها.

*

لن تجد أنهار الواقع ماءً يقدر أن يتحاور مع مجاريها، كمثل الماء الذي يتفجر من ينبوع خطواتي ـ من أجل الخراب الذي يهيأ للمدينة عين.

*

«تنمو في ظل الشجرة نارٌ تأكلها»، ـ

تقول حكمة شاردة في أنحاء المدينة عين.

*

خرابٌ هي المدينة عين، لكنّهُ خراب لا يكتمل.

*

ـ لماذا تجمد المدينة عين، بينما تتغير مدن أخرى؟

ـ لأن المدينة عين تتحالف مع الكلمات،

وتلك المدن تتحالف مع الأشياء.

*

حرّضِ الوردة على رائحتها،

وهذه على تلك،

وأشعل بينهما الفتنة:

تلك هي البداية، إن شئت أن تفهم المدينة عين.

*

وردةٌ تكاد أن تذبل،

تهرب من إنائها في المدينة عين وتجلس قربي، ـ

ـ أيّتها الوردة، ربّما، ربّما. . . .

IV

على الفراتِ أعاصيرٌ، وفي حلَبٍ
تَوحُّشٌ ـ (. . .).

المتنبي

٢٠٥ هـ.

- ٥٢ -

- أ -

- يا حسينُ، اسْقني[١]

- لاسقيتُكَ، إن لم تقل لي، لماذا بكيتَ؟

- لماذا عناكَ بُكائي؟

- اغتممْتُ،

- إذا خرج الأمرُ من شفتيكَ، قتلتُكَ.

- يا سيّدي، ومَتى أفْشَتَا ما تُسِرُّ إليَّ؟

- ذكرتُ الأمينَ أخي،

فاختنقتُ بدمعي واسترختُ لِتَسْكابِهِ.

- ب -

«لا يخلو أحدٌ

مِن شَجَنٍ»[٢].

- أ -

سيفٌ روميٌّ، ودَمٌ عربيٌّ

سيفٌ عربيٌّ ودَمٌ روميٌّ -

لَعِبٌ

والنَّرْدُ رؤوسٌ.

جيلٌ ينمو، جيلٌ بائدْ

والمؤمنُ، في هذا اللَّعب المجنونِ،

كمثل الكافرِ، جِسْرٌ واحِدْ،

لمصيرٍ واحِدْ.

* بين سَيْفٍ يَحُزّ، وعنْقٍ يُحَزُّ،

المدائن وحيٌ

والخرابُ كتابٌ.

(١) حوار بين المأمون وخادمه، ساقي الخمر، حسين.

(٢) من كلامِ للخليفة المأمون.

٢٠٦ هـ.

- ٥٣ -

حربٌ مع نَصْرٍ[١]،
حربٌ مع بابَكَ[٢]
مع أبناء الزُّطْ[٣] -
حروبٌ: رغباتٌ تمضي
رغبَاتٌ تأتي،
أين المعنى، أين السَّبَبُ؟
ما أكذبها - تلك الكتبُ!

- ب -

ألحِصانُ يحكّ التّرابَ، السّنابِكُ
مكسوّةٌ
بالغبارِ، وفي كلّ قائمةٍ
رَجّةٌ.
ألحِصانُ يُؤاخي
بين شمس السّهول وأيّامهِ
لا رَحِيلٌ، ولا حَمْحَمَهْ.
أَلحِصانُ يُسرّح عينيه في غابة الدّموعْ، -
سقط الفارس الرفيقُ، مَضى
حيث لا شيءَ:
لا قَوْمةٌ، لا رجوعْ.

* أَلكواسِرُ ترصدُ موتَ البشَرْ،
وانظروا كيف تنقضّ خلفَ الأثَرْ.

(١) نصر بن شبث.

(٢) بابك الخرّميّ.

(٣) طائفة من أهل الهند (معرّب جَتْ). كان عددهم حوالى ثلاثين ألفاً، يرئسهم شخص اسمه محمد بن عثمان. تمرّدوا، وغلبوا على طريق البصرة. وجّه المعتصم لحربهم عجيف بن عنبسة سنة ٢١٩ هـ. تغلّب عليهم، ونفاهم جميعاً إلى عين زربة، على الحدود العربية - الروميّة، آنذاك. وهناك قُتلوا جميعاً.

٢٠٧ هـ.

- ٥٤ -

سنّةٌ ماحِله
لم تَبُخْ بالرّؤوسِ
التي قطعتها
ولا باليد القاتِلة.

- ح -

بَطَلٌ مِنّا مات شهيداً:
هوذا،
نستصفي أرضاً
ونوسّدهُ فيها
في أخدودٍ، أو بين صخورٍ،
ونُهيل عليه تراباً
يتفتّت فيه - في ظلمات القبرْ.
لكنّ الرّومَ سُكارَى فَنٌّ
ما أعجبهم - يَسْتصفون لوجه البطلِ
الميّتِ منهم،
وَجْهَ الصّخْر، -
ما قولك فينا، ما قولك فيهم
يا هذا الدّهرْ؟

* هل هذا الخارج ضوءٌ؟
والدّاخل، كيف يكون، وكيف
يحولُ، وكيف يقومْ
إن مات الرّومْ؟

٢٠٨ هـ.

ـ ٥٥ ـ

سَنَةٌ قاحِلهْ
لا تُسجَّلُ في دَفْترٍ،ـ
أَلحقولُ وأسماء حُصّادِهَا،
وأسماء من حصدوهم ـ
كلّها نافِلهْ.

ـ د ـ

أَلحديدُ ـ حديدُ الزّمانِ،
يَقُدّ الصّخورَ، ولكن
تأكلُ النّارُ هذا الحديدَ، وتَنْطفىء النّارُ في الماء، والماء يعلو
في السّحاب، السّحاب تمزّقهُ
الرّيحُ. مَزّقْتُ ظنّي
وَوَشوشْتُ نفسي:
سَمَكٌ خارج الماء ـ هذا رِهاني
لا لِأَرْبَحَ، لكن لأَلْهُو
ولأسخرَ مِن ذلك المكانِ،
وهذا الزّمانِ.

* الخيولُ الخيولْ
وَرَقٌ يتطايَرُ بين أكفّ السُّهولْ.

٢٠٩ هـ.

ـ ٥٦ ـ

سنةٌ قاتِلَهْ

ليس فيها سوى الأكل،

والآلةِ الآكِلهْ.

ـ هـ ـ

هُزِمَ العسكرُ، انتصرَ العسكَرُ:

خَبَرٌ عابِسٌ

خبَرٌ ضاحِكٌ.

والفضاءُ مُكِبٌّ على شمسهِ

وعلى نفسهِ،

لا يُحسُّ بما نُخْبِرُ

ويُتَمْتِمُ دونَ اكتراثٍ:

بَشَرٌ، ـ غابِرٌ يتعالَى،

وغَدٌ يَصغرُ.

* بشَرٌ منذورونَ ليوم السّاعَهْ

في محراب الطّاعَهْ.

٢١٠ هـ.

- ٥٧ -

- أ -

أَمْسكوا بهم[١]

أَحْضروهم إليهِ[٢].

صُلبوا

بعد أن قُطِّعت

رؤوسُهمُ الأربَعهْ.

والخليفة[٣] كان اختفى

تحت بُرْقع أُنثى.

نبذتْهُ المدينةُ،

لم يَبْق شخصٌ معَهْ.

- ب -

أحضروهُ وحيداً[٤]

- «فوق مَنْ أذنبوا أنتَ.

عَفْوكَ فضْلٌ وعقابُكَ حَقٌّ».

- و -

مَوْزار تنامُ كمنبجَ:

عَصْفُ رمادٍ

يَهْذِي، ويَروحُ ويغدو

في خَدّيْها.

رَمْلٌ في إحدى عينيها

شَوْكٌ في الأخرى،

والأيّام قيودٌ بين يدَيْها.

* بلَدٌ لا يتغيّر فيه إلاّ القَبْرُ، تُراهُ
بلدٌ مسبوقٌ دوماً،
بِحُطام المَعْنى؟

(١) الأشخاص الذين كانوا يسعون في البيعة لإبراهيم بن المهدي. وهم أربعة: إبراهيم بن عائشة، محمد بن إبراهيم الأفريقي، مالك بن شاهين، فرج البغواري.

(٢) الإشارة إلى الخليفة المأمون.

(٣) المقصود هنا هو إبراهيم بن المهدي.

(٤) الإشارة إلى إبراهيم بن المهدي. والكلام له، مخاطباً الخليفة المأمون.

٢١٠ هـ.

- «بل منحتُكَ عفوي»[1].

- «وعفوتَ عَمّن لم يكن عن مثلِهِ
عَفْوٌ، ولم يشفع إليك بشافعِ
إلاّ العلوّ عن العقوبة، بعدما
ظفرت يداكَ بمستكينٍ خاضعِ
ما إن عصيتُكَ والغواة تقودني
أسبابُها، إلاّ بِنِيّة طائعِ
رَدَّ الحياةَ إليّ، بعد ذهابها
ورَعُ الإمام القادرِ المتواضعِ»[2].

- ز -

تَلُّ بِطريقَ، آمِدُ، جَيْحانُ
جسْرٌ إلى الرُّوم،
والرّومُ أحجارهُ -
نتخاطَبُ، نَلْغُو:
إنّها سَكْرَةُ الأَلْسِنَهْ
تجعَلُ القَشَّ وَرْداً
والحجارَ خيولاً
وتوابعَ،
في هذه الأمكنهْ.

* مدنٌ تقول لِربّها: بِكَ نَستعينْ
هذا جزاء الكافرين،
يُزْجَوْن من نارٍ لنارِ
لا شيء يعصمهم، وليس
لهم سبيلٌ للفرارِ.

(١) الكلام للمأمون.

(٢) الأبيات لإبراهيم بن المهدي نفسه. وكان، كما هو معروف، شاعراً.

٢١٠ هـ.

- ج -

أهلُ قمّ يثورون، قالوا:

لا خَراجٌ،

وكان كبيراً.

حاربوهم،

هدموا سورَ قمٍّ، أَذلُّوهمُ

وزادوا الخراجَ عليهم[١].

- د -

جيش عُبيد اللّهِ يُبادُ[٢]

ومصرُ تعودُ، وترقدُ

بين يَدَيْ بغدادِ.

- ح -

لِبقايا مَلَطْيةَ جسْمٌ حجَرْ

غيرَ أنّ الرّمادَ مِهادٌ لها

والتآكُلَ ميثاقُها.

وتدبُّ وتنهض في مَوْتِها:

موتُها واحِدٌ،

والغبارُ الصُّوَرْ.

* أخذتْهُ لغات السّلاح وأصواتُها:
أَلصّفائِح مثل الصّحائفِ،
والتُّرْسُ طِرْسٌ.

(١) أُخِذَ من أهلها «سبعة آلاف ألف درهم، بعد أن كانوا يتظلّمون مِن أَلْفي ألف درهم».

(٢) عبيد اللّه بن السّريّ، الذي كان متمرّداً في مصر. وعبد اللّه بن طاهر هو الذي تغلّب عليه وأبادَ جيشه.

٢١١ هـ.

- ٥٨ -

نَادُوا[١]:

«بَرِئت ذمّتُنا

مِمَّن يذكرهُ»[٢] بالخيرِ، ومِمّن قالَ:

أرَاهُ

أفْضَلَ من أيٍّ

مِن أصحابِ رسول اللّٰه».

(١) بأمرٍ من الخليفة المأمون.

(٢) الإشارة إلى الخليفة معاوية.

- ط -

دلَوكُ جَحيمٌ فارِهٌ، لَونُ دُورِها
سخَامٌ، ولونُ السّاكنين تُرابُ
تفرّ الطّيورُ العابراتُ مِن اسْمها
ويَجْفَلُ منها في الفضاء سَحابُ
حصونُ قتالٍ كلّ تَسْآلِها دَمٌ
وليس لها غير السّيوف جوابُ.

* أَلقلاع القِلاعْ
تتخاصرُ حول البيوت، وحولَ الحدود، ولكن لم تزد قادة الجند ألا فراغاً،
وإلاّ ضياعْ.

٢١٢ هـ.

- ٥٩ -

قال المأمون بخلق القرآنِ، وأعلنَ:

«بَعْدَ محمّدَ،

خيرُ النّاسِ عَليٌّ»[1].

- ي -

ثوبُ هذا النّهار طويلٌ

وأذيالهُ تتمزّقُ:

لا بُدّ من آخرٍ

على قَدّهِ، -

أَلخنادِقُ أَزْرارهُ

والحِرابُ الخيوطُ

وأكمامهُ رِماحٌ.

* لا يعودُ من الحرب إلاّ إلى الحَرْبِ:

ربُّ الأفولْ

ساخِطٌ دائماً - مرّةً

تتقطع في حربه الجسومُ، مراراً

تتقطعُ فيها العقولْ.

(١) قال ابن كثير: «في ربيع الأوّل، أظهر المأمون بدعتين فظيعتين، إحداهما أطمُّ من الأخرى، وهي القول بخلق القرآن. والثانية تفضيل عليّ ابن أبي طالب على الناس، بعد رسول اللّه (صلعم). وقد أخطأ في كلّ منهما خطأً كبيراً فاحشاً. وأثِم إثْماً عظيماً».

(١) علي بن أبي طالب.

٢١٣ هـ.

ـ ٦٠ ـ

سنةٌ، كلّ لسانٍ فيها
يَهْذي
ويكرّر قولَ عليٍّ[١]:
«اللّهُمَّ أَرِحْهُمْ مني
وأرحني مِنهم».

ـ ك ـ

عِنْدَ باب الكنيسة، قَتْلَى
والبكاءُ على وَجْهِها غطاءٌ.
جَرَسٌ مَيْتٌ
مَلائِكُ يَسْتَسْلِمونَ إلى صَمْتِهِ.

خُوَذٌ وبقايا سيوفٍ
تتعانَقُ في كنَفِ الموتِ،
والرّيح تلهو
وتجرّر أذيالَها.

* وساده الجرح في ضيقٍ وفي سَعةٍ
وفي ضمادٍ من الوسواسِ والأرَقِ
يجرّ أعضاءه في كلّ زاويةٍ
كأنه ورَقٌ يشكو إلى وَرَقِ.

٢١٤ هـ.

- ٦١ -

- أ -

بعد أَنْ علّقوهُ[1]،
أَشعلوا النّارَ مِن تحتهِ.

- ب -

بابَك الخرّميُّ، يقاتِلُ -
يقتلُ ابْنَ حميدٍ[2].

- ل -

بين طِفْلٍ يَجيءُ ليسألَ عن أبويهِ
عِنْدَ جارٍ لهم، وطِفْلٍ
يحمل الماءَ كي يَسْقيَ العابرينَ،
رجالٌ
ونساءٌ
يجرّون أَغْلالَهم
في دورب الشّقاءْ
وتُرَفْرفُ مِن فوقهم رايَةٌ
تتمزّق فيها السّماءُ وَيَقْتتلُ الأنبياءْ.

* تتلعثم في صدرهِ
لغةٌ مرّةٌ حبيسَهْ
تتكشّفُ أسرارُها
للعذاب الذي يتخثّر في قُبَّةِ
الكنيسَهْ.

(١) الإشارة إلى عبد اللّه بن عبد الحكم.

(٢) قائد جيش المأمون، محمد بن حميد الطوسي.

٢١٥ هـ.

- ٦٢ -

- أ -

«نَهْبٌ للأموال،
وسَفْكُ دماءٍ:
تلك خيانَةُ عَهْدٍ
والقَتْلُ عِقابٌ»[1].

- ب -

«سَاوَوْا
بين اللّه وبين القرآنْ:
أهلُ جَهالَهْ
أهلُ ضلالَهْ -
لا عَقْلَ لديهم، لا بُرهانْ»[2].

(١) الكلام للمأمون، آمراً بقتل ابنَيْ هشام: عليّاً، وحسيناً، لسوء سيرتهما «قتل الرّجال، وأخذ الأموال».

(٢) الكلام للخليفة المأمون، واصفاً الأشخاص الذين يقولون بأن القرآن غير مخلوق.

- م -

ألخيولُ تؤاخي السّهامَ،
السّهامُ تُفارق أقواسَها
في غبارٍ يلفّ المدائنَ -
أَبراجها وحُرّاسَها.
- أَيْنَ نَمضي، ومَنْ سنقاتِلُ؟
- غرباً،
ونقاتل مَن ليس مِنّا.

تسمع الشّمس، تَحنو وتقرع، حُزناً
على الأرضِ، أجراسَها.

* زمَنٌ مِن خِرافٍ
وسكاكينَ، والكون كالخيط في إبرةٍ -
فاتقاً، راتقاً.

٢١٦ هـ.

ـ ٦٣ ـ

سنةٌ ـ كلّ أيّامها
شهواتٌ،
أَلنَّواحُ سريرٌ لها،
والجِراحُ لِقاحٌ.

ـ ن ـ

نَخْلَةٌ ـ نُقَطٌ من دَمٍ
تَتغلْغلُ في جَذْعِها.
جذعُها ـ
لم يكن مرّةً فارساً
لم يقلْ مرّةً
إنّ للحربِ نَخْلاً
وجَنائنَ منِ كلّ طيبِ.

ويُخيَّلُ أنّ يَدَ الشّمس ضَنّتْ
عليه بمنديلها.

* ما أَعْجَبَهُ ـ
لا يَسْتَيْقظُ إلاّ في طَبل الحربْ
ضِدّ الشّرْقِ وضِدَّ الغربْ.

٢١٧ هـ.

- ٦٤ -

- أ -

حكمُهُ[1] لا يُطاقُ، -

كانَ، ظلماً وبغْياً،

يقتلُ النّاسَ، أو يجمع المالَ منهم.

قتلوهُ، جزاءً

رَفَعُوا رأسَهُ على رأسِ رُمْحٍ،

وطافوا بهِ في العِراقْ.

- ب -

تمجيداً،

لِلعقل وحكم العَقْلِ، سأدعو للقولِ جهاراً:

«لا أزليٌّ، لا أبديٌّ

إلاّ اللّه: القرآنُ كمثل العالم، مخلوقٌ، والإنسانُ مريد حرٌّ».

- س -

لا أَرى

غيرَ تلك الجسوم التي تتزاحَمُ أعناقُها

وتُناحِرُ كي تُنْحرَا.

لا أرَى

غيرَ ما تُعلنُ السّيوفُ،

تُرانيَ أشكو،

أم الخوفُ يجتاحني؟

أَتُرانيَ في حيرةٍ؟ ولكن،

مَن يؤكّد أَنّيَ أوتِرُ ألاّ أشاركَ

في الحرْبِ،

أَلاّ أرَى؟

* أمشي، أعانق صخراً أشتهي نَفَقا
ذئبٌ أنا شِبْهُ مَيْتٍ، يشتهي دَمَهُ
خبزاً، ويشرب وَحْلَ اللّهِ والعلقَا.

(١) الإشارة إلى عليّ بن هشام، عامل المأمون على أذربيجان. واشير سابقاً إلى أمر المأمون بقتله مع أخيه، لطغيانه وظلمه.

(٢) الكلام للمأمون داعياً الناس إلى القول بخلق القرآن.

٢١٨ هـ.

- ٦٥ -

- أ -

حَزّوا الرأسَ،
وطافوا الأَسْواقَ بِهِ[1].
قال ابْنُ تَمامٍ[2]:
«شاهدتُ عياناً جُثّتَهُ -
كلبٌ أبيضُ يحرسُها،
يمنع كلّ كلاب الحَيّ
أن تدنوَ مِنْهَا!».
وأضَافَ سواهُ:
«كلَّ مساءٍ
كنتُ أشاهِدُ أنواراً
كقناديلٍ
تتدلّى فوقَهْ».

- ع -

لُجَّةٌ مِن أَرَقْ
أتقلّب فيها، وأَسْتَنْفِرُ الصّباحَ،
وأُوهِمُ أنّيَ فيه ومنهُ، وأعرفُ:
لا شيءَ حوليَ غيرُ الدّماءِ،
وأعرفُ:
لا شيءَ في مَشْرِقِ الشّمسِ،
إلا الغَسَقْ.

* بعضنا صادِقٌ
بعضنا كاذبٌ، ولكن
صادقٌ كاذِبٌ معاً كلّ صَمْتٍ.

(١) رأس عبّاس الفارسي، الذي كان من أئمّةِ العلم بالحديث في أفريقية. قتله الأمير زياد اللّه بن الأغلب التميمي، وأمرَ بالطّواف برأسه في أسواق القيروان.

(٢) شخصٌ من أصحاب عبّاس الفارسي، اسمه صَبرُة، وكان مولى لتميم بن تمام.

٢١٨ هـ.

ـ ب ـ

ماتَ المأمونُ:
اختارَ العقلَ،
ورَدّ النّقْلَ،
وكان يحاورُ مَن سَمّوهُ
بـالـزّنـديـقِ، وكـان يُـفـضّـل أن يُصغي،
في كلّ خلافٍ، للفكرِ ـ
يقول بنور الفِكْرْ
قلقَ الإنسانِ،
ومعنى الكونِ،
وسِرّ الدّهْر.

ـ ف ـ

كلَّ يومٍ، قبيلَ الغروبِ،
تَجيءُ إلى المدفن القريبِ إلى بيتها،
تتفقَّد أبناءَها وأحفادَها،
قلبها في يَدٍ وعَصاها
في يَدٍ،
وتُتَمتِمُ:
يا موتُ خذني إليهمْ!

* مُمْسِكاً بيدِ الشمس، كان الصّباحْ
يتنقّلُ في حيِّنا
والمكانُ على صدرهِ غابَةٌ مِن رماحْ.

٢١٩ هـ.

- ٦٦ -

- أ -

ثارَ[1] في الطّالقانِ،
تَعثّرَ، خابَ، انكسَرْ
حبسوهُ -
فَرَّ مِن حبسهِ.
كيف؟ أين اختفى؟
لا أَثَرْ.

- ص -

سأقولُ لهذا الذّئب: تَجيء كريماً
وتموتُ كريماً.
سأقول لنفسي
لم أقتلْ أحداً
لم أهربْ
لم أسرق
بيت المالْ
وأكرّر قولي:
ألطّاعَةُ للمولى
لخليفتهِ، ولعمّال خليفتهِ
ولِعُمّال العُمَّالْ.

* حربٌ، -
تَهْزَأُ مِن قَتْلاها
مِمن ينتصرونَ ومِمّن هُزِموا.

(١) الإشارة إلى محمد بن القاسم بن عمر، الذي ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب. وقد هرب من حبسه واختفى.

٢١٩ هـ.

ـ ب ـ

ثورةُ الزّطّ تَطغى.

حاصروهم،

أبادوهم[1]،

ضَربوا كلَّ أعناقِ أَسْراهم.

بَعثوا بالرؤوس إلى المُعْتَصِمْ:

إنْتَهِجْ أيها السيّد

المتربّعُ في عرشِهِ،

وَابتسِمْ.

(١) قبل قُتِل ثلاثمئة، وأُسِر خمسمئة. ودامت ثورة الزّطّ تسعة أشهر. (راجع الإشارة السّابقة إليهم).

ـ ق ـ

حربٌ ـ جَدَلٌ دامٍ

بين المَذْهَبِ والمذهَبْ:

«غُلب الرّومُ»،

«الغالِبُ، بعد غدٍ، مغلوبٌ»،

قولٌ يَنْسَخُ قولاً

في لغةٍ

يَسْتَنْسِخُها وَيُفْتِّقها، ويُشَقِّقها

داءٌ، ـ

أَنّى، ومتى، وإلامَ

وكيف سَيُغْلَبْ؟

* في آلسِ قمرٌ يحيا بلا حرسِ
وحوله النّاس والأوهام تشتجِرُ
ليلى ومريم شعرٌ في دفاترهِ
وفي سناه يؤاخي الموجةَ الشَّرَرُ.

٢١٩ هـ.

- ج -

الرّجالُ، النّساءُ،
وصِبيانُهنَّ حَصادْ[1]:
وأُحسُّ كأنّيَ أُصغي
للمغنّين والشعراءِ،
وأصحابِهِمْ:
«يَادمَ الخُرّميّهْ
كَتَبَتْكَ الغيوم على وجهها
لِلرّياح، تَحِيَّهْ».

- ر -

وقفَ الموتُ في باب كوخٍ
على بابِ منبج، مُسْتَقْرِئاً
حامِلاً كأسَهُ ـ
يَشْرَبُ الأرضَ، أيّامَها المانويّةَ،
أغصانَها المائلَهْ،
وعلى كتفيهِ
مدنٌ راحلهْ.

* حقل موتى، كواسِرُ من كلّ فَجٍّ
بُرَكٌ من دم: مائدَهْ
إنها الأَرْضُ ـ مخنوقةً، هامِدَهْ!

(١) الإشارة إلى قتلى من الخرميّة، بلغ عددهم، كما يروي المؤرخون، مئةَ ألف، سوى النساء والصّبيان.

٢٢٠ هـ.

- ٦٧ -

- أ -

أَشْجارٌ قُطعت
وزروعٌ بادَتْ.
ورؤوسُ القَتْلى -
ما أكثرها
ما أَشْجَى مَنْظَرَها.
لم يقدرْ مَيْسرَةٌ[1]
أن يَتحمَّلَ: زُلْزِلَ،
ماتَ حَسيراً.

- ش -

ذَهَبَ الفارسُ
ذهبت أمّهُ
تسأل الرّيحَ والشّمسَ عنه
في الحقول، وبين الأَزَقّةِ سِرًّا.

لم يُجِبْها، ولم يعرف السرَّ، إلاّ
غُصُنٌ يابِسُ.

* لا صوتَ حولكَ، لا صَدَى، -
صحراءُ مِن ورَقٍ وريحِ
لِمن اهتدىَ ولمن هدَى.

(١) الإشارة إلى ما حدث في حصار عبد الرحمٰن بن الحكم لطليطلة، في هذه السنة ٢٢٠ هـ. وميسرة هو القائد المعروف بـ «فتى أبي أيوب». مات، بعد أيام قليلة من الحصار، حسرةً وغَمّاً، من رؤية رؤوسِ القَتلى.

٢٢٠ هـ.

- ب -

القضاءُ على ثَورة الزُّطّ:
أَجْلوهُمُ بعيداً
عن أماكن سُكناهمُ.
وضعوهم
قريباً من الرُّوم،
جَاؤوا إليهم،
وأبادوهمُ - واحداً واحداً[1].

- ت -

تاريخ حُروبٍ: طرْسٌ
كتبَ الآباءُ عليهِ
بدَم الأبناءُ -
كتبَ الأبناء عليهِ
بدمِ الآباءُ
هَوْلَ الأَشياءُ.

أيكونُ النُّورُ طريقاً
نحو ظلامٍ آخَرَ أَدْهى
وأمرَّ حجاباً؟

* تاريخٌ شيطانٌ
قذفته أحشاء البحرْ
الأوراقُ جِرارٌ، والخَطّ دخانٌ،
والْحِبر السِّحْر.

(١) كانوا، كما يروي المؤرخون، سبعةَ وعشرينَ ألفاً، وقيل ثلاثين ألفاً، من النّساء والصّبيان.

٢٢١ هـ.

ـ ٦٨ ـ

«قيل لي[1] في المنامِ:
«إذا لم تُحاربْ
بَابكاً، فسآمرُ هذي الجبالَ
بِرَجْمِكَ»، ـ
يا رَبُّ، يَسّرْ!
فَتحتُ جُفوني. مَرَّ وقْتٌ
قصيرٌ ـ هوذا بابَكٌ أسيرٌ.
ـ قرّبوهُ.
ـ أين سيّافهُ؟
ـ تَقدَّمْ، خذهُ، واقطعْ يديهِ، ورجليهِ.
ـ أحسنتَ. والآنَ لِلذّبحِ. شُقّوا

(١) الكلام للخليفة المعتصم. وقد استمرّ بابك الخرميّ في تمرّده عشرين سنة.
ويقول المؤرخون إنه قتل مئتين وخمساً وعشرين ألفاً، وأسر خلقاً لا يُحصون.
ويقولون إن ثلاثةَ آلاف وثلاثمئة شخص أسروا معه، عندما قتل. وأسم أخيه عبد الله.
وقيل إنّ بابك طلبَ أن يشربَ الخمر، قبيل مقتله.

ـ ث ـ

كلّنا كان يُوغِلُ في مَدْحهِ:
«يَمتطي، لا الخيولَ ولكن
يَمْتَطي هَمَّهُ
لاعِنانٌ له غير أعناقِهِمْ.
سيفه يتحدّث عنه
والرؤوس له كلماتٌ».

كلّنا كان يَهْذي.

* جَصٌّ فوق جبين الوقتِ وطينٌ
والحوضُ كبيرٌ
والأيّام جوارٍ فيه:
تاريخٌ يكتب في تَنّورِ.

٢٢٢ هـ.

- خ -

لِلدّمستقِ ظِلٌ
يتجَوّل بين القلاعِ، ويُوغِل فينا:
أَتُراه دليلٌ ورمزٌ
لِشهوتِنا الماكره
كي نحرّر أيّامَنا
مِن مراراتِها وتباريحها؟

إهْدَئي، يا ابْنَةَ اللّيلِ،
أيّتها البومة السّاخِرهْ!

* ما أمرَّ الوصولَ إلى الشّيء - في صمتهِ وفي سِرّه،
وما أكرَمَهْ.
أَجْملُ النّور ما جاءَ مِن جهَةٍ مُعْتمهْ.

(١) الإشارة إلى إبراهيم بن موسى الكاظم، وقد قتل في اليمن خلقاً كثيراً.

بَطْنَهُ. أرسلوا رأسَهُ
لخراسانَ، طوفوا بهِ. واصلبوا
ها هُنا جسمَهُ.
وافعلوا بأخيه، مِثْلَهُ
مِثْلَهُ تماماً».

- ٦٩ -

بَطّاشٌ جَبّاز[١]،
كان، لِكثرة قتلاهُ،
يُدعَى الجَزّار.

٢٢٣ هـ.

ـ ٧٠ ـ

ـ أ ـ

قالوا:

«بعضُ الأمراءِ ـ

العبّاسُ بن المأمونِ،

وبعضٌ مِن إخوتِهِ،

رفضوا أن يصدر منهم صوتٌ:

وامعتصماهْ!

أو ما يُشبهُهُ.

قُتِلوا[1].

لُعِنَ العبّاسُ، وقالوا:

سَمّوهُ لَعيناً.

(١) قتلهم الخليفة المعتصم.

ـ ذ ـ

أصدقائيَ، أبناءُ قومي

سقطوا، يفرشونَ الغبارَ

ويلتحفون العراءْ.

لا أريدُ البكاءَ، ولكن

كيف أبقى بعيداً؟

كيف لا تتدفّق نفسي

في تدفّقِ هذي الدّماءْ؟

* طرقٌ ـ لا خضراءُ ولا سوداء
ولا بيضاءْ
نحو لغاتٍ
لا أفعالٌ لا أسماءٌ لا أشياءْ.

٢٢٣ هـ.

- ب -

في الأحياءِ، النّاس سُكارىَ
يتغنّى كلٌّ منهم:
ما شَأني بالسُّلْطانِ -
أعنّي، يا أَللّٰهْ،
اتركْني في هذا القَبْوِ، بعيداً
عنهُ:
أَحْيا حُرّاً
لِلشّعرِ،
لِوجه الشّعر،
وَوَجْهِ نبيذٍ عالٍ،
وَاأَبتاهْ!

- ض -

في الزّقاقِ تجمّعْنَ يبكين، يرقصْنَ:
هذا
عرُسُ العائدينْ.
أَلنّوافذ شمسٌ لِمن كان حيّاً
والغبارُ ستارٌ على الميّتينْ.

رجلٌ وامرأَهْ
يومئانِ وحيدين في آخر الزّقاقِ
إلى نجمةٍ مُطفأَهْ.

* روميّاتٌ
بثيابٍ من رُمّانِ
والطرقات قلائد وَرْدٍ:
الأحمر، هذا اليومَ، أميرٌ.

٢٢٧ هـ.

- ٧١ -

في خراسانَ،
لا شَهْرزَادْ، ولا شَهرياز
في خراسانَ،
يخرجُ شخصٌ
يَرجّ مداميكها،
إسمهُ المازَياز.

- ظ -

إنْفتحْ، أيها اللّيْلُ، لا مِثْلَ قَبْرٍ
بل كمثل السّريرِ،
ولا بأسَ أن ترقدَ الحربُ حول الوسادةِ،
كي يتوحّدَ ماءُ السّديم
وماء الوجودْ

وابْتعد، لا تَعُدْ
ألجمالُ متى سالَ في نهر أشواقِنا،
لا يعودْ.

* عندما تشهدون القَمرْ
وَشْوشوا البحرَ غطّوا سريرَ مناماتهِ
بشراع السّفَرْ.

٢٢٥ هـ.

- ٧٢ -

أُسِرَ المازيارُ، وقالوا:
ماتَ تَحت السّياطِ، وقالوا:
صلبوهُ على جِسر بغدادَ،
أَصْحابُه
وأَتْباعهُ -
قُتِل الأكرمونَ الإعزّاءُ مِنهم.

-غ-

لا تقلْ، أيّها الشرق، هيّأت نفسي
وضبطتُ مواعيدَها.
لا تقلْ، أيّها الغربُ، وَجّهت وجهي
لِلّقاءِ - الطّريقُ هنا
وهناكَ، امحّاءُ.

والهواءُ يقول الهواءُ
لم يحن بعد يومُ اللّقاءُ.

* وجه زيتونةٍ
ضاربٌ في تخوم الشّفَقْ، -
أترانيَ أقسم من أوّلٍ:
والضّحى، لالقاءٌ، ولا مُفترَقْ!

هوامش



لا تعذلِ المشتاقَ في أشواقهِ
حّتى يكونَ حشاكَ في أحشائهِ،
إن القتيلَ، مُضرَّجاً بدموعهِ،
مِثلُ القتيلِ، مُضرَّجاً بدمائهِ.

المتنبي

إسحاق الموصلي

المغني المشهور، مات سنة ٢٣٥ هـ.

ليت لي أن أغنّي
أن أرى زَمني يَتغَنَّى
بالنّواسيِّ، في قلبِ هذي المدينَهْ
كي يؤاسيَ أوجاعَها،
ويؤالفَ ما بين أحلامِها وخُطاهَا
وَيُفَتِّقَ أسرارَها.

ليت لي أن أديرَ عليها
كأسَ أوجاعيَ الدّفينَهْ.

القاضي أحمد بن أبي دؤاد

«كان داعيةً إلى القول بخلق القرآن. أخذ ذلك عن بِشر المرّيسي، عن الجهم بن صفوان عن الجعد بن درهم عن أبان بن سمعان، عن طالوت ابن أخت لبيد الأعصم و«أخذه طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحرَ النبيّ، وكان يقول بخلق التوراة». مات سنة ٢٤٠ هـ.

نجمةٌ فوقنا، سألتْنا:

كيف تسمو حياةٌ

يتألّه فيها الكلام، ويُصبح أرفعَ منها وأَغْلى؟

نجمةٌ فوقَنا

تتقفّى خطانا،

تتقرّب، تلمس أكتافَنا

تتناءَى، تعود ـ تريد الإقامة ما بيننا.

أَتُرانا الفضاءُ الأَحَبُّ إليها؟

أحمد بن حنبل

توفي سنة ٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م أمضى في السّجن ثمانية وعشرين شهراً، لامتناعه عن القول بخلق القرآن.

بين السّجن وقول مقالٍ لا يرتاحُ إليهِ،
آثرَ ليلَ السّجْنِ: الفكرةُ، حيناً، جرحٌ
حيناً سكّينٌ،
حيناً ضوءٌ.

ألهذا نَفْنى
كي تتجدّد نارُ المعنى؟

الحارث المحاسبيّ

مات سنة ٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م. لم يُصلّ عليه إلاّ أربعة أشخاص. هجره الإمام أحمد بن حنبل، وهجرته العامّة معه، لأنه اهتمّ بعلم الكلام.

- أ -

لم يُصلِّ عليه سوى أَربَعهْ.

- ب -

هرباً من رعَاعٍ
لا يرونَ طريقاً إلى الدّين إلاّ التعصّبَ
والقتل، عاش وحيداً،
وماتَ وحيداً.

- ج -

قال: «لا أعلَمُ» -
و «توهَّمَ» /
أعمقُ ما يعرف المرءُ مُسْتَوهَمُ.

إبن كُريب

محمد بن العلاء ابن كريب الهمدانيّ. أوصى أن تدفن معه كتبه، فدفنت. مات سنة ٢٤٣ هـ.

عند موتي، احْملوني كأني كتابٌ
وضعوا كتبي عند رأسي،
وادفنونا معاً.

لغةُ الشيء أَنْقى وأَبْقى
والتّعاليم لَغْوٌ.

ابن منيع

يقال إنه من «أقران ابن حنبل في العلم». «بيع جميع ما يملك بعد موته بأربعةٍ وعشرين درهماً». مات سنة ٢٤٤ هـ.

بكت الأرضُ على جثمانهِ
وأمالَتْ كتفيها صوبَهُ
وَشْوشَتْ أعشَابَها:
«كان مِثْلي
لم يكن يملكُ إلاّ ثوْبَهُ».

ابن السكّيت

قتل بأمر من المتوكّل، سنة ٢٤٥ هـ. أمرَ غلمانه من الأتراك، فداسوا بطنه وحمل إلى داره حيث مات. والسبب، كما قيل، هو أنه فضّل الحسن والحسين على ابني المتوكّل اللذين كان مؤدّباً لهما.

شمسُ هذا الصّباح تدقّ على البابِ. أنهَضُ،
تأخذ جسميَ من كتفيهِ، وتركضُ. مَهْلاً،
قلتُ. هذا شارعٌ ـ غابَةٌ تُصلّي.
خذيني إلى شارعٍ آخرٍ
أتعلّم رفضيَ فيه ـ
صِرْتُ أشتاقُ أن ألتقي غابةً ثانيهْ
وأرى بين أشجارها
شجراً كافِراً
وأرى بين أعشابها
نبتةً زانيهْ.

ذو النون المصري

مات سنة ٢٤٦ هـ. أو ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م. سجن في بغداد بتهمة الزندقة. وأطلق المتوكل سراحه. كان يلقب بـ «قطب الوقت». ومن أبرز تلاميذه أبو يزيد البسطامي.

(١) حوار بين ذي النون وأخيه.

ـ أ ـ

ـ قالوا[١]: عِلمكَ لم يتكلّم فيه سَلَفٌ. أَحدثتَ.
وقالوا: زنديقٌ أنتَ، ومبتدعٌ.
ـ «ومالي سوى الإطراقِ والصّمت حيلةٌ
ووضعيَ كفّي تحت خدّي، وتذكاري»

ـ ب ـ

ـ تُبْتَ؟ وكيفَ؟ لماذا؟
ـ في الصَّحْراءْ.
نمتُ، فتحتُ جفوني:
قبّرةٌ عمياءْ
سقطت مِن وِكْرٍ، ـ
الأرض انشقّت، خرجت فيها سُكْرُجتانِ:
السّمْسمُ في واحدةٍ، في الأخرى ماءْ.
فأكلتُ، شربْتُ، وقلتُ:
حسبي الآنَ، وتُبْتُ.
ولزمتُ البابَ إلى أن قيل: قُبِلْتُ.

لمّا ماتَ، اصْطُفّتْ
لِتُظَلّلَهُ،
أسرابُ طيورِ.

ديك الجنّ الحمصي

مات سنة ٢٤٧ هـ.

أحرقَ الحبَّ مِن نَشْوةٍ
أَحْرَقَ الحبَّ من حيرةٍ
أحرق الحبّ من شغف الظّنّ، من شَغَفِ الشكّ
في حبّه، واحترقْ.

أَتُراني أمثّل ما عاشَهُ ـ
أَنحني فوق ذاك التّراب الذي ضَمّها
وأوشوش قلبي: تقلَّبْ،
وَاصْطَحِبْ حلباً والمسافاتِ والأرضَ،
واهبطْ
في الغياهبِ، في جَمْر هذا الغَسَقْ.

عليّ بن الجهم

قُتل سنة ٢٤٩ هـ. حُبس ونُفي، وفي أواخر حياته عاش ماجناً عابثاً، زهداً بالعالم وسخرية منه.

قتله بعض الأعراب اللّصوص من كلب، فرب حلب. وكان في طريقه للمشاركة في الحرب ضد الرّوم، وهو في حوالى الستين من عمره. والبيتان الأخيران وُجدا معه على رقعةٍ حين نزعت ثيابه، بعد موته. يقول في إحدى قصائده: وأحكمه التّدريبُ حتّى كأنّه يُعاين من أسراره ما تَوهّما.

بيتُ جراحٍ يعيش في هلَعِ
ويَسْتضيف الجراحَ والهلعا
راحَ إلى الرّوم كي يحاربهم
لكنه في طريقه صُرعا
كأنّ تاريخ أرضه كتبٌ
يقرأ فيها الحِرابَ والوَدعَا
«وارحمتا للغريب في البلد النّازح
ماذا بنفسه صنعا؟
فارقَ أحبابَه، فما انتفعوا
بالعيش من بعدهِ، وما انتفعا».

الرّواية

V

الضّوء؟

لا يكشف من الأشياء إلاّ حجابها الأكثر قرباً تبقى الأشياء وراء حجبٍ لا يمزقها الضّوء

كان يردّد ذلك في نفسه فيما كانت القلعة تتزنّر بسياج من هباء البشر الذين ماتوا لكي يغلقوها أو الذين ماتوا لكي يفتحوها وفيما كان يخيّل إليه أنّ التّاريخ أوراق تتطاير في غبار يتطاير. وأخذت أحجار القلعة تنتظم في جوقة ـ كلّ حجرٍ صوت، وبدأت تُملي عليه، ـ

أ ـ بَشرٌ يملأون الأروقةَ والأقبيةَ بالكلام لكن دون أن ينطق أيٌّ منهم بأيّة كلمة.

ب ـ بَشَرٌ في مقام الصفر يجلسون تحت ظل الواحد.

ج ـ امرأة تتحدَّث مع نهديها.

د ـ زمَنٌ، ـ

قنديلٌ أسود يتدلّى من سقف الأبديّة.

هـ ـ كلاّ،

لا ليلك يُحرّر اليدين،

ولا نهارك يحرّك القدمين:

يكفيك، أيها الزّمن

أن تصلبَ جسد المكان.

و ـ النّردُ نفسه يشكّ في المصادفة.

ز ـ لم يكن أرباب القلعة عاجزين عن قتل مدنٍ بكامِلها، وكان كلّ منهم عاجزاً عن قراءة كتابٍ واحد.

ح ـ الفجرُ تكرارٌ

لكنّه، دائماً، بداية.

الفجرُ؟ هل كان القبو فجراً هو الآخر، في نظر الآمرين بعمارته ومهندسيه وبَنّائيه والسّاهرين عليه؟

«أمرَ بعمارته

مولانا السّلطان الملك الظاهر العالم العادل المجاهد المرابط المنصور المظفّر الغازي عماد الدنيا والدين أبو المظفر بن يوسف بن أيوب ناصر أمير المؤمنين».

وهل كان هذا القبو سعيداً إلى هذه الدّرجة؟

لم أكد أطرح هذا السؤال موشوشاً ضوءَ الشمس، حتى أخذني قبو آخر يبدو أنه أكثر سعادة، ـ

«أمرَ بعمارته

مولانا السّلطان الملك العزيز غياث الدّنيا والدّين ركن الإسلام والمسلمين نسل الملوك والسّلاطين خلّد اللّه ملكه».

فيما كان يخرج ملتفتاً إلى القلعة يودّعها، كانت تخرج من جدرانها التي ترقّعها خِرَق العصور أشباحٌ مدجّجة بالسّلاح تتنافَس على الأسلاب التي تركها المهزومون

غزوٌ داخل الغزو على الأكتاف رؤوسٌ تنتمي إلى أكتافٍ أخرى على النحور سواعد كانت تتحرّك فوق نحورٍ أخرى قطعان جامحة لا يروّضها إلا الذّهب ذبحٌ ورقص تحت سقفٍ واحد مأتمٌ وعرسٌ في لحظة واحدة.

وانظروا: يدبُّ المال في الشوارع كأنه النّمل والأيدي كلّها تسرق الأرض باسم السّماء أو تسرق الثانية باسم الأولى.

بلى، لا بدّ لمن يريد أن يدرس فيزياء المدينة، من أن يدرس أوّلاً كيمياء الشّهوات.

خارج القلعة،
شيخ يتوكأ على عُكّاز،
لِلعُكّاز رأس امرأة، وطرَفُهُ الأسفل دقيقٌ كرأس الحربة.

سوقٌ بسقفٍ مليءٍ بالثقوب تنزل منه أَشعة الشّمس في أشكال الدنانير سوق بجدران تزيّنها بسطٌ بدوية حمراء سوادء. حانوت عقاقير وأعشاب طبيّة ومراهم ومقوّيات ومشهيّات. شراب الرأس للحكمة شراب القلب للمحبّة طلاسم لأسافل الجسد وأعاليه حانوت بشكل محراب امرأة تسير فاتحة مظلة سوداءَ لوقاية بياضها من حرارة الشمس امرأة بلباس أسود يزيد وجهها بياضاً مسجدٌ يُرمَّم آخر يُبني مكتبة ـ لاكتب، بل أقلام ودفاتر.

بدأت الظلمة تطرد الشّمس أخذت تتربع على حافّة الأفق على الجدران والأبواب والنوافذ على أغصان الشجر والمآذن على رؤوس المارّة

خارج القلعة في المدينة القديمة يسير على ترابٍ سبقته إليه خطوات المتنبي. ربّما تعانق أثر خطواتهما

وغبارها. حوله من جميع الجهات غبارٌ آخر لا يراه لا يحسّ به إلاّ القلب

أخذه الشعور بالوحدة وهو في وسط الجموع شعر أن خطواته تتخاصم: بعضها يطارد بعضاً وبعضها ينفي بعضاً

آه كلاّ ولم يكن ذلك إلاّ توهّماً

كان يسير في مكانٍ آخر.

رأى في المدينة زاي هيكلاً مدوّراً بسبعة أبواب،

«للهيكل قبّة في أعلاها جوهرة أكبر من رأس الثّور تضيء ساحات الهيكل، ولا يدنو أحدٌ من الجوهرة إلا سقطَ ميتاً.

وفي الهيكل بئرٌ مثلّثة الرأس، متى أكبَّ الإنسان فوقها، تطوّح فيها إلى الأسافل على رأس البئر طوقٌ كُتب عليه:

«هذه بئرٌ تؤدّي إلى كتب الدّنيا وعلوم السّماء

وما كان في ما مضى من الدّهر

وما يكون في ما يأتي.

لا يصل إليها ويقتبس منها إلا من وَازَتْ قدرته

قدرتَنا، واتّصل علمه بعلمنا، وصارت حكمته كحكمتنا».

منذ أن يقع بصَر الإنسان على الهيكل،
يقع في نفسه جزَعٌ وحزنٌ واجتذابٌ وحنين.

وكان حاكم المدينة سين، حين لا يثق بوزرائه وعمّاله يسلّط على رعيّته ناراً تحكم
تأكل الظالم ولا تضرّ المظلوم
ومرّة رأى في ساحة قصره جماعةً رأى ناراً تخرج إليهم وتأكلهم ثم دنت منها جماعةٌ ثانية فأخذت النار ترجع إلى الوراء حتى انطفأت.
وقال أبجد:

رأيت في المدينة شين فقراءَ في أعناقهم وأيديهم أطواقٌ من الحديد، يتقدّمهم رجلٌ أسود رأيته يأخذ حطباً ويضرم فيه النّار ثم أخذوا جميعاً يرقصون في النّار أما هو فلبس قميصاً رقيقاً وأخذ يتقلّب في اللّهيب ويضربه بأكمامه صارت النار رماداً ولم يحترق القميص.»

*

ويوماً فوجئت المدينة شين

«أمر الحاكم أن ترفع الضرائب عن أهلها، وأن يتساوى فيها الغني والفقير قال لهم إذا سمع بإنسان مات جوعاً في شارع أوحيّ فسوف يحرقه لكن ذلك لم يدم.»

الذّكرى

V

المدينة فاء

كل شيء في المدينة فاء يقول لك:
«الأمس زائل، واليوم عابر، والغد متهم».

*

الفضاء في المدينة فاء،
بيوت يسكنها ضيوف غير منظورين. وكيفما نظرت، ترى مسرحاً ترصف عليه الرؤوس أدراجاً للصعود.

*

في المدينة فاء،
يُكسر الزمن كما يُكسر الجَوز.

*

في المدينة فاء،
تصاد اللانهاية بالراحات، وغبار الخطوات هو نفسه صياد الوقت.

*

قلما يسمع في المدينة فاء إلا ما يشبه هذا الهمس:
ـ «هل بطنه جِرابٌ لكي يُفْتَح؟»
ـ «هل جسده قمح لكي يُطْحَن؟».

*

يُخيّل، أحياناً، أنّ الإنسان في المدينة فاء أشبه بخيط طرفه الأول اللّهب الذي يخرج من فم الشيطان، وطرفه الثاني اللّهاث الذي يصعد من فم الملاك.

*

من أين لك، أيتها المدينة فاء،
أن يتحوّل رأسك إلى نرد، ونبضك إلى رمية نَرْد؟
من أين لك القدرة على الجلوس في حضن عشبة،
وعلى أَن تُجْلِسي بين يديك طائر الوقت؟
من أين لك أن تترجمي الريح؟

*

هو، في المدينة فاء، ليس هو
في رأسه تنزف رؤوس، وتحت لسانه تتسلّل ألسنة.
يخاف أن يُحيّي البحر. يخاف أن يشمّ وردةً. ويسأل دائماً:
ماذا أفعل بحياتي؟

*

ألم يكن يكفي ذلك الشاعر عبء الولادة في المدينة فاء،
حتى ينضاف كذلك عبء الموت فيها؟

*

عندما سيزور المدينة فاء مرّةً ثانية، (إن سمح العمر والوقت)،
سيصاحب غيوماً تحجبُ عنه الجِنّ.
سيقول لواحدةٍ: أظلّيني،
وسوف يأمر أخرى لتنظر هل غاض ماء الحبّ؟

المدينة صاد

هو، الحارس على الشمس، في المدينة صاد،
ذهنه كالهواء،
لا يصادف أيّة عقبة، كيفما فكر، وأينما اتجه.

*

هو، في المدينة صاد،
لا يكتفي بأن يخضع، بل يبحث أيضاً عن أَعذار تبرىء من يخضع له.

*

يخيل، غالباً، في المدينة صاد،
أن العالم كله مكان لكي يتساقط ورق الشجر، ولكي تلهوَ الريح.

*

لم يَسر مرة، في المدينة صاد،
إلا رأى الحلم يسير إلى جانبه، لكن مقيّداً.

*

لكي يعرف كيف يكتب عن المدينة صاد،
يفكر بغيرها.

*

قد يكون جسدك، في المدينة صاد، جنّةً
وتكون حياتك مع ذلك جحيماً.

*

ما لن تكونه أبداً،
هو الكيان الوحيد الذي يتاح لك، في المدينة صاد،
أن تحلم به،
وأن تعمل من أجله.

*

في المدينة صاد،
جسدك، حتى وهو في الظلمة، يكون في النور،
وذهنك، حتى وهو في النور، يكون في الظلمة.

*

كأنك، في المدينة صاد، لا تلتقي مع نفسك، إلا بقدر ما تَضيعُ عنها.

*

أقول، مع ذلك،
أحلم أن أحوِّل كل حجرٍ في المدينة صاد،
إلى إناء أضع فيه وردةً، كل يوم.

أقول، مع ذلك،

لو أن الساعات التي تعيشها المدينة صاد ملكٌ لي،
لَصَنَعْتُ من كل ساعةٍ كرسيّاً، وأجلستها عليه.

أقول، مع ذلك،
أتتلمذ على أطفال المدينة صاد، وأملأُ جسدي بغبار طلعها.

أقول، مع ذلك،
ينثرني الزمن بين يديها ذَرَّةً ذَرَّةً، يوماً يوماً، ساعةً ساعةً، ومع ذلك تسكت ولا تقول شيئاً.
إذن، ماذا يجدي، أيتها الريح، تَمايُلُ هذا الغصن؟
ماذا يجدي أن أقطف زهرة من بستان المعنى، وأضيفها إلى غابة الشكل؟

أقول، مع ذلك،
أودّعك الآن يا دوّار الشمس في المدينة صاد.
ماذا؟ تدور مع شمسي، وتتوّجني بنظراتك؟
عهداً،
سنظل صديقين في بستان المعنى.

المدينة قاف

«. . . انتقد ما شئت، كما تشاء. نعم، الماضي بالنسبة إليّ أفضل من الحاضر، وأجمل. وأعرف أن المدينة قاف تقودني إلى العدم. غير أنني مع ذلك، متضامن معها.

ثم، ما هذا الوجود الذي تقودك إليه المدن الأخرى؟»

(فقرة من آخر رسالة بعث بها كاتب من المدينة قاف إلى صديق له في مدينةٍ أخرى).

*

كل عصيان سياسة في المدينة قاف، حتى ولو عصيت قاعدة فنية. ذلك أن القاعدة ترويضٌ اجتماعي: طاعة واتباع، ورفضها يعني رفضاً للنظام، واستمرارٌ في البِدْعة والضّلال.

*

المدينة قاف مدينة من الأشياء،

لكن لا وجود فيها إلا للكلمات.

*

يدور الحوار في المدينة قاف بين طرفين: ما يراه الطرف الأول مربّعاً، يراه الطرف الثاني مستطيلاً. ويمضي كل منهما حياته في النضال من أجل إقناع الآخر بصحة رأيه.

إن كان عليك، إذن، أن تتكلّم، أيّها العابر، كما يتكلم الجميع، فما تكون الحاجة آنذاك إلى الكلام؟

*

مرّة، قال شاعر في جلسة مع أصدقائه في المدينة قاف:

«ليكن الفنُّ لذّةً كلذة الحب: لا يهدف ـ لا إلى إرضاء المجتمع، ولا إلى إزعاجه، لا إلى قبوله، ولا إلى رفضه...»، ـ منذ تلك الجلسة، لم يسمع أحدٌ شيئاً عنه.

*

هناك، في المدينة قاف، كتبٌ كثيرة يكتبها أصحابها بحرية، كما يُقال.

ـ ربما. لكن قراءتها لا تفتح أيّ أفقٍ للحرية.

*

«الفكر إما أنه الموج، أولا يكون إلا رَمْلاً»: منشور سرّي أتيح لي أن أقرأه في المدينة قاف.

*

مهما مشيت إلى الأمام في المدينة قاف، فإن الوراء يتقدّمك.

*

ليس الإنسان في المدينة قاف هو الذي يؤثِّر، بل الحدث ـ آتياً من «فوق» أو من «خارج». الإنسان وسيلة، وهو في أحسن الحالات، شاهِدٌ. يعيش في ظل الحدث، وتحته.

*

مات رجل في المدينة قاف، بعد أن كتب على ورقة كبيرة هذه الكلمة الغامضة عن أحد أصدقائه:

«يظنّ أن الغامض هو في ما لا يعرفه ولا يراه، وهذا ظنٌّ خاطىء.

إن كان الغامض يهمه، فعليه أن يبحث عنه في ما يعرفه، وفي ما يراه».

*

«لا يقدر الإنسان أن يمارس السياسة في المدينة قاف، لأنه لا يقدر أن يتحدث عنها: كيف يعمل الإنسان في ما لا يقدر أن يقوله؟

السياسة هي أولاً، قدرة على الكلام»، ـ

منشور سرّي أتيح لي أيضاً أن أقرأه، في زيارة أخيرة لهذه المدينة.

*

قال الطاغية في المدينة قاف لمهرِّجه:

ـ كمال الشعر هو الغاية التي أسعى إلى تحقيقها.

قال المهرِّج:

ـ الوسيلة الوحيدة إلى ذلك هي القضاء على الشعراء.

المدينة راء

الزمن في المدينة راء،
هو دائماً للذين يعيشون خارجه.

لا شيء، في اللغة التي تتكلمها المدينة راء، موجودٌ بقوّة التوهم، كذلك الشيء الذي تسميه الحرية.

*

الحب في المدينة راء؟

هو أن تدرس، مثلاً، أثر الطير في الفضاء، أو تأثير الشّجرة على الرّيح.

*

المدينة راء مرصوفةٌ بجماجم تسمى جنائن، وبأفخاذ تسمى أنهاراً.

*

جميع الكتب التي رأيتها في المدينة راء مليئة بالقبور. خيِّل ليّ، مرة، أن كل كلمة فيها ليست إلا قبراً أو شاهدة.

كأَنَّ الإنسان في هذه المدينة لا يحيا إلاّ ميتاً.

*

الفكرة في المدينة راء،
ناقة ترفض أن تحمل الرؤوس المقطوعة.

*

الضحيّة في المدينة راء،

هي نفسها القاضي والشاهد والجلاّد.

*

تتعذر رؤية المدينة راء،

إلاّ عنقاً نازفاً مشدوداً إلى قدميها.

هكذا تؤكد المدينة راء أن الانحناء هو أفضل سلم للصعود.

*

غرب، غروب، غبار:

كلمات تتخذ منها المدينة راء رموزاً،

ومن هذه الرموز تتخذ أبواباً ومفاتيح.

*

قانون الحياة اليومية في المدينة راء هو: إمّا أن تقتل الآخر، وإمّا أن يقتلك، ـ

لكن، أيتها الوردة، ماذا دهاك، وكيف وصلت إلى هنا، ومن أوصلك إلى فوهة هذا المدفع؟

*

كل صباح، في المدينة راء،

تمتلىء السماء بأصواتٍ ترتفع كمثل أعمدة لسجونٍ بنيت خصيصاً للأحلام والنساء.

*

الضحيّة في المدينة راء، هي دائماً الإنسان،
لكن من أجل أهداف غير إنسانية.

*

«ما يقوله السيف يكفي أن يفهمه الدم»:
تكرر المدينة راء، كل يوم، لكي تطمئن جلاديها.

*

ولدت المدينة راء ـ
في يدها اليمنى سكين.
وفي يدها اليسرى وسادة.

*

أينما رؤي دخان، يقال عادةً: لا دخان بلا نار،
إلا في المدينة راء ـ
ليست النار هي التي تصنع الدخان،
بل الغبار هو الذي يصنعه.

*

«لا تفكّر، لا تقرأ، ـ
بهذه الطريقة، وحدها، تستطيع أن تتغلب على الفكر الذي يعارضك، وأن تلغيه».
هكذا قالت المدينة راء.

V

أَذا الحَرْب قَدْ أَتْعَبْتَهَا، فَالْهُ ساعةً
لِيُغْمَد نَصْلٌ أو يُحَلَّ حِزامُ.

المتنبي

٢٢٦هـ.

- ٧٣ -

سُجِنَ الإفشينْ،
قُتل الإفشينْ،
صُلب الإفشينْ -
تُهَمٌ شَتّى:
منها أنّ كتابَ «كليلةَ» والعفريت
الآخر «دِمنةَ» كان لديهِ:
كان مُحلّى ذهباً وجواهرَ. مِنها:
تمثالٌ مِن خشَبٍ، في أذنيهِ
قُرْطانِ، ومنها صُوَرٌ في
البيتِ، وقالوا: كتبٌ لمجوسٍ.
وأضافوا: أصنامٌ.
يا للكافرِ، ما أجرمَه، ما أتْفَه
عَقله!
أُحْرِقَ، ذُرّيَ في دِجلَهْ!

- أ -

حلَبٌ تسكن الحربَ، كلّ الدُّورب إليها
جِراحْ

كيف أُقْنِع صوتي
أن يفيءَ إلى بلدٍ آخَرٍ؟

آهٍ، لا بلَدٌ آخَرُ

ولماذا الخرائِطُ أضيقُ مِن خطواتِكَ،
يا أيّها الشّاعِرُ؟

* خطواتٌ
لا تُنافس غيرَ النّجوم وغيرَ اللّهَبْ
وأنا مُتعَبٌ - تعبي عاشِقٌ
وجراحِي حقولٌ لِوَرْد التّعَبْ.

٢٢٧هـ.

- ٧٤ -

يتبرقَعُ[1] كي لا يُرَى
ويطوفُ القُرى،
داعياً يأمرُ النّاسَ بالعدلِ
والخَيْر،
يَستنكر المنكرَا
حبسوهُ
وفي حبسهِ، خَنقوهُ.

(١) هو المبرقع أبو حرب اليماني. يقال إنه قتل جنديًا اعتدى على زوجته، وهرب متبرقعاً لئلاّ يعرف، داعياً إلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. وقيل: استجاب له أهل القرى، وقويت شوكته. أَسره المعتصم وحبسه. وقتل في سجنه، خنقاً، سنة ٢٢٧هـ.

- ب -

للجنود الذي يموتونَ في أَرضرومِ
بيوتٌ،
والملائِكُ حُرّاسُها -
للجنود الذين يعودون، هَالاتُ وَجْدٍ:
كلّ شَخْصٍ يَجيءُ
ليلمسَ أردانَهم،
ويَرى كيف أنّ السّماءْ
فُصّلت
كي تكونَ لأجسامِهم رداءْ!

* أغلقوا كلّ بابٍ عليه، وقالوا:
عانِق الموتَ، واصعدْ إلى ملكوتِ السّماءْ
كي تريحك من رِبْقة الشّقاءْ.

٢٢٨هـ.

- ٧٥ -

يسخر الثائرون من الموتِ،
كلٌّ يُردّد ما قالَهُ عليٌّ[٣]
مرّةً، في القتالِ:
«لا أبالي،
سواءٌ لديّ ـ أجئتُ
إلى الموتِ،
أم جاءني».

- ج -

سُمّيتْ غزوةَ الفَناءْ:
جيشُه كلّه انْكسَر[١]
بادَ، لم يبقَ إلاّ
نَفَرٌ ستّةٌ ـ وأنا واحِدٌ منهُم.
كان يَسْتأصِلُ الرُّومَ، كنت أراهُ
يَرجّ المكانْ
كنت أحسب أن الشّجَرْ
خُوَذٌ للعدوّ، فوارسُ، كنتُ أصيحُ:
«الأمانَ الأمانْ،
أيّها العِلْجُ».
ـ «لا عِلْجَ[٢]. هذا سَمُرٌ عالِقٌ بثيابكَ»: يحنو
ويهتف بي ضاحكاً:
ـ عَفْو سيفكَ، عفو الفروسةِ: رعبُ الفناءْ
جرّني مثلَ طِفْلٍ لهذا الهُذَاءْ.

* حفرةٌ، رأسُ مَيْتٍ
وغرابٌ على الرأس يجثو:
صورةٌ تتكرّر في كلّ شَمْسِ.

(١) الإشارة إلى سيف الدّولة.

(٢) الكلام لسيف الدّولة مخاطباً المتنبي.

(٣) علي بن أبي طالب.

٢٢٩هـ.

- ٧٦ -

حَبسوا كتّاباً[1] -

قالوا: أخذوا منهم أموالاً.

والتّهمة: ظلمُ النّاسِ، السَّرِقاتُ،

وقالوا:

سَمّوْهُم خَوَنَهْ!

(١) حبسهم الخليفة الواثق الذي خلف المعتصم بعد موته، سنة ٢٢٧هـ.

- د -

خَرْشَنَهْ

أسْلمت صدرَها للخيولِ وأطرافَها للرِّماحْ.

خَرْشَنَهْ

جُثَثٌ أو جراحْ.

خَرشنَهْ

خوذةٌ تتقَصَّى، تنقّب أحشاءَها

خوذةٌ تتشهّد فيها،

خوذةٌ مِئْذنَهْ.

* لِمَ لا يكتب الذين يعيشون في الخُلْدِ، عَمّا يرون، إلى الأصدقاءْ؟
ولمَ الغيب يجهل أن يَسْقيَ الماءَ إلاّ بقارورةِ الأنبياءْ؟

٢٣٠هـ.

- ٧٧ -

الأَعرابُ قطيعُ ذئابٍ
وبُغَا[1] صيّادٌ.
قالوا: لم يُفلِت أحَدٌ.

(١) بُغا الكبير، وقد وَجّهه الخليفة الواثق لمحاربة الأعراب في الحجاز.

- هـ -

بَطْرقيّون أَسْرى
والدّمستق يجترّ أوجاعَهُ.
أَلذُّهولُ الأليمُ الذُّهولْ
مُدْبرٌ مُقْبِلٌ
في السّيوف، على صهوات الخيولْ
والدّمستقُ يجترّ أوجاعَهُ
لم يعد قادراً
أن يُميّزَ بين أنين الفرَسْ
ورَنين الجرَسْ.

* لا تبتئسي، كوني مِثلي، يا أهوائي:
ليس الموتُ أمامي،
الموتُ ورائي.

٢٣١هـ.

- ٧٨ -

- أ -

«صَلّيتُ عليهِ[1]
صَلّى الناس جميعاً
بعد سنينِ سَبْعٍ من
مَقْتَلِهِ.
كان الرأسُ وحيداً
مصلوباً في بغدادَ، قريباً
مِن مسكنِهِ،
والجسم وحيدٌ
في سامرّاءَ:
بكتِ الخشبَةْ
وبكى الحِنّاءُ»[2].

- و -

آلِسْ، -

أيّها النّهرُ، تحت الثياب التي ترتديها
جسَدٌ ليس فيه مكانٌ
للجِراب، لجرحٍ جديدِ.
ما تقولُ لِمِجراكَ، للضّفتيْنِ؟ سأُضْغي.

لستَ إلاّ دماً -
أَلهواءُ الذي لاَمسَ الآنَ خَدَّيْكَ دامٍ،
صَبغتْهُ يَداكْ
وخُطَى العابرينَ دَمٌ يتدفّق، مُسْتَقْطَراً
مِن خُطاكْ.

* قل ليَ: ماذا أفعلُ
في وطَنٍ يُرْتَجَلُ؟

(١) الإشارة إلى أحمد بن نصر الخزاعي الذي قتل وصلب لأنه رفض القول بخلق القرآن، والنصّ بلسان أحد أصحابه.

(٢) كان يخضب شعره بالحنّاء.

٢٣١هـ.

- ب -

قال لقاتلهِ[1]:

«نطفةُ سكرانٍ أنت

انسابَتْ في جاريةٍ.

مَنْ أنتَ،

وكيف يجيء لرأسكَ عِلْمٌ؟».

- ز -

أيّهذا الفضاءُ النقيُّ البريءُ،

لِمَ لا يَسْطَعُ اللَّهُ فيكَ، احتفاءً

بابتهالاتِنا إليهِ

وبأشواقِنا؟ لماذا

حين نُعطي لآهاتِنا

ولأحلامنا

ولأيامِنا

شفتيه وأهدابَهُ، لا يُضيءُ؟

* ألقناعُ هو الوَجْهُ، قالت

وردةٌ -

وردةٌ عِطرُها قبرُها.

(١) الخليفة الواثق. ويُروى أنه دعا بنطع صُيّر في وسط الخزاعي، ودعا بحبلٍ لشدّ رأسه. ثم ضربه الواثق ضربتين على حبل العاتق وعلى رأسه. وضرب سيما الدمشقي عنقه، ثم صلب وكتب في أذنه رقعة، فيها: «هذا رأس الكافر المشرك الضالّ أحمد بن نصر بن مالك قتله الله على يدي عبد الله أمير المؤمنين الواثق بالله، بعد أن أقام عليه الحجّة في خلق القرآن، ونفي التشبيه. وعرض عليه التوبة، ومكّنه من الرجوع إلى الحقّ، فأبى إلاّ المعاندة. والحمد لله الذي عجّل به إلى ناره».

وُضع الذين شايعوه في السّجون، ومنعوا من الزوّار، وقطع نخل بعضهم، وانتهبت منازلهم. وقيل: إن أحدهم قال للخليفة الواثق وهو يقتله: «اسقني دمه، يا أمير المؤمنين!».

٢٣١هـ.

- ح -

- ما قولكَ في القرآنِ[1]؟
- كلامُ اللَّهِ،
- وماذا تَعني:
مخلوقٌ، أم لا؟
- قلتُ: كلامُ اللَّهِ،
- أَجِبْني: أترى ربَّكَ،
يومَ الحَشْرِ؟
- قرأنا
آثاراً قالت:
«في الحَشْرِ، ترون اللَّهَ
كمثلِ القمَرِ،
وأنا أومنُ حَقًّا
في صِحَّةِ هذا الأَثَرِ».

(١) حوار بين الواثق وبعض رجال قصره من جهة، والفقيه أحمد بن نصر الخزاعي من جهة ثانية.

- ح -

بين نَهْرَيْنِ مِن غَضَبٍ وانْحناءِ
لِلقلاع وأَسْوارِها،
يتدفّق نَهْرُ قويقٍ.
وعلى ضِفّتيْهِ
يَسمر السّاهرونَ: جِراحٌ
وأساطيرُ مخنوقةٌ.

* شاعِرٌ - غيرَ أنّ الطريقَ إلى قلبهِ،
دونَها فلواتٌ، ومحيطات ظَنٌّ.
أُغْفُري تيهَهُ وتيهي، يا طريقي إليهِ.

ـ وَيْلَكَ، أُنْظرْ ماذا قلتَ...[1]

ـ...

ـ وما فتواكم فيهِ[2]؟

ـ دمهُ حِلٌّ[3].

ـ لو أُسْقَى دَمَهُ، يا مولاي[4]،

ـ القتل يُحقّق ما تطلبهُ.

ـ تُطلَبُ منه التّوبَةُ[5].

ـ إنْ قمتُ إليه، لا يَنهضْ أحدٌ منكم. فخطاي إليهِ عند اللّهِ، أبَرُّ خُطايَ.

اخْتُزَّ الرّأسُ / خذوهُ

دَلّوهُ، قولوا:

«هذا رأس الكافِرْ

... إلخ».

ـ ط ـ

تثورُ عليكَ مِن سَفَهٍ قُشَيْرٌ
وتَمشي في أعنّتها كِلابُ
تُعاقبهم لِتَهْدِيَهمْ، وتُغضي
كمثل أبٍ يؤرّقهُ العقابُ
«وكيف يتمُّ بأسُكَ في أناسٍ
تُصيبهُم، فيؤلمكَ المُصابُ»؟[6]

* تطبق الشمس أجفانها
حين ترنو إلينا.
لا ترى غير أرضٍ كُوّنَتْ لِلشّقاءْ
تتبختَرُ في جُبّةِ الأنبياءْ!

(١) الكلام لأحد الحضور المحاورين، ويدعى إسحاق بن إبراهيم.

(٢) سؤال من الخليفة الواثق.

(٣) جواب للقاضي عبد الرحمٰن بن إسحاق.

(٤) طلبَ ذلك شخصٌ يدعى أبو عبد الله الأرمنيّ.

(٥) الكلام للقاضي ابن أبي دؤاد.

(٦) البيت للمتنبي.

٢٣١هـ.

- د -

زَمَنٌ مَشْؤومٌ،ـ
آلافٌ أربعةٌ أسْرَى
عند الرّومِ، ولكن
مَنْ قال بِخَلْق القرآنِ،
سيُفْدَى ويُحرّرُ.
من يأبى،
سيظلُّ سجيناً عند الرُّومْ!

- ي -

أَتَى إليكَ رسولُ الرُّوم، فامتلأتْ
بالنّاسِ، ساحاتُكَ الفيحاءُ،
واشْتَجَرُوا
يَسْتَشْرِفونَ: بلادُ الرُّوم تجرفُها
ريحُ اليباسِ،
وأنتَ الغيمُ والمطَرُ.
«تزاحَمَ الجيشُ حتّى لم يجد سبباً
إلى بساطِكَ لي سَمْعٌ ولا بَصَرُ»[1].

(١) جلس سيف الدولة لاستقبال ملك الروم. ولم يقدر المتنبي أن يصل إليه لزحام النّاس، فعاتبه سيف الدّولة على غيابهِ. واعتذر المتنبي بأبياتٍ، منها هذا البيت الأخير.

* مَنْ تُرى ذلك الفارِسُ؟
لا يُخاصِمُ غير الكواكبِ،
والرّفضُ شيطانُه الحارِسُ.

٢٣١هـ.

- هـ -

إمْتحانٌ[1] لأهل الثُّغورِ:
تُراهمُ يقولونَ ما
يَرْتأي الواثِقُ -
«كلُّ شيء سوى اللّهِ من
خلقِهِ، وهو الخالِقُ».
كلّهم أعلنوا جهاراً
ما يرى الواثِقُ -
ما عدا أربعَهْ:
أخذَ السّيف أعناقهم.

- ك -

أَرجلٌ كالرؤوسِ، رؤوسٌ
تتعثَّرُ بالأرجلِ -
ما عُقَيْلٌ وأنصارُهم؟
ما قُشَيْرٌ؟
وكِلابٌ وعجلانُهمْ، ونُمَيْرٌ؟[2]

بَشَرٌ،
يذهبون إلى نَهْب جيرانهم
وإلى قَتْلهم،
مِثلما يذهبون إلى مَحْفَلِ.

* ربّما لا تحبّ الحياة الكلامَ؛ الحياةُ شِبَاكٌ، وطرائق وَصْل وفصْلٍ، بين جسر تهدَّم فيها، وجسرٍ لم يزل قائماً.

(١) أمرَ به الخليفة الواثق: «هل القرآن مخلوق، أم غير مخلوق؟».

(٢) الفئات التي كانت تتمرّد على سيف الدّولة والبيت الأول تنويع على ما قاله المتنبي فيهم - هاربين: «مَضَوْا متسابقي الأعضاء، فيهِ لأرؤسهم بأرجلهم عِثَارُ».

٢٣٢هـ.

- ٧٩ -

- أ -

حشدُ رؤوسٍ
مِن أبناء نُميرٍ،
حُزّتْ.
وُضِعت صَفًّا، صَفًّا
قُدّامَ بُغا:
لِبُغا ذَوقٌ في الفَتْكِ،
أميرٌ!

- ل -

مُدنٌ قُيّدت
بِسلاسِلَ مَزْرُودَةٍ
بالرّجالِ، ومَزْرودَةٍ بالنّساءْ.
مُدُنٌ - بعض ساحاتِها رؤوسٌ
بعضها أذرعٌ وصدورٌ.
مدنٌ تتغيَّر، كالغيم تأتي
وكالغيم تمضي.
مدنٌ ينهض الفجرُ فيها
شاحباً ويداهُ على قلبِهِ.
مُدُنٌ - كلّ جُدْرانِها دماءْ.

* ما لِتلك المنازلِ، تلك البيوتْ
كنساءٍ يقلن لعشاقهنّ: أبيحوا
موتكم بين أحضاننا
لا نقبّل إلاّ شفاهاً تموتْ.

٢٣٣هـ.

- ٨٠ -

قُتِل الزّياتُ[١]

وزيرُ الواثِقْ

أخذوا ما يملكُ مِن أموالِ.

وضعوهُ في تنّورِ. قالوا:

لمّا ماتَ، ابتهجَ ابْناهُ[٢].

قالا:

«حمداً لِلّهِ، ارتحنا مِنهُ».

كانَ كما وَصفاهُ،

في رأي الناسِ،

وزيراً فاسِقْ.

(١) محمد بن عبد الملك الزيّات.

(٢) هما: سليمان وعبيد الله.

- م -

وَجهُها

وجه مملكةٍ لمقابرَ من كلّ عَهْدِ.

والقصيدة في هذه المدينة قَبْرٌ

يتحرَّكُ في اللّيل سِرّاً

ويزورُ القِلاعْ

خَرَسٌ في الضّفاف القريبةِ:

لا شيء يومئُ،

لا ريحَ،

لا موجةٌ،

لا شِراعْ.

* قَمرٌ نائمٌ فوقَ خَدّ التُرابِ

قَمرٌ يهدم الجِسْرَ

بين مزاميرهِ والكتابِ.

٢٣٤هـ.

ـ ٨١ ـ

أسَرَوهُ[1]، استُبيحَتْ
كلّ أمواله، وما عنده
مِن نساءٍ.
قيّدوهُ،
وصُيِّر في عنقهِ حديدٌ.
منعوا الماءَ عنهُ ـ
تركوهُ يموت ببطءٍ.

(١) الإشارة إلى محمد بن البعيث في أذربيجان.

ـ ن ـ

أَلتِّلالُ التي حول آلِسَ مملوءةٌ رؤوساً
لا عيونٌ لها،
وآذانُها قُطِّعتْ.
وضِفافُ قويْقِ
حُفَرٌ وبقايا عظامٍ.
أَلمدائِنُ تلبس أشْلاءَها،
وتدور احتفاءً بسلطانِها.
أَلمكانُ هتافٌ لسِحر البيانِ الذي
يتبجَّسُ منها،
والزّمانُ انحناءٌ لبهتانِها.

* دمه للتراب، وأطرافُه للغيومْ
يسمع الماءَ يحلم، والضوء يكتبُ،
واللّيلَ يقرأ أشعاره للنّجومْ.

٢٣٥هـ.

- ٨٢ -

- أ -

أنتَ أَسْلَستَ[1] لي
صبَواتي، وعرّفتَني
بنفسي، ورَبَّيْتَني -
كنتَ، في كلّ شيءٍ، أباً.
غيرَ أنّيَ لا بُدّ أن أقتلَكْ
إمْضِ واقْرَأْ هوانا
يا صديقيَ، مِن أوّلٍ،
في كتابِ الفلَكْ!

(١) الخليفة المتوكّل، مخاطباً الأمير إيتاخ الخزريّ، واليه على مكّة.

- س -

إنْ يَجِئْ موتهُ الآنَ في خَرْشَنَهْ،
فَأعيروا لجثمانهِ
كتِفَ الجامع العتيقِ وعُكّازَهُ.
وأعيروا لِجلبابهِ
قامَة المئذنَهْ.

* فكرٌ كمثل فقاعاتٍ يموج بها
ماء الحياةِ، ـ حياة الخالقِ الجسَدُ
يُسْتَقْطَرُ الفكر من حُمَّاهُ جامحةً
وفي حُمّياه نارُ الشعر تتّقِدُ.

٢٣٥هـ.

- ب -

في سامرّاءِ، رجلٌ[1] قالَ:
أَتى جبريلُ إليَّ بهذا
المُصحَفِ ـ هذا
قرآنٌ
وأنا ذو القَرْنينْ!
ضربوهُ حتى ماتَ، وقالوا:
مجنونٌ! مِنْ أينَ لَهُ
أن يتحدّث مع جبريلِ ـ
مِنْ أينْ؟

- ع -

أعْرفُ: العُنْقُ أَبقى مِن السّيفِ،
لكن،
كيف، أنّى
متى يتوقّفُ طوفانُ
هذي الفؤوسْ
جارفاتٍ، تجرُّ تواريخَنا
وتجرّ الرُّؤوسْ؟

* بقيَ الحبر، لكنّما الكلمات امّحَتْ:
كان يُملي على ليلهِ،
رسالةَ حبٍّ.

(١) اسمه محمود بن الفرج النيسابوري.

٢٣٥هـ.

- ج -

أمرَ المتوكّل أن يلبسَ النصارَى
زنانيرَ مخصوصةً
وطيالسةً عَسليّةً،
أن يكونَ إزارُ النّساءِ
كذلكَ، من لونها عَسليًا،
أن تُعلّق من فوق أبوابِهِمْ،
صورٌ،
لشياطينَ مِن خشبٍ،
كي تُميَّزَ عن دُور جيرانهم
مِن المسلمينَ،
نَهَى أن يُعلّم أولادُهم

- ف -

تلك هِنْريطُ تَعْنو،
وآمِدُ «يَبْيَضُّ بالسَّبْي»،
«خلف الفرنجةِ» ذعرٌ
والمدَى يتطاوَلُ في ناظريكْ[1].
قل لجيشكَ: مَهْلاً،
ترَفَّقْ بِهم،
مثلما عوّدتْهم ظُباكَ،
ومُدَّ لأوجاعهم يديكْ.

* أَلسَّبية هَدْباءُ، في عُنْقِها
جَرَسٌ خاشِعٌ، وبين يَدَيْها
وَجْهُ أيقونَةٍ.

(١) الإشارة إلى سيف الدّولة.

٢٣٥هـ.

في كتاتيبَ للمسلمينَ،
نَهَى أن يُعلّمهم مُسْلِمٌ،
وأن يُستعان بهم في
الدّواوينِ، أو يظهروا صليباً
في شعانينهم -
آمِراً
أن تُسَوّى قبورهُم كلّها معَ
الأرضِ كي لا تشابه ما عند
جيرانهم من قبورِ.
وقال: إذا كانت الكنيسةُ
مبنيّةً، حديثاً، فلا بُدَّ
مِنْ هَدْمِها.
وإذا كانت الكنيسة في موضعٍ
واسعٍ،
فلا بُدّ مِن أن تصيرَ إلى مسجدٍ،
أو إلى ساحةٍ.

- ص -

هي «الحَدَث الحمراءُ» عهدكَ ساهِرٌ
عليها، وفي أحضانِكَ الدَّهرُ نائِمُ
جَمعْتَ بها خَدَّيْنِ: شرقَكَ، صاحياً
وغَرْباً عليه مِن رؤاهُ غمائِمُ
وما السرّ في ما كتَّمتْهُ جِراحُها
ولكنّه السرّ الذي أنتَ عالِمُ
هوىً حاقِدٌ، حِقْدٌ مُحِبٌّ، فمن تُرى
يَفيء إلى المعنى، وأين التّراجمُ؟

* عَطشٌ في الفراتِ، الضّفافْ
تتنبَّأُ عَمّا ستحملُ قافلةُ الرَّمْل
لِلقاعدين، وما سيكون القطافْ.

٢٣٦هـ.

- ٨٣ -

أمَرَ المتوكّل: لا بُدَّ مِن
هَدْم قَبْر الحسينِ،
وَما حولَهُ مِن بيوتِ.
أمرَ المتوكّلُ: لا بُدّ أن يُحرثَ
المكانُ، ولا بُدّ من
زَرْعِهِ،
ومِن سَقْيِهِ،
ولا بُدَّ أن يُمنعَ النّاسُ مِن
أن يجيئوا إليهِ.

- ق -

لم يَزَلْ آلِسٌ يتدفّقُ، أمواجهُ
خَلعَتْ ثوبَها القديمَ، الدّروبُ التي
رافقَتْهُ،
غيّرت سمْتَها،
وأرَى ماءَهُ يتكسَّرُ في حيرةٍ.
وكأنَّ الضّفافَ التي تحتويهِ
مَنحتْ صوتَها
مَنَحتْ صمتَها
لِرُؤىً ولغاتٍ
يتعذّر أن يتقرّى مداها سِوى شاعرٍ.

* في آلسِ قمرٌ، كم سالَ مَدمعهُ
وجداً، وكم قطَرت من دمعهِ قُبَلُ
يحيا وحيداً بلا جُنْدٍ ولا حَرَسٍ
وحوله النّاس والأوهامُ تَقْتَتِلُ.

٢٣٧هـ.

- ٨٤ -

- أ -

وجه أرمينيا غَضَبٌ ودماءٌ،ـ
قتلوا يوسفاً[٢]،
قتلوا بعضَ مَنْ آزروهُ.
أمروا الآخرين: انْزَعُوا ما عليكم
مِن ثيابٍ، وفُرُّوا
عُراةً!
جُلُّهم ماتَ بَرْداً
في الطّريق إلى بيتِهِ!

- ر -

رُومٌ هُناكَ، ورومٌ هاهُنا[١]:
زَحفَتْ
مِن الدُّمسْتُقِ راياتٌ،
ومِن مُضَرِ،
تُريدُ غَزْوكَ: تمحو ما عَمرْتَ بهِ
هذي البلادَ، ولا تُبقي على أَثَرِ.
أخذتَ تَضحكُ، لكن غيرَ مكترثٍ
ورحتَ تَعصفُ، لكن غيرَ مُفْتَخرِ.

* ذهب الموت يصطادُه، فرآهُ
نائماً في سريرِ امْرأهْ:
ـ لا تَخفْ، أيّها الموتُ، نَوّرْ
بأساريرنا النيّراتِ أساريرَكَ المطْفَأَهْ.

(١) إشارة إلى قول المتنبي يخاطب سيف الدّولة، في إحدى قصائده:
«وسوى الرّوم، خلف ظهركَ رومٌ
فعلَى أيّ جانبيْكَ تَميلُ؟»

(٢) يوسف بن محمد الذي كان عامِلاً على أرمينية.

٢٣٧هـ.

- ب -

أمرَ المتوكّلُ: لا بُدّ مِن غَزْو
أرمينيا. غزاها بُغَا -
قيل جَمْعٌ
مِن ثلاثين ألفاً، قُتِلوا
غيرَ مَن بِيعَ، أو كان سَبْياً.

- ج -

أمرَ المتوكّل أن يُنزلَ
الخِزاعيُّ[1] مِن صَلْبِه.
أن تُسلّمَ جثّتُه لذويهِ،
وأن تُدفنَا.

- ش -

مَرَّ وجهُ قُسَنْطينةٍ، ومرّتْ
حلَبٌ في مَرايا التّعَبْ:
مَسْرحٌ يدخلُ النّاسُ فيهِ
في تماثيلِ موتاهمُ
في السّيوف التي احترقوا
بين أشفارِها:
جسَدٌ موقِدٌ
جسَدٌ حزْمةٌ مِنْ حطَبْ.
مَسْرحٌ: يَجمعُ النّاسُ أحلامهم
ويكبّونَها
في جحيم اللّهَبْ.

* يتشبّه ليليَ حيناً بليل الحجَرْ:
لا يرى الشمس إلاّ
بالحجاب الذي يتراكم في وجهه
من غبار السّفَرْ.

(١) أحمد بن نصر الخزاعيّ، الذي قتله الواثق وصلبه، لأنّه رفض القولَ بخلق القرآن.

٢٣٨هـ.

- ٨٥ -

يا بُغَا،
ذاك إسحاقُ[٢] مولى أميّةَ:
تَفْليسُ في قَبْضتيهِ، فإلى
غَزْوِهَا.
تلك تَفْليس محروقَةٌ
وأُحْرِقَ سُكّانُها.
قيل: خمسون ألفاً،
وإسْحاقُ فارقَهُ رأسُهُ.
أَسَرُوا جندَه الهاربينْ
نَهَبوا ما تَبقّى -
نَهبوا الميّتينْ.

- ت -

ما لَكمْ تهرفونْ
أَلمسيحُ بْنُ مَرْيَم رَبٌّ رحيمٌ
في تعاليمكمْ،
كيف أَصْبَح في حَرْبكم حِراباً
وبهِ تَقتلونْ؟

- هيّئوا للأمير الأسير
مُقَاماً كريماً[١].

* غيمةٌ خلعت ثوبها
فوق صفصافةٍ.
ألمياهُ التي تتحدّر من حولها
فتحتْ ساعديْها، احتفاءً.

(١) لمّا أسر سيف الدولة قسطنطين ابن ملك الرّوم، أكرمه، وأقام عنده مدّةً في حلب، سنة ٣٤٢هـ.

(٢) إسحاق بن إسماعيل مولى أمية في تفليس.

٢٣٩هـ.

- ٨٦ -

- أ -

بعد الآنْ،
لن يركبَ أهل الذمّة إلاّ
حُمُراً وبِغالاً[1].
لا خيلٌ، أبداً.

- ب -

أمرَ المتوكّلُ: خيرٌ
أن يُنْفَى هذا الشّاعِرُ[2]
لخراسانِ.
خيرٌ أن يُبعدَ هذا البدويُّ
السُّكنَى،
عن بغدادٍ - لؤلؤة الحاضِرْ.

- ث -

إمْشِ، تابعْ مسيركَ، أسْرِعْ
ليس هذا مكاناً
لكي تتوقّفَ فيهِ.
هذه لحظةُ الرّحيلِ،
ولحظة نيرانهِ الخامدهْ
والذين تسائل عنهم، رَمَوهُمْ
أمسِ، في حُفْرةٍ واحِدَهْ.

* كان ذلك في يوم عيدٍ
وشعرتُ كأنّ المصلّين أعرف مِنّي
بحالي:
جَرَفَتْني إلى حَشْدِهم رمالي.

(١) بأمرٍ من الخليفة المتوكّل.

(٢) علي بن الجهم.

٢٤٠هـ.

- ٨٧ -

أهل حمصٍ يثورونَ: قُتلى.
طردوا صاحبَ الخرَاجِ.
النصارَى
آزروا الثائرينْ.
قُوتِلوا
بعضهم صَلبوهُ.
«فتنةٌ» مثلما وصفوها
والذي كان رأساً لها[1]،
من المارقينْ -
عَلّقوا رأسَه فوق تَلّ.

- خ -

نَاقَةُ الجوع والقَشّ لا تتوقّفُ
عن جَرْيِها في القُرَى
يَقْتَفيها ويكتبُ آثارَها
فارِسٌ
يعرف النّارَ من أين تأتي،
ويَراها،
ولكنّه لا يُرَى.

* لأراغنَ خُضْرٍ
تتنقّل بين رفوف العصافيرِ،
كان المطَرْ
يترنّح من غبطةٍ،
في رؤوسِ الشّجَرْ.

(١) شخص يدعى عبد الملك بن إسحاق بن عمارة.

٢٤١هـ.

- ٨٨ -

قيل عنه[1]:

شاتِمٌ لِلصّحابةِ. جاؤوا إليهِ،

قتلوهُ،

وألقوهُ في دجلةِ.

- ذ -

جَلستْ: شُرْفة البيتِ أبهى مكانٍ.

رياحٌ

رفَعت ثوبَها - أنزلتْهُ على ركبتيها،

برِفْقٍ.

كان دمعٌ سَرِيٌّ يهيم على وَجْهها

كنجومٍ

لا مدارٌ لها.

خُيّل البيتُ يطفو كمثل السّفينَهْ

في هباء المدينَهْ.

* رمت القافله

للسهول وعقبانها

ما تَبقّى لها

من رؤوسِ الأشقّاء في حَرْبها العادِلَهْ!

(١) شخص اسمه عيسى بن جعفر.

٢٤٢هـ.

- ٨٩ -

قتلَ المتوكّل شخصاً كانَ أسْلَمَ، ثُمّ تراجَعَ وارْتَدّ. لكنّه اسْتُتِيبَ: أبَى أن يَعودَ لإسلامِهِ. ضَربوا عُنُقَهُ، أحْرقوهُ.

- ض -

أخذتنا خُطانَا إلى حوض وَرْدٍ
كانت الشمس تجلس في بابِهِ
بين حرذون ماءٍ وحرذون صَخْرٍ.
لم يكن صاحب الحوضِ في بيتِهِ،
وبكت أمّه
حينما شاهدتْنا ـ
لم يكن ظنّها صحيحاً (لم نجئ
لنُعزّيَ. كنّا
نكره الموتَ والعرسَ)، لكن
أخذ الورد يقرأ أحزانه علينا، أو لعلّي أكونُ
قريباً إلى الحقّ لو قلتُ: شُبّه لي بين
صَحْبي أنّيَ أصغي إلى الورد يقرأ أحزانه علينا.

* لِلنّوافذ أهداب خَيْلٍ، والزّوايا
طحالبُ. كان الدّخانْ
يتصاعَدُ من كوّةٍ
والطيور ترودُ المكانْ.

٢٤٣هـ.

- ٩٠ -

حَرْبَةٌ، قِيل كانت
للنبيّ، اسْمُها: عَنْزَةٌ.
(قبل ذلك، كانت
لِلنّجاشِيّ) صارَتْ
في يد المتوكّلِ - يا أيها المتوكّلْ،
قُمْ وكبّر، وَهَلّلْ!

- ظ -

جسَدٌ يتمدّدُ. سيفٌ تجرّد مِن غمده
يتمدّد. نملٌ على
السّيفِ، نَمْلٌ
حول رأسِ القتيلْ:
(جَسَدٌ لا يزال طريّاً)،
غير أنّ الكواسر عَمّا قليلٍ،
ستهجمُ.

ليلٌ طويلٌ طويلْ.

* في السّماء ضجيجٌ (هل تضجّ الملائِكُ؟)
والغيمُ يطلق أفراسَهُ.
مركب الكلماتِ التي ستسافِرُ،
فجراً، إلى حبّها، جانِحٌ.

٢٤٤هـ.

- ٩١ -

- مَنْ أحبّ إليكَ؟ هُما[1]

أم تُرى حسَنٌ وحُسَينٌ؟

- قنبرٌ[1] منهما أفضلُ.

- سوفَ أقتلكَ الآنَ،

يا شَرَّ مَنْ يُقْتَلُ.

أمرَ الجندَ: دوسُواعلى بطنِهِ،

وَسُلّوا اللّسانَ،

إلى أن يموتْ.

(١) حوار بين الخليفة المتوكّل، ويعقوب بن السكّيت الإمام في العربية. كان يعلّم أولاده، وسأله يوماً هذا السؤال عن ولديه ـ المعتزّ والمؤيّد. وقنبر هو خادم عليّ ابن أبي طالب.

- غ -

مات أبناؤنا، فلتَمُتْ

هذه الحربُ. لا بأسَ باللّهوِ، حيناً،

وبآلائهِ،

وَلْتعدْ هذه السّيوفُ لأغمادِها.

لِتمت هذه الحربُ. حول بيوتاتِنا

بيوتٌ لأطفالنا

عمّروها وماتوا.

لتمت هذه الحربُ ـ وجه الحقولْ

يتنوّر في دمعه وفي صمتهِ

ما تقول الفصولُ وما لا تقولْ.

* أرَى رجالاً، ولكن لا دروبَ لهم
أرَى دروباً ولكن لا رجالَ لها،ـ
دَمٌ على شُرُفَات الشّرْق يَنْسكبُ:
أهذه أرضُرومٍ، أم تُرى حلبُ؟

هوامش



كـأنّ جـفـونـي عـلـى مـقـلـتـي
ثـيـابٌ شُـقِـقْـنَ عـلـى ثـاكـلِ.

المتنبّي

الحسين بن الضّحاك

كان شاعراً خليعاً.
مات سنة ٢٥٠هـ.

الحياةُ بكاءٌ:
هكذا قالت الآلهِهْ
أأنا صخرةٌ؟
أم سديمٌ بلا جنّةٍ ونارِ؟
أم بقايا هبَاءْ؟

مَنْ يقول لأعماقي الوالِهَهْ:
لِمَ لا أسْتطيعُ البكاءْ؟

أبو الحسن البَكريّ

توفي سنة ٢٥٠هـ. قال فيه الذهبي: «واضع القصص التي لم تكن قطّ». ونعته بالكذّاب الدجّال. ترك «الروايات» التالية: ضياء الأنوار، رأس الغول، شر الدّهر، حصن الدولاب، كلندجة، الحصون السبعة وصاحبها، (هضام بن الجُحاف وحروب الإمام علي معه)، غزوة الأحزاب، قصة إسلام الطفيل بن عامر الدوسيّ.

كان يروي الغرائبَ، أعطى الكلامَ إلى المُتخيَّلِ،
والمستحيلِ، وفي وهمه أوْغَلا
وضعَ الأرضَ في قبضة الظنّ ـ كم ضاعَ في
الشّبهاتِ، وكم أوّلاَ
كان بحراً من الحِبْر، أمعنَ في الفيضِ،
واسترسلا
ربّما كان قَصّاصنا الأوّلاَ.

السَّقَطي
(سَريّ بن المغلّس)

توفي سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م. أستاذ الجنيد وخاله. في رأيه أنّ حروف القرآن مخلوقة. مركز فكره **المحبّة**، فالمحبّون يفوقون في النعيم، أتباع الأنبياء.

غَسَقٌ يرسم الشَّمسَ فوق يديهِ -
يَداهُ على الأرضِ ظِلٌّ كمثل الهلالْ
هل سَيُصْغي إليّ إذا قلتُ: وَجْهي
كوجهكَ، يدخلُ في ليلهِ؟
هل سيرسم وَجهي
بأشعَةِ آفاقهِ؟
ولماذا، ونحن الصّديقانِ، هذا السُّؤالْ؟

الجاحظ

مات سنة ٢٥٥هـ.

قولهُ،

والحياةُ التي يتقلّب في حضنِها
وتُقلّب في حضنهِ
شُرْفتانِ على مُفْتَرقْ
وَغِلابٌ بلا غالبِ.

كيف لي أن أوحِّدَ بين المنظّر والكاتبِ
وأوفّقَ ما بين هذا الصباحِ، وذاك الغَسَقْ؟

البخاري

صاحب «الصحيح»، مات سنة ٢٥٦هـ.

مُوقِنٌ أن بَيْتاً
أفردته المدينة في حَيّ فَقْرٍ،
يقرأ الآنَ، في ليله،
إبْنَ بُرْدٍ وأصحابَهُ.

مُوقِنٌ أنّ هذا
ما تقول الأسرّة للعاشقينْ
عندما يطبق الحبّ أجفانَه عليهم.

موقِنٌ أنّ هذا غَدُ العالمينْ.

الكِنْدي
(أبو يوسف، يعقوب بن إسحاق)

توفي سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٣م، يُلقّب بـ «فيلسوف العرب». عاش في زمن المأمون والمعتصم، وكان أستاذاً لأحمد بن المعتصم. من تلامذته: ابن الطيّب السّرخسي. يروي البيهقي أنّه «كان يهوديًا ثم أسلم»، وقال بعضهم: كان نصرانياً. من أقواله: «لا تنجو مما تكره، حتى تمتنعَ عن كثيرٍ مِمّا تحبّ».

قال يشكو إلى فكرهِ:

لم أرَ الحبَّ إلاّ
في شَذَى وَرْدَةٍ ـ
كان هذا كمثل النّدى، عابراً.

أتُراه سيشكو إلى حبّهِ
مَا تُشيعُ النّجومْ
عن جَفَاف الغيومْ؟

البسطامي، أبو يزيد طيفور

توفي سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م.

نَهَرٌ للحنينِ، لأغوارِهِ
يتدفّقُ مِن ذرواتِ الكلامْ
ماحياً، حاضِناً موتَهُ
مُنْصِتاً لِبَواحِ الأُلوهةِ
في فَلواتِ الهُيامْ.

حنين بن إسحاق

مات سنة ٢٦٠هـ / ٨٩٣م. كان طبيباً ومترجماً. عيّنه المأمون على «بيت الحكمة». ولد سنة ١٩٤هـ / ٨٠٩م.

«مرّةً، في الحياة التي لا تصدّق أقوالَها،
كنتُ رَيْحانةً ـ
أتوسّطُ ورداً
وأجاور صَفْصافةً»:
قالت امرأةٌ كان بيني وبين أساريرِها
كتبٌ ورسائِلُ. قالت:
لم تثق بحياتي وقوليَ، ثمّ اختفَتْ.

شَجَني قَوْسٌ حبٌّ على بابِها.

المُزَنيّ

توفي سنة ٢٦٤هـ. قال عنه الإمام الشافعي: «لو ناظر الشيطان لغلبه».

لو كان الشّيطانُ خصيماً
للمزنيّ، ولَوْ نَاظَرَهُ
لمضى الشيطان حسيراً، أو قُلْ: مغلوباً.

يا مُزَنيّ
من أين أتيتْ؟
وثنيٌّ أنتَ؟ وأين رأيتَ النّورَ، وكيف رأيتْ؟
هات يديكَ، إليكَ يديّ.

سهل التُستري

مات منفيًا في البصرة، سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م. كان أستاذ الحلّاج، ويوصف بأنه «في عداد الحكماء المتألهين».

يَتألَّهُ يَنْسَى كمن يتأنْسَنُ، يَعْلو، يُحَايِثُ

ما الفَرْقُ؟ مَوْجٌ

واحِدٌ يتقلّب: يَنْسى

يتألَّهُ

يَعلو

يُحايِثُ: دَوْرٌ ـ مَدَى

إنّه صَوْتُهُ ـ

والحياةُ الفضاءُ لهذا الصَّدَى.

الرواية

VI

وكان أبجد قد رأى مرّةً في المدينة صاد رجلاً دائم الطواف يُدعى، كما قيل، بَيْسَر. قال: «رأيته يدنو من النار يتناول بيمينه خنجراً ويشقّ صدره يخرج كبده بيده اليسرى يحتزّ منها قطعةً وهو يتكلّم يقطّعها بالخنجر يلقيها إلى من حوله تهاوناً بالموت ورأيته يَهْوي في النّار.»

❊

وسمع أن لحاكم هذه المدينة مريدين يأتيهم الشك فجأة في بعض السّاعات وقيل: جاؤوا إليه في ساعة شَكٍّ، وقالوا:

«ـ إن كنت حاكماً صادقاً، فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقةً، ولتكن سوداء صافية اللون.

قام وقعدَ تمتمَ أصغى أَشار تحركت الصّخرة تململت بدا منها أنينٌ انصدعت بعد مخاض شديدٍ كمثل مخاض المرأة وظهرت منها ناقة سوداء صافية اللون.»

وقيل له إنّ حاكم المدينة ضاد استيقظ يوماً فرأى أسداً جاء به الصيّادون في قفصٍ ووضعوه في صحن القصر. قال آمراً:

«ـ اخلعوا باب القفص وأطلقوه لا يُحبَس الأسد

خلعوا باب القفص خرج الأسد يزأر ويضرب الأرض

هرب الناس وأغلقوا الأبواب في وجهه وبقي الحاكم جالساً

دنا منه الأَسد مَدّ يده إليه هَزّه وقع الأَسَدُ مَيْتاً

جاء الناس فرأوا أصابع يده قد زالت عن مواضعِها

استدْعَى من رَدّها كما كانت

وجلس الحاكم معهم كأنّه لم يفعل شيئاً.»

*

وكان لي صديق في هذه المدينة اسمه يارجوج أخبرني أنّه كان لحاكمها عَمٌّ اسمه دِمْنَانة كرهه وأمرَ بقتله

«دخل عليه في بيته سيّاف الحاكم، وكان معه في البيت امرأة

بدأ بدمنانة فخنقه ومدّه على الفراش،

وحين أخذ الجارية ليخنقها، قالت:

ـ اقتلني، لكن لا تقتلني خنقاً.

خنقها وضعها مع دمنانة على الفراش أدخل يده تحت جنبها أدخل يدها تحت جنبه،

هدم عليهما البيت[1].»

*

وحكى يارجوج أنّ حاكم المدينة خاف من أخ له على ملكه فأمر بقتله. حين رأى أخوه السيّافين يدخلون بيته، أخذ وسادةً وضعَها على وجهه وصاح:

«ـ لا تقتلوني. أنا شقيق الحاكم.

ضربه سيّافٌ في جبهته،

نخسه آخر في خاصرته آخر في سُرّته.

ثمّ ذبحوه وأخذوا رأسه إلى أخيه الحاكم. أمرَ بنصب الرأس في صحن الدار على خشبة. أمر كلّ سيّاف يقبض مكافأته أن يلعنه.

كان السيّاف يقبض المكافأة ويلعن الرأس،

والحاكم يبتسم.»

*

(١) وروى رجل في هذه المدينة أنّه رأى في نومه: «كأنّ النّاسَ يعرضون على الله عزّ وجلّ. جاءت امرأة عليها ثياب رقيقة، هَبّت ريحٌ كشفتها. أعرضَ عنها، تبارك وتعالى، قائلاً: اذهبوا بها إلى النار، كانت تتبرّج. (المنامات، للحافظ أبي الدنيا، مكتبة القرآن الكريم، القاهرة ١٩٨٩، ص١٤٢).

(١) وقال رجل: «مات رجل في حيّنا صاحب خمّارات، رأيته في النوم، وسألته:

ـ ماذا فعل بك الله؟

أجاب:

ـ قال لي ربي: لو لم تكن شيخاً لعذّبتك. (المنامات، ص١٨٦).

وقال أبجد:

«أخبرني صديقي يارجوج أن حاكم المدينة طاء غضب مرّةً على رجل. جاء به سأله:

ـ أنت كيكم؟

ـ نعم، يا مولاي.

أومأ إلى السيّافين. جَرّدوه من ثيابه، قطعوا يمينه وضربوا بها وجهه وفعلوا مثل ذلك بيده اليُسرى ورجليه

ثمّ أمرَ سيّافاً أن يدخل سيفه بين ضلعين من أضلاع كَيْكَم، وأمر بقطع لسانه

ثم أمر بصَلْبِ أطرافه المقطوعة إلى جوار جسمه، على جسر المدينة.

بعد ذلك أمر أن يطاف به في جميع أنحاء المدينة، وقد عُلّق معه رأسُ حمار ميت، ووضع في عنقه قيدٌ تتدلى منه رمّانة حديد،

ثم شُدّ بالحبال وألقي في بئر.»

*

وكان لحاكم المدينة ظاء، ثلاث عشيقاتٍ اتّفقن على عصيانه، فقتلهن، ـ

(١) قال أحدهم لأبجد إن المدينة ضاد هي مدينة المنامات. وروى له أنّ رجلاً رأى في نومه أنه مات وسيق إلى النّار. فجأةً، رأى حجراً يكبر، ويسدّ دونه باب جهنّم. عندما أفاق من نومه، تذكّر أنه كان، حين يُصلّي، يجعل في قبلته سبعة أحجار، فإذا قضى صلاته، قال: أشهدك، أيّتها الأحجار أن لا إلٰه إلاّ الله. ولهذه الرواية أضلّ ربّما أخذت عنه في الكتاب التالي: (المنامات، الحافظ أبي الدنيا، مكتبة القرآن، القاهرة ١٩٨٩، ص١٤٢).

«أمرَ أن تُحفَر للأولى حفرة عميقة، يُدلّى رأسها فيها ويُطرح فوقه التراب وأن يبقى نصفها الأسفل ظاهراً

أمرَ أن تُكتَّفَ الثانية وتُقَيَّدَ ثم تحشى بالقطن أذناها وأنفها وفمها وأن تُنفخَ بالمنافخ حتى يصير جسمها كالجمل ثم تنزع المنافخ ويوضع مكانها القطن ثم تفصد من العرقين اللذين فوق الحاجبين حيث تخرج الروح ولها صفير.

أمّا الثالثة، فشرَّح بيديه لحمها، من فخذيها وعجيزتها، ورماه إلى مماليكه.»

*

وثار على حاكم المدينة عين، أحد أنصاره الأشداء ويدعى سَنْدَر. جمع حوله فئةً قوّية لكنّ الحاكم استطاع أن يطرده وينفيه. قبل ذلك أوصى سندر أنصاره قائلاً:

«ـ من جاءكم على صورتي، فاقتلوه. سيأتي إليكم أناسٌ يتشبّهون بي لا تقبلوا ما يقولون واقتلوهم. بعد زمنٍ استطاع سندر أن يتسلّل عائداً. أخذ أنصاره يتهيأون لقتله. ولمّا هموا بذلك صاح قائلاً: ويحكم، أنا سندر. قالوا: أمرنا سندر بقتل من يتشبّه به. قال: لكن، أنا سندر. قالوا: لا بُدّ من قتلك، وقتلوه.»

(استطراد)

هو أو يوم من أيام المدينة الأولى

ثم استطرَد أبجد، ناقلاً ما سمعه عن حاكم قديم حكم المدينة الأولى، قال:

«نهضَ صلّى الفجر جلس يصغي لقِصّاصه حتى فرغ من قصصه قرأ جزءاً من المصحف دخل إلى منزله أمرَ نَهى صلّى خرج إلى مجلسه أذِنَ لخاصّته حدّثهم وحدّثوه دخل عليه وزراؤه كلّموه بما يريدونه

أذِنَ بالغداء الأصْغَر تحدّث طويلاً قام الحرس تقدّم

الضّعيف الأعرابي الصبيّ المرأة من ليس له أحد قال: انظروا في أمورهم

جلس على السّرير قال: ائذنوا للناس وفقاً لمنازلهم

لا يشغلني أحد عن رَدّ السّلام يا هؤلاء: سُمّيتم أشرافاً

لأنكم شَرّفتم مَنْ دُونكم ارفعوا لنا حاجة من لا يصل إلينا

اقضوا حاجاتهم اخدموهم

دخل منزله صَلّى أربع ركعات نادَى خاصّة الخاصّة

دخل عليه وزراؤه أتاهم بالفواكه والأقراص المعجونة بالسكر واللّبن جلس إلى العصر صلّى العصر جلس

على سريره أَذِنَ للناس وفقاً لمنازلهم أُتيَ بالعشاء سَمَرَ ثُلُثَ اللّيل في أخبار العرب والعجم وأيّامهم أتَتْهُ مِن نسائه غرائب الحَلْوى والمآكل

نامَ ثلث اللّيل قام قعد قرأ عليه غلمانه سِيرَ الملوك أخبار الحروب والمكائد خرج صلّى الفجر

استأنف ما بدأه مِمّا وصفناه

وهذا شأنهُ في كلّ نهارٍ ولَيْل».

الذّكرى

VI

المدينة شين

إصنع من جراحك جوقة، امنحها آلات المنفى، وعلّمها عزيف النفي. سترى آنذاك أنّ أسنان الوقت هي جمهورك الأول. سترى أن الدم نهر يمرّ في وادي عبقر الذي احتلته الكواكب منذ تاريخ ما، وطردت منه كل أثَرٍ للأرض.

سترى أن أكبر قاعة لاستقبال هذه الجوقة هي المدينة شين.

*

إنتاج رؤوس وإنتاج مقاصل، ـ
إيقاع هائل، لكن في محيط من الزّبد:
ما أدهى غيبكِ، أيتها المدينة شين.

*

كيف أفتح أفقاً لا يصدأ
عندما يلامسه هواء المدينة شين؟

*

لماذا ترفض، أيها البحر، أن تسكن في ذاكرتي؟ لماذا ترفضين، أنت أيضاً، أيّتها الشمس؟

ـ «لن يكون في ذاكرتك غير الرعب»:
تجيب المدينة شين.

*

للشرطي والزمن في المدينة شين،
عين واحدة.

❊

تفرض عليّ المدينة شين
برغبةٍ أحار في تفسيرها،
أن أُصاحبَ عقارب الساعة، وأعاديَ الوقت.

❊

هذا الجسد المعلّق على خشبة الفضاء
المنصوب على عتبة الريح، كأنه أوّل الموت،
ليس إلاّ جسد المدينة شين.

❊

قلت للمدينة شين وأكرر:
عبثاً تحاولين قتلي، ـ
لا يرقى إلى عنقي إلاّ سيفي.

❊

يعرّف الإنسان في المدينة شين بأنّه:
«طريدة ـ
غير أنه لن ينجو من الوقوع في الفخ».

❊

أينما وضعت قدميك في المدينة شين،
ينبت التّعب.

❊

تاريخ المرأة في المدينة شين:

«تولد ليلاً،

وتموت عند الفجر».

*

أتريد أن تعرف الطبيعة وما وراءها؟ إذن، عليك أن تعرف جسد المرأة وما وراءه.

لكن، لماذا في المدينة شين، يحرم على الناس مثل هذا السؤال، وهذا الجواب؟

*

سأبني بيتاً من الحجر لعناكب الصبر، وربما الحزن، لكي أوحي بمناخ المدينة شين.

*

لا أعرف لماذا يشبّه لي القمر، أحياناً، في المدينة شين، كأنه مزيج من الدمع والصلاة، مسكوب في إناء أبيض له شكل القرن.

*

لم أزر المدينة شين إلاّ مرة واحدة (لا أقدر). مع ذلك، لم أسافر مرّةً إلاّ مررت فيها ـ خفية.

كأنني أراها، في هذه اللحظة، تبكي وتمسح دموعها بكلماتي.

*

يحدث، غالباً، في المدينة شين، أن يكون الشحم ورماً، والورم شحماً. (وعذراً من صديقي المتنبي).

المدينة تاء

تقول المدينة تاء
إنها شربت رحيق التاريخ.

*

الحلم الذي لا يفارق المدينة تاء،
هو أن تكون طابعاً بريديّاً على غلاف
اسمه الكون.

*

«دَرّب ظهرك على الانحناء»:
لافتة تتكرر كثيراً على جدران المدينة تاء،
وفي شوارعها.

*

يجلس الجمل على عصفور،
يتكئ الجبل على بنفسجة،
يمسح الماء وجهه بمنديل الغبار:
تلك هي بعض الأمثال السائرة في المدينة تاء.

*

من كل حرف،
تخلق المدينة تاء كرسيّاً
من كل كلمة، تخلق بيتاً.

*

حاول أن ترى النهار في المدينة تاء،
وسوف تكتشف أنك لن ترى فيه إلاّ اللّيل.

*

«دَفِّئ حنجرتك بالمدح» ـ
يقول كتاب الهجاء الذي تفضله المدينة تاء،
والذي تحفظه في خزانة من الثلج.

*

الواقع في المدينة تاء، مناخ
شكله الحياة ومضمونه الموت.
«بعد أن فرغ الخالق من خلق العالم،
أراد أن يرتاح، فجعل من راحته
بيتاً دخل إليه ولم يخرج بعد»:
هذا ما تقوله أسطورة
تنكرها المدينة تاء، لكنها تتسامح معها.

*

«تنهد الخالق بعد خلق العالم،
ومن هذا التنهد، كانت الرياح»:
تقول أسطورة أخرى
لا تنفيها المدينة تاء ولا تثبتها.

*

تشرب المدينة تاء المعرفة،
لكن بكأس من الورق المنقوع
في ماء الذاكرة.

*

من أطراف كل كلمة تلفظها المدينة تاء
يتدلّى قبر أو يتدلّى عرس.

*

الوردة نفسها قفص في المدينة تاء
والرغيف شرطي.

*

أقدم وأغنى ذاكرة في المدينة تاء
هي ذاكرة السيف.

*

فضاء المدينة تاء

سلالم لهبوط الملائكة وصعود الموتى.

*

جدران ـ

ليست الأيدي هي التي تبنيها، بل الألفاظ والأصوات:

تلك هي جدران المدينة تاء.

*

من علمك، أيّتها المدينة تاء،

السَّيرَ بقدم الهلال؟

*

لا أعرف مكاناً يقدر أن يتّسع لجثة الوقت

كمثل المكان في المدينة تاء.

*

أيتها المدينة المرئية لغيري،

لماذا لم تعودي مرئيّةً لي؟

*

المدينة ثاء

لا تعرف الريح في المدينة ثاء،
أن تمشّط شَعْرَ الشجر.

*

غريب أمر الناس في المدينة ثاء ـ
إنهم يعيشون عائمين على أطراف الأظافر.

*

ليس للحصاة عينان وأذنان،
يد ولسان،
إلاّ في المدينة ثاء.

*

تكاد الريح نفسها في المدينة ثاء،
أن تفقد شهوة الهبوب.

*

النهار في المدينة ثاء، لجة من الدمع،
والليل سفينة غارقة.

*

ليس القمر إلاّ الضوء الذي يعكسه،
أو هكذا يبدو.
لكن، لماذا عندما تنظر إليه من المدينة ثاء،
يبدو أن له مخالبَ تكاد أن تلامس وجهك،
ويبدو كأنه خارجٌ لتوّه مِن الجحيم؟

*

ينبغي أن تكون لك القدرة على التشبّه بالضوء،
لكي تستطيع أن تكتب أو تتحدث
عن الظلام في المدينة ثاء.

*

أحياناً،
لكي ترى بوضوح في المدينة ثاء،
لا بدّ لك من أن تغمض عينيك.

*

كلا، ليست المدينة ثاء،
هي الموعودة بالجنة،
بل الجنة هي الموعودة بها.

*

تريد المدينة ثاء أن تظل شفتاها
مختومتين بشفتي ملاك.

VI

ومن صَحب الدّنيا طويلاً، تَقلَّبتْ
على عينهِ، حتى يَرى صِدْقَها كِذْبا.

المتنبي

٢٤٥هـ.

- ٩٢ -

ضربوه[1] سياطاً،
أثقلوهُ حديداً،
ورموهُ إلى السّجن:
يا بَخْتَشوعْ
أين طِبُّكَ؟
لا طِبّ عند الخِلافةِ،
إلاّ الخضوعْ!

- أ -

إذْهَبْ وشاهِدْ كيف تختلطُ
النّجومُ هَوىً
بأثداء النّساءْ
إذْهَبْ وغَنّ الرُّومَ
أغنيةَ الصّداقةِ والإخاءْ -
أُغْسلْ عن الأرض الجِراحَ
وعن وجوههم الدّماءْ.

* إن جنحتَ إلى شهوةٍ
تتأجّجُ في جانحيكْ
وتجانَسْتُما
فابتدرْها، لا جُناحٌ عليكْ.

(١) الإشارة إلى الطبيب بختيشوع. وقيل ضُرِب مِئة وخمسين سوطاً.

٢٧٦هـ.

- ٩٣ -

- أ -

- كيف قولُكَ[1] في دارِنا؟
- كلُّ دنياكَ فيها.
- كيف شربُكَ للخمر؟
- أعجزُ عن شُرْبها:
ألقليلُ امْتِهانٌ
والكثيرُ افتضاحٌ.
- إنْسَ هذا ونادِمْ.
ومِنْ أين أنتَ؟
- مِن البَصْرةِ.
- كيف قولُكَ فيها؟

- ب -

- شاعِرٌ
قادَهُ الحبُّ في كلِّ دَرْبٍ
وَلَهاً، واحتفاءَ.
يَسْكبُ الشَّرْقَ في غربهِ،
الغَرْبَ في شَرقهِ،
ويوحّدُ فيه شتَاتَ الوجودْ.

- ما أمرَّ الفواصِلَ بين تقاليدهِ
وتجاريبه،
ما أمرَّ الحدودْ.

* أَلشُّروقُ صديقُ النّخيلْ
رسمتْهُ يَدُ الشّعر تيهاً على
عُنْقِهِ الطّويلْ.

(١) حوار بين الخليفة المتوكّل، وأبي العيناء، (مات سنة ٢٨٢هـ).

٢٤٦هـ.

- كمثل جهنّمَ، حين تطيبُ،
- وماذا تَرى
في عُبَيْدِ بن يَحْيى[1]؟
- رجلٌ عاقِلٌ
قاسِمٌ نفسَهُ
بين طاعةِ خَلاّقهِ
وخِدْمةِ سُلْطانهِ.

- ب -

سوف تُمطر بغدادُ،
لكن دماً.

- ج -

أخذتْنيَ حرَّانُ في صَمْتِها
في مثالاتِها،
واللّغات التي تركتها العصورُ
وراء ستائرها المُسْدَلَهْ.
لا تشكّ الصّحارَى،
تؤكّد من أوّلٍ:
يَعشق الصّرفُ والنّحو كوخاً
يَحنّ إلى طلَلِ الأمثِلَهْ.

* يعرفُ الرّملُ أن يتناثَرَ، أنْ يتكدّسَ في القدمينِ، وفي الرّأسِ، أو أن يغطّي
جُثَثَ الميّتينْ
يعرفُ الرّمل أن يتآخَى مع الرّاحلينْ.

(١) عبيد الله، الفتح بن يحيى بن خاقان وزير المتوكّل.

٢٧٧هـ.

- ٩٤ -

- أ -

قُتِل المتوكّلُ والفتْحُ[1]، كانا
يَشربانِ النّبيذَ، وفي اللّيل
ما يُشبه القمرَ المنكسِرْ
يَتَفَتّتُ مِنْ فوقِهِمْ.
وأتى الشّارِبونَ،
ومَنْ يأكلون،
ومن يحرسونَ،
إلى المنتصِرْ.
سلّموا بالخلافةِ، جاءَ وَصِيفٌ[2]
وأصحابُهُ،-
بايَعوا المنتصِرْ.

- د -

في سريريَ عِطْرٌ
مِن جنائنِ أيّامها،
في لهاثي،
صَخَبٌ مِن حناجرِ أسْواقِها.
كيف أروي لِقُسْطَنْطِنيّة حبّي لها؟
كيف أسكب حلمي
بين أجفانِها
وأفوّض حِبري لأَوْراقِها؟

* يحلم أن يتحوّلَ فيه النّبْضْ
ويُحوّلَهُ
جَذْراً بَرّياً،
يحيا ويسافرُ تحت الأَرْضْ.

(١) الفتح بن خاقان وزير المتوكّل. وقتل المتوكّل في حضرة البحتري، الذي قال في غدر المنتصر:
«أكانَ وليّ العهد أَضْمَرَ غدرةً
فمن عجبٍ أن وُلّيَ العهدَ غادِرُهْ»
كان للمتوكّل «أربعة آلاف جارية وَطأهنّ كلهنّ». (المسعودي، مروج الذّهب).

(٢) وصيف الخادم.

٢٧٧هـ.

- ب -

يا أَبي[1]،
لم أجيء منكَ، لكن لِقاحُكَ
أثمرَ مَنْ سُمّيَ المنتصِرْ
غيرَ أنّي مِن طينةٍ لم تَلِذها
وتعجز عَنْ أن تَراهَا،
وأنا لا أُباهي ولا أَفْتَخِرْ،
بل أقول اعتزلت الدّروبَ
التي رسمتها خُطاكَ،
ووجّهت وَجْهي
لدروبٍ سِواها،
وقتلتُكَ حتّى أحرّرَ
عِطْرَ البُنوّةِ
مِن وَرْدةِ الأبوّة!

- هـ -

كيف أَروي لأيقونةٍ
وَلَهي بتجاعيدِها،
بالظّلالِ، الخطوطِ -
انْسايابِاتِها، وتعاريجها؟
لا أخافُ، ولن أتكتّمَ. قولوا
(واعدلوا في تآويلكم)
هو مِمّن
ينتمون لآفاقِها
عاشِقاً وصديقاً لعِشّاقِها.

* جرَسٌ تركته الطبيعة في حضن طِفْلٍ،
أخذ الطّفل يلهو بهِ
ذلك اللّهو سمّاه حِبْرُ المدينة شِعْراً.

(١) الكلام بلسان المنتصر، الخليفة الجديد، يخاطب أباه المتوكّل. وقيل: إنه اغتيل في سامرّاء بتحريضٍ منه. وكان المتوكّل قد أمرَ بترك الجدل في القرآن: لا مخلوق، ولا غير مخلوق. وهدم قبر الحسين كما سبقت الإشارة سنة ٢٣٦هـ.

٢٤٨هـ.

- ٩٥ -

- أ -

«ليس لي أيّ عَهْدٍ
ليس لي أيّ عقدٍ
في رقاب البَشَرْ.
لستُ أصلحُ مِن أيّ وَجْهٍ
للخلافةِ،
مَنْ كانَ في عُنْقِهِ بِيعتي،
فهو حُرٌّ -
حلالٌ له نَقْضُها.»

- و -

فَكّ راياتِهِ وأعمالَهُ وأقوالَهُ
مِن سَلاسلِ أوهامِهِ
الخفيّةِ والمعلنَهْ
وانْحنَى مُتْعباً
كي يَرى العالمَ الجريحَ الذي يتدلَّى
في فضاء المدينةِ
مِن عُنُقِ المئذنَهْ.

* طرَفُ الخيط - أوّلهُ في السّماءِ:
تسلّقْنَهُ، يا جراحي
أَلملائِكُ جاءت وقَصّت جناحي.

٢٤٨هـ.

- ب -

«أصدقائي[٢]!
رأيتُ كأنّيَ في النّومِ،
أُصْغي إلى المتوكّل،
يَصرخُ:
«دَبّرتَ قَتْلي،
لا تمتّعتَ بعدي،
بالخلافة. . .»
- رؤيا،
إنْسَها وائْتِنا بالنَّبيذْ -
أَلنَبيذِ العَزيزِ اللّذيذْ!

- ج -

قيل: شاورَ في قتلهِ
فقهاءَ،
راوياً قُبْحَ أفعالهِ،
فأجازوا له قَتْلَهُ.

- ز -

لِسُميساطَ: أنْقاضِها
وبَقايا أساطيرِها
الوالِهَهْ،
هُوذا يَشْرئبُّ الحجَرْ
رُقُماً وتماثيلَ، مِن نشوةٍ.
وكأنّي أُصْغي لِلُقْيانَ[١]
يَسْخر في صَمْتهِ
مِن يقين البَشَرْ،
ومن الآلِهَهْ.

* إنّها شهوةٌ عاليه،
وضعَ الفجرُ كفّاً على كتف الرّيح،
وارتاحَ، ينتظر الحَظَّ في كفّه الثانيهْ.

(١) لوقيان السّميساطي، كاتب سوري باللغة اليونانية.

(٢) الكلام للمنتصر، يخاطب أصدقاءه في إحدى جلساتهم قبيل موته.

٢٤٩هـ.

- ٩٦ -

- أ -

أَطْلقوا[١] كلّ مَنْ في
السّجونِ، لكي ينهبوا
ولكي يهدموا،
ولكي يحرقوا.

- ب -

قُتِل الشاعِرُ[٢] -
وَجَعُ الشعر طيفٌ
على قبرِهِ دائِرُ.

- ح -

لا تخومٌ، - مسافاتُ ظنٌّ
تتخبَّطُ فيها خُطانَا
وصدَى راحلينَ حيارَى
وصدَى أمكنهْ
نَرْدُ رَمْلٍ على بابِ تدمرَ
والرّيح تحمل في راحتيها
شمعةَ الأزمنَهْ.

* ألمراراتُ تكسو المدائنَ -
أقدارَها وأحوالَها
ما ستفعل، والموت يكتبُ أيّامَها
وأعمالَها؟

(١) الجند الذين تمرّدوا، طلباً لأرزاقهم.

(٢) علي بن الجهم، وقتل قرب حلب.

٢٥٠هـ.

- ٩٧ -

- أ -

في الكوفة، يظهر يَحْيَى[٢]
يُذبَحُ فيها.
أخذوا الرأسَ، وقالوا:
سَنُقَوّرهُ -
نَستخرجُ منه اللّبَّ،
العَينين... ولكن،
هَرَبَ الجزّارونَ. تجرّأ
سَهْلٌ[٣]: قوّرهُ،
وَحشاهُ مِسْكاً.
نُصِب الرّأسُ بسامرّاءَ،
وفي بغدادٍ.
ثم رموهُ في صندوقٍ،
في بيت سِلاحٍ.

- ط -

كنتُ، في غزواتِ الطّفولةِ، أسأل
سمعانَ[١] عن أوّل الدّربِ،
عَمّا تَخيّلهُ الآخرونَ، وعَمّا تراءَى
وعَمّا يُقالْ
وأنا الآنَ، في غمرات الكهولةِ، أسألُ
سمعانَ عن آخر الدّربِ:
سَمْعانُ يسكن في صمتهِ
وفي سِرّهِ،
وأنا ساكِنٌ في السُّؤالْ.

* جَبَلٌ يتخيّل صَوّانه نبيّاً،
يا نَبُو[٢]،
كيف سَمّوك سمعانَ؟ سِرّ المدادِ،
ووحي القَلَمْ
نُقِشا خاتمَيْنِ على وجنات الصّنَمْ.

(١) سمعان العمودي، ونَبُو اسمٌ لجبل سمعان، بالأشورية.

(٢) يحيى بن عمر الطالبي، وينتهي نسبه إلى عليّ بن أبي طالب.

(٣) شخص اسمه سهل الصّفدي.

٢٥٠هـ.

- ب -

قتلوا عدداً

مِمّن تبعوا يَحيى.

- ج -

سَيْطرَ في طبرستانَ،

الحسَنُ[١]، انضمَّ

الريّ إليهِ.

- د -

أهل حمص يثورونَ:

عامِلهم يُقْتَلُ.

جاءَ موسى[٢] إليهم:

عاث حَرْقاً وقتلاً وأَسْراً،

وعُطَيْفٌ[٣] يَفرُّ،

ولا يَسألُ.

(١) الحسن بن زيد الطّالبي، وينتهي نسبه إلى عليّ بن أبي طالب.

(٢) موسى بن بُغا الكبير.

(٣) عُطيف الكلبي، قائد التمرّد، وقد فَرّ إلى البادية.

- ي -

حملوهُ إلى بيته جريحاً

كانتِ امرأةٌ (لم يُقَلْ إنّها أمّهُ

لَمْ يُقَلْ أختُه)،

تَتلقّاه في البيتِ، مجروحةً مثلَهُ.

أَلنّوافِذُ بيضٌ تُطلّ على ريحها الآتيهْ

والطّيور التي ترسم الأفْقَ بين النّوافذِ،

بِيضٌ.

والجريحان: يَسْتجمعُ اللّقاء أناشيدَهُ

ومرائيَهُ بين أيديهما.

كان يَجمع ما بين وجهيْهما

كوكب الهجرة الثّانيهْ.

* زهرةٌ للبكاءْ

تتخيَّرُ عِطر الحقولِ، تُضمّخ منديلَها

وتُبلّل وجه السّماءْ.

٢٥١هـ.

- ٩٨ -

- أ -

قتلوا باغِراً[١]،

والموالي اضطرابٌ وفَوْضى.

- ب -

فتنةٌ. حربُ بغداد ضدّ

الخليفةِ - ضِدّ الدّينْ

خلعوا المستعينْ[٢].

- ج -

في سامرّاءِ -

هُزِمَ الأتراكُ، وتلكَ

بِغالٌ وجواليقْ

كي تُنقلَ كلُّ رؤوسِ

المقتولينَ مِنَ الأتراكِ

إلى بغدادِ.

- ك -

- «أَلدُّمستقُ في حلَبٍ»،

- «حلَبٌ تهزم الرّومَ»: حَرْبٌ

والشّعائر حربٌ

واللغات حروبٌ، ولا فَرْقَ فيها.

مُسلمونَ ورومٌ

ولا فَرْقَ ما بينهم.

واليمين هنا واليسارُ كمثل اليمينِ

هناكَ ومثل اليسارْ

- أين نمضي، إذنْ؟

- سَبقْنا إلى شمس هذا النّهارْ

زَهْرةُ الجُلّنارْ.

* لسنا من آلات الغرب، ولسنا

مِن آيات الشّرْق،

نحن هناك غيومٌ، وهنا أحجارٌ مِن

سجّيلٍ،

لكن، أين الفَرْقْ؟

(١) باغر التركي، وكان أحد قتلة المتوكّل، «فَزِيدَ لذلك في أرزاقه، وأقطع قطائع».

(٢) لكي يبايعوا المعتزّ ابن المتوكّل.

٢٥١هـ.

ـ د ـ

مَنْ جاء برأسِ تُرْكيٍّ،
يُعطى جائزةً.

ـ هـ ـ

في كلّ مكانٍ،
قَتلى،
وَنُبوّاتٌ.

ـ ل ـ

سيَرى هذا الجنديّ ذراعَ أخيهِ
حيث يُصلّي.

سَيَرى
قدمينِ، حذاءً، وبقايا شَعْرٍ
أو أَسْنَانِ.

سَيَرى خُوذَةً روميٍّ في جهةِ القُبلَهْ:

مسجد رُعْبٍ
لم يَشْهدْهُ أحدٌ قَبْلهْ.

* ليس تاريخ آبائِنا غير ألفاظِنا،
نَتلمّظُ إيقاعها، ونترك أبناءَنا
يتمشّون في حيرةٍ
بين لفظٍ ولفظٍ.

٢٥٢هـ.

- ٩٩ -

- أ -

يَسْتقيل الخليفَةُ مِن نفسهِ[1].

بعضهم قال ذلك شعراً:

«خُلع الخلافة أحمدُ بنُ مُحمَّدٍ
وسَيُقْتَلُ التّالي له، أو يُخْلَعُ».

- ب -

بعضهم وَصَفَ المستعينَ،
وقالوا:
كان ذلك وصفاً أميناً:

«خليفَةٌ في قَفَصٍ
بين وَصيفٍ وبُغَا
يَقولُ ما قالاَ لَهُ
كما يقولُ الببَّغَا».

(١) خلع المستعين ابن المعتصم، نفسَه من الخلافة، وبايعَ المعتزّ ابنَ المتوكّل.

- م -

تلبس الشمس جِلْبابَ وَرْدٍ
وتخرج مِن بيتِها،
بيتُها حلمٌ آخَرٌ
في مدارٍ خفيٍّ.
في شبابيكهِ
يتوهّج جَمْرُ السّفَرْ،
أَلْفَضاءُ له مِثْلُ وَحْيٍ
والغيومُ السُّوَرْ.

* أحياناً يكتبُ، لا يكتب إلاّ
كي يتزحزح نِيرُ الأخطاءْ
عن عُنُقِ الأشياءْ.

٢٥٢هـ.

- ج -

سُلِّم المستعينُ إلى حاجبٍ[٢]:

ـ «خذهُ، واضربْهُ حَتّى

يموتَ» ـ ولكن

لم يُطِعْ.

حَزّ، في لحظةٍ، رأسَهُ،

وقالوا:

أَثْقلوهُ حِجاراً،

وألَقوهُ في دجلةٍ.

- ن -

الأسيرُ[١] المغطّى بأوجاعِهِ،

كيف لا تفتديهِ القَصائِدُ؟

ماذا يُسِرّ عليٌّ[١]؟

الأسيرُ المسرْبَلُ بالهمِّ في سجنهِ

يَتَسرْبَلُ حِقْداً عليَّ. صحيحٌ

لا أحبّ المدارَ الذي يتحرَّكُ فيهِ

ويُحرِّك أوهامَهُ.

غيرَ أنّي أقولُ: هُوَ الشّعر يَجمع ما بينَنَا،

وأقولُ لأعدائِهِ:

غَرَضي أن يعودَ من الأسْرِ، هل لِعليٍّ

غَرَضٌ آخَرٌ؟

❊ كيف لي أن أخلّص نفسيَ

مِن ذلك الشّتاتْ؟

آهِ، ما أجملَ السّجنَ، إن كان بَوّابُه

الفُراتْ!

(١) الإشارة إلى أبي فراس الحمداني. وعليّ هو سيف الدّولة، وكان كما قبل يتردّد في فدائه مِن الأسْر.

(٢) اسمه سعيد بن صالح.

٢٥٢هـ.

- د -

ألخلافَةُ أضحوكَةٌ
والبلاد وأنْحَاؤُها
تتمزّق مِثل الخِرَقْ.
أمّةٌ مِن قشورٍ،
أمّةٌ مِنْ وَرَقْ!

- س -

هل يحقّ لِمثليَ شكوى؟
ولمن أتشكّى؟
عندما تقرأ الشّمسُ أغوارَ نفسي،
وأقرأ أغوارَها،
لا أرَى أيّ فَرْقٍ
بين أطفالِ بيزنْطيا
والسّهولِ التي تَتَلألأُ فيها حلَبْ.
إنّه الشّعر كالشّمسِ -
كلّ الحدودِ له شُرُفاتٌ
أينما حَلَّ في الأرضِ، أو
أينما ذهَبْ.

* قدمايَ انْشِطارٌ: خطوةٌ في الشروقِ،
خُطىً في الغروبْ
ربّما سأصالح يأسي، وَتبّاً
لِلدّروب، وتبّاً لابتكار الدّروبْ.

٢٥٣هـ.

- ١٠٠ -

- أ -

رأسُ وصيفٍ[٢] حُزَّ،

وقالوا:

نَصبوهُ في تَنُّورِ.

- ب -

أَلمؤيَّدُ[٣] في الحَبْسِ، -

أُخْرِجَ مِنْ حَبْسِهِ،

مَيّتاً.

- ع -

بالِسّ[١]

غابَةٌ مِن رماحٍ

يتآكَلُ فيها الوطنْ.

فرشتها كسجّادةٍ

في فضاء الفراتِ، النّجومْ

فوقها تغسلُ الغيوم

خُطواتِ الزّمَنْ.

* لغةٌ تتوالَدُ فيها، -

هِيَ في آنٍ

مِحرابُ حرابٍ

يتبطّنهُ محرابُ صلاةٍ.

(١) بلدة قديمة على الفرات، كانت من مراكز تمرّد بني كلاب على سيف الدّولة.

(٢) وصيف الخادم.

(٣) طلب منه المعتزّ أن يخلعَ نفسه من ولاية العهد، ففعل، ثم حُبِس وقُتِل.

٢٥٤هـ.

- ١٠١ -

- أ -

نُهِبت دارهُ[٢]،

وتَفرّق عنهُ مَن يوالونَهُ.

قتلوهُ،

نَصبوا رأسَهُ،

أَحرقوهُ.

- ب -

«لا يَلذُّ ليَ النّومُ: لَيلاً نَهاراً،

في سلاحيَ، خَوْفاً

مِنْ بُغَا - كنت أخشى

أن يجيءَ من الجوّ، أو أن

يَجيء من الأرضِ، والآنَ

طابَت حياتي[٣]».

- ف -

- هل زُرتَ مَنبجَ[١]؟

- أمّهُ تذوي،

ويُسلمها العذابُ إلى العذابْ،

وتقولُ ساهمةً: يموتُ،

«ولم يُمتَّع بالشّبابْ»[١]

- هل زرتَ منبجَ؟

- كيف أحضنُ في الطّريق تُرابَها،

وأقولُ ما بيَ لِلتّرابْ؟

* لا مَفَرٌّ ولا مَخْرَجُ

أسَرَتْهُ

في شِبَاكِ مراراتِها مَنْبجُ.

(١) بلدة أبي فراس، وكانت أمّه تعيش فيها. يصفها في إحدى قصائده قائلاً:

«حيث التفتُّ، رأيت ماءً سائحاً، ورأيتَ ظِلاًّ».

وما بين المزدوجتين، مأخوذٌ من قوله: «زَيْنُ الشبابِ أبو فراس، لم يُمتّع بالشبابِ».

(٢) الإشارة إلى بُغا.

(٣) اعتراف الخليفة المعتزّ بخوفه من بُغا.

٢٥٥هـ.

- ١٠٢ -

بعد أن خَلعوهُ،

أخذوه إلى المهتدي:

- ما جرَى، يا أخي؟

- هو أمرٌ

لا رِضىً ليَ فيهِ، ولستُ

لـه صـالـحـاً، وهـم لا يريدونني،

وأُجلُكَ مِن بيعتي.

أرجعوهُ إلى سجنهِ.

ضربوهُ

بالدّبابيسِ، جَرّوهُ مِن

قدميهِ،

أدخلوهُ لِكَهْفِ

أَطْبقوا بابَهُ عليهِ.

- ص -

أوّل اللّيلِ. من أين تأتي

شهوة النّوم في أوّل اللّيل؟ تمضي

بُرْهةٌ،

أتغلّب فيها على النّوم، لكن

بعد ذلكَ صَحْوٌ،

تَعَبٌ كاسِرٌ وصَحْوٌ.

ولماذا

هذه الحربُ ما بين صَحْوي ونَوْميَ،

فَتّاكَةٌ؟

* صَدَفٌ هاتِفٌ (لا أشير إلى آلةٍ)
للشواطئ، للموج أعماق حبٍّ،
والرّمال مراراتها -
صَدَفٌ هاتِفٌ تخيّل أنّيَ مَرْسى لَهُ.

٢٥٦هـ.

- ١٠٣ -

- أ -

قتلوا صالحَ بْنَ وصيفٍ
حملوا رأسَه فوق رمحٍ
وطافوا بهِ.
صَرخوا: إنّه جَزاءُ الذي
خانَ مولاهُ[1]. قالوا:
أدخلوه، كمولاهُ،
في فُرْن نَارٍ.

- ب -

ضَرب المهتدي عُنقَهُ[2]،
ورمى رأسَهُ لأَصحابِه.

- ق -

(رسالة شفوية من شخص
شارك في الحرب العربية ـ الرومية)

«(. . .)
مِثْلَ جسمي،
تَمزّقَ بيني وبين المدينةِ جسم المكانْ
ولماذا أعودُ، وعيناىَ ليلٌ
ويداىَ الرَّؤومانِ مقطوعتانْ؟
رايَةٌ رفَعَتْني، رايَةٌ أنْزَلَتْني:
بين ذاكَ الصُّعودِ وهذا النّزولْ
ما أشَقّ الحياةَ، ويا ويلتا لِحياتي
لم يُيَسَّرْ لها
أن ترتّلَ إلاّ نشيد الأُفولْ».

* نائماً في العَراءْ
يتحدّث مع كل شيءٍ، ويَهْذي
ألحصى كلماتٌ
والتذكُّر بيتٌ مفاتيحُه البُكاءْ.

(١) الإشارة إلى الخليفة المعتزّ.

(٢) عنق بابكباك.

٢٥٦هـ.

- ج -

خُلِعَ المهتدي

بُويعَ المعتمِدْ[١].

- د -

إبْنُ عَمٍّ لِبايَاكباكِ[٢]،

كانَ أوّل من ضربَ المهتدي

بين أوداجِهِ:

شَقَّهَا،

فارَ منها دَمٌ، راحَ

يمتصّ منه،

ويكرع حتى ارتوى.

قال: يا صَحْبَنا،

كان لي دمه، اليومَ، خَمْراً.

(١) أحمد بن المتوكّل.

(٢) بايكباك.

- ر -

(رسالة)

«إن أَمُتْ، بين أمواج سيحانَ،

أو في ضِفاف قويْقِ،

فأنا لا أرَى فارقاً.

أَلسَّماءُ هنا، كالسّماء هُنالِكَ،

والأرضُ واحدةٌ للكفَنْ.

عندما يطبق الموت عينيكَ،

يهمس في أذنيكَ:

«التّرابُ هنا: وهناكَ ـ الوطَنْ».

* مِن أين يجيء إليكَ الوطنُ؟

من أين تجيء إليهِ؟

والقَتْلُ طريقٌ، والقتلُ فضاءٌ، والقَتْلُ الزّمَنُ.

٢٥٦هـ.

- هـ -

بعضهم قال: كلاّ،
عُصِرت خِصْيتاه[1]
إلى أن قَضى.
ورَوى آخرونْ:
جَعلوهُ بين لوحَيْنِ، شَدُّوهُما
بالحِبالِ إلى أنْ قَضَى.

- و -

الأُبُلَّةُ في قَبْضةِ الزّنج:
قَتْلٌ وحَرْقٌ
وعُباداتُ تفتَحُ أبوابَها
لِراياتِهم.

- ش -

(رسالة)

«هل سأدخلُ تلك الجنانَ التي
وَعَدُونا بها؟ هل سآخذ فيها
مَكاني بين وِلْدانِها؟ ولماذا، لم يَزُرني
إلى الآنِ أيُّ ملاكٍ؟
مَنْ يُعلّمني كيف أقرع أبوابَها، ومِن أيّ بابٍ
سآتي إليها، وما سأقول لبوّابِهِ؟
ولباسِيَ ما سيكونُ، وكيف سأمشي:
خَيْزلَى؟ هَيْدبَى؟
لم يزرْني مَلاَكٌ إلى الآنِ - يأتي؟ أَتَى؟
ما له غاضِبٌ يتحدّث مع تُرْجمانِ؟
أم تراني تَوَهمْتُ؟ لا ذلك الملاكُ ملاكي،
ولا تلكمُ الجِنانُ جِناني».

* ليس للشمس بيتٌ
ليس للشمس دربٌ
ليس للشمس ثوبٌ،
سِوى ضوئِها.

(١) أي الخليفة المهتدي.

٢٥٧هـ.

- ١٠٤ -

قَتَلَ الزّنجُ سعيداً[1]،
والمنضمّين إليهِ.
زَعموا:
جاء الزّنج ومِن أسنانِهمُ
تتدلّى
كلّ رؤوسِ المقتولينَ،
وقالوا: اقْتَسَمَ الزّنجُ
لحومَ القَتْلى،
وتَهادَوْها.

(١) سعيد الحاجب.

- ت -

(رسالة)

«ـ ماذا؟
لا ذئبٌ يَعْوي، لا طَيْرٌ مرَّ، ولا حشَراتٌ
تتراقَص حولي.
ثَلْجٌ، ثَلْجٌ ـ فَبِمن أسْتأنِسُ،
أوْ أَتَدَفَّأُ؟ مَن سأضمّ إليَّ؟
وكيف أُعِدّ لِموتي حَفْلَ استقبالٍ؟
لستُ حظيّاً عند أميرٍ، أو عند النّاسِ،
جراحي
تُفردُ وجهيَ عنهم، تُفْرِد حَظّي
لا مُلكَ لوجهيَ إلاّ وجهي.
سأودّع نفسي، أستودعُها
صندوق رياحٍ».

* كان يرطنُ حولي، وأنا شِبْهُ مَيْتٍ
يُدَنْدِنُ ـ أَحْسَسْتُ جِسْراً،
جامعاً بيننا، عِبْرَ آهاتِنا.

٢٥٨هـ.

- ١٠٥ -

- أ -

أُسِرَ البَحرانيُّ[١]

صديقُ عليٍّ.

ورفيقُ الأيّام الأولى،

قُطعت رجلاهُ، يَداهُ،

وقالوا:

ذَبحوهُ،

أُحرِق بعد الذَّبحِ،

وقالَ عليٌّ:

«خُوطِبْتُ بموتِ البَحرانيّ،

جميلٌ

أنْ تُقْتَلَ، يا يَحيى:

كنتَ أُكولاً».

- ث -

يَنْبغي أن تُسافرَ في أعين الجُنْدِ

في اللّيل - تَلْتَفُّ أعناقهم

بمناديلهِ،

لِتَرى كيف تمتزج الأمكنَهْ

بتباريحهم،

بزفير الزَّمانِ،

وحَمْحمةِ الأحصنَهْ.

* باسْم ماضٍ وآتٍ
أكلوا كَي يُصَلّوا، وصَلّوا لكي يأكلوا
ما الذي تفعل الصّلاة
لِتُحرِّر من موتها - الحياة؟

(١) يحيى بن محمد البَحرانيّ. وعليّ هو صاحب الزنج، عليّ بن محمد.

٢٥٨هـ.

- ب -

ألفُ سَوطٍ
وعشرونَ، كان جزاءَ
لأبي فَقْعسٍ[1].
والجريمَةُ شَتْمُ السَّلَفْ:
إنّها عِبْرةٌ لِلخَلَفْ!

- خ -

مِثْلَ فرسانِها،
تتأبّى الدُّخولَ إلى حَلَباتٍ
لا تكون خُطَاها مفاتيحَها
وأقول هنا ما أقولْ
لا لِشيء
سوى أن أحيّي
هُيامَ الخيول بِفُرْسَانِها،
وأُحَيّي الخيولْ.

* عبَق الزّهر ثوبٌ
يُجرّر أذياله الهواءْ
في رواق الفضاءْ.

(١) رجل من سامرّاء، مجهول الاسم.

٢٥٩هـ.

- ١٠٦ -

قالَ نبيّ الزّنج[1]: صراطي
لا بيضٌ،
لا سودانٌ -
الثّورةُ ميثاقُ الأشياءِ
والفاسِقُ مَنْ لا يُؤْمِنُ
أنّ السّودانَ كمثل
البيض،
سواءْ.

- ذ -

كلَّ ليلٍ،
أقول لنفسي: خُذيني وسيري
في الجهات الخفيّة مِن جسدِ الشّيء،
مِن هذه الصُّوَرِ الزّائلاتِ،
وأصرخُ: واحيرتي! علّميني
عَلّمي كلماتي، يدَيّ
كيف أكتبُ هذا الخفاءَ الذي يَتحارَبُ
في حلَبٍ وقُسَنْطينةٍ،
ويروح ويأتي، ويَعلو ويَهْوي
ويَرينُ على كاهِليّ؟

* لا تُضايقْ
سَفَرَ العِطر من كُمّهِ
إلى حَقْلِهِ.

(١) علي بن محمد، الذي قاد ثورة الزّنج مِن بداياتها سنة ٢٥٥هـ، حتى نهايتها، سنة ٢٧٠هـ. هكذا استمرّت أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، وستّة أيّام.

٢٥٩هـ.

قال نبيّ الزّنجِ أَتْنِي
سورٌ
غابَت عَنّي -
كانت تَجْري
فوق لسانيَ ماءً عَذْباً،
منها سبحانَ،
ومنها الكهفُ وصَادٌ.

*

ضِقْتُ بِسوء الطّاعةِ،
لكن
أَيْنَ، وأَنّى امضي؟

- ض -

نقطةٌ من دَمٍ،-
أَتُراهُ الحِصان الذي كان يُومئُ
فيما يُحَشْرجُ، أم ذلك الفارِسُ؟
لا تَسَلْ.
لم أَجِئْ كي أُشاهِدَ قَبْراً ولا جُثَّةً،
لم أَجِئ كي أذكّر نفسي
بنيرانها وأحوالِها،
لم أجئ كي أقول: البلادُ صلاةٌ لسِجّانِها
وسجودٌ لأغلالِها.
لا تَسَلْ،
لن أجيبكَ، يا أيّها الحارسُ.

* لا يريد الصّحارى، يريد الطّريقَ إليها
لا يريد الطّريقَ إليها،
لا يريد سوى بُعدها وسوى صَمْتِها.

٢٥٩هـ.

*

هوذا غيمٌ
يأتي ويظلّلني.
رعدٌ، صَوْتٌ مِن أغوار
الرَّغْدِ، يخاطبني:
سِرْ لِلبَصْرَهْ!
ما أكرمَ سيري،
ما أكرمَ هذي الفِكْرَهْ!

*

جَبَلٌ سُمّيَ بالشّيطانِ،
ولا يَسكنهُ
إلاّ شَيْطانٌ ـ
فيهِ، كان مقاميَ، وَخدي
والصّحراء لِجنْدي.

ـ ظ ـ

لا أريدُ من الرّوم شيئاً
لا أريد سواها ـ
طفلةً في الطّريقِ
لا أريد سوى جرحها
لا أريدُ من الجرح إلاّ
أن أمرّر كفّي عليهِ
وأُبَلْسِمَ أوجاعَهُ
لا أريد سوى أن أقول: الحريقُ
الذي يتأجّج في جرحها،
حريقي.

* في فم الأرض سمٌّ غريبٌ
يجرُّ الهواءْ
بيدٍ تتبرّك باللَّهِ والأنبياءْ.

٢٥٩هـ.

*

هوذا،
بين الأعرابِ، يقلّبُ
أوراقَ الصّحراءْ،
مَعَهُ مَوْلى[1]
مِنْ أهْلِ الأَحْساءْ.
مَعَهُ مولًى آخَرُ[2]
قادَ الجيشَ
لِدَحْرِ الأعداءْ.

- غ -

(رسالة)

«لا أريدُ الصّعودَ إلى جَنّةٍ شهيداً:
لا لِحوريّةٍ، شَهواتي
بل إلى امرأةٍ أتنشّقُ أعضاءَها
أتلمّس أعضاءها
مثلما أتلمّس طيناً.
فأنا عاشِقٌ لطينِ نَمَاني،
ويعزّ على فِطْرتي
أنْ يضيعَ المنيُّ العزيزُ الرّواءْ
في سريرِ السّماءْ».

* زهرةٌ طافِيهْ
فوق ماءٍ: لها حين تنأى جسدٌ باذخٌ
ولها حين تدنو قدمٌ حافيهْ.

(١) هو يحيى بن محمد الأزرق، ويُعرف بالبحراني وقد سبقت الإشارة إليه، وإلى مقتله.

(٢) اسمه سليمان بن جامع.

هوامش



ومَــنْ يَــكُ ذا فَــمٍ مُــرٍّ مــريــضٍ
يَــجِــدْ مُــرًّا بــه الــمــاءَ الــزُّلالاَ.

المتنبي

ابن الرومي

هو أبو الحسن عليّ بن العباس بن جريج. مات سنة ٢٨٣هـ.

بهدوءٍ، بِرِفْقِ
أخذَ الضّوءُ فرشاتَهُ
أخذ الضّوءُ يرسم في الحقل قبراً
بحروفٍ من العشب، حول الحروفِ
زهورٌ: لَيْلَكٌ
وورودٌ
وفي آخر الحقل بيْتٌ
يتمايل حزناً كعبّادِ شمسٍ.

أيّها الضّوء، من أين تعرفُ أنّ الذي يسكن
القبرَ، حُبٌّ؟

البحتري

مات سنة ٢٨٣هـ.

سكبت وردةٌ عِطرَها
في يد الرّيح ـ تقرع بابَ المساءْ
لملاقاتهِ.
فوّض الشاعِر المنوَّر للرِّيحِ أوراقه ـ
لم يقل: كيفَ؟ لم يتساءلْ
لم يَشَأْ أَن يعكّر هذا اللّقاءْ.

أحمد بن الطيب السّرخسي

اسألوا السيّدَ الخليفَة:

هل كان يعقل؟

هل كان يعرف ماذا يقول اسمُه؟

واسألوهُ:

ما الذي كان يهرفُ عن دينهِ علمُه؟

ولماذا،

إن يكن قرشيًّا ومن وُرَثاءِ النبيْ

قَتَلَ السّرخسيْ؟

توفي سنة ٢٨٦هـ. فيلسوف قرأ على الكندي. قيل: قتله المعتضد لأنه دعاه إلى الإلحاد. وكان مستشاراً عنده. ترك مؤلّفات عديدة بينها: المسالك والممالك، كتاب السياسة، كتاب الموسيقى الكبير، كتاب الشاكّين وطريق اعتقادهم، كتاب النفس، وصف مذهب الصّابئين، كتاب أنولوطيقا، كتاب قاطيغورياس، كتاب الأرتماطيقي والجبر والمقابلة، المدخل إلى صناعة النجوم، القيان، اللهو والملاهي.

وقيل: اخترع أبجدية صوتية في أربعين حرفاً لكي تُؤدّي بالعربية أصوات اللغات الأجنبية، المعروفة في عصره (الفارسية، السريانية، اليونانية).

إسحٰق الأحمر

توفي سنة ٢٨٦هـ.

كوفيٌّ ـ زعموا

أنّ له أوراقاً

سَمّاها بعض القرّاء كتاباً

فيه زندقَةٌ، وثنوا: فيه قَرْمَطَةٌ.

وَرَوَوا: كان له أصحابٌ

سمّوهم إسحاقيّهْ

كانت لهمُ في لَيْلِ عليٍّ

صورٌ ومعانٍ

لا تفصح عنها

إلاّ رؤيا لاهوتيّهْ.

ابن القطّ، أحمد بن معاوية

توفي سنة ٢٨٨هـ. من بيت الخلافة الأموي في الأندلس. كان عالماً بالهيئة والنجوم. ثار وهاجم جليقية Calice، ودعا أهلها إلى الإسلام. خذله من معه. قُتل ونصب رأسه على باب سمورة.

لا النّجومُ ولا هيئة الفلَكْ
نصرَتْكَ، اسْتَعنْتَ بما لا يعينُ
ومَنْ لا يُعينُ. لماذا
خنتَ أبهى وأقربَ عَوْنِ
لما كُنتَه ـ مِقْولَكْ؟
وأرى رأسَك الآن يعلو ويَصرخ:
ها، هيتَ لَكْ
أيّهذا الفلَكْ.

ثابت بن قرّة

في الأخبار أنّ له نحواً من مئةٍ وخمسين كتاباً في الطب والفلسفة والعلوم والهندسة والموسيقى، وأنه كان يحسن أكثر اللّغات الشائعة في عصره. توفي سنة ٢٨٨هـ ـ ٩٠١م. كان طبيباً وفيلسوفاً ورياضيًا.

كان بين العلوم وما بينه جسورٌ
تَصِلُ النّار بالسّحابِ
وبالبدعة الصّلاةْ،
ألهذا،
كان يؤوي العناصِرَ في أصغريْهِ
ويعرف أسرارَ كلّ اللّغات؟

أبو علي نَطّاحة

توفي سنة ٢٩٠هـ. من الكتّاب المترسّلين. مات قتلاً. له «صفة النّفس»، وهي مجموعة رسائل من ألف ورقة، كما يقال، وله «طبقات الكتّاب».

«صِفَةُ النّفس» تبكيكَ و «الطّبقاتُ»، ولكن
لا الرّسائل نَطّاحَةٌ، لا الكلام رماحٌ
والسيوف التي تقطع الرّقابْ
تتربّص في شرفات الكتابْ.

هل تقول لمن سوف يخلف ذاك الشرار الذي قدحته
خُطَاكَ: اعتبرْ، واتّعظْ؟

هل تقول لأوراقكَ ارسميني
أثراً من جراحِ
رَقْشَ عشبٍ على جَسدٍ من ترابْ؟

ابن وحشيّة

توفي سنة ٢٩١هـ. كلداني أو نبطي، عالم بالكيمياء، ينسب إليه الاشتغال بالسحر والشعوذة، وينعت بالصوفيّ. من كتبه: ترجمة كتاب الفلاحة النبطية، شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام.

أيها العالم السّاحرُ المستهامْ
ما الذي قالت الكيمياءُ، ترى كان عقلكَ في وجهةٍ،
وقلبكَ في وجهةٍ ـ
حين أوغلتَ فيها؟ ولِمَ السّحرُ؟ شَعْوذتَ ـ
قالوا. وتصوّفْتَ: قالوا،
وخلطتَ الكلامْ
بِتخاييلكَ ـ
اصدُقِ القولَ:
مِن أين يأتي إلى النّاسِ هذا الظّلامْ؟

ابن المعتز

قتل سنة ٢٩٦هـ.

وَلَهٌ فِيَّ يَنْقَضُّ يَشْطَحُ
حتّى كأنّ عروقي له مُنْحَدَرْ
وَلَهٌ ـ أتعلّم فيهِ
كيف تحيا سواءَ
لغتي وتباريحُها
والحقولُ، وهذي الغيومُ، وتلك السّماءُ،
وهذا الشّجَرْ.

ابن الراوندي

قتل صلباً سنة ٢٩٨هـ ـ ٩١٠م. قيل: ترك مئةً وأربعة عشر كتاباً لم يصل شيءٌ منها. بقيت أسماء بعضها: الدامغ للقرآن، التاج، فضيحة المعتزلة، الزمرّدة، نعت الحكمة، قضيب الذهب.

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٢٩٨هـ: «مات في هذه السنة أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين البغدادي المعروف بابن الراوندي الماجن، المنسوب إلى الهزل والزندقة، كان أبوه يهوديًا فأسلم هو. فكانت اليهود تقول للمسلمين: «احذروا أن يفسد عليكم هذا كتابكم، كما أفسد أبوه علينا كتابنا». صنّف كتباً كثيرة في الزندقة، منها: بعث الحكمة في تقوية القول بالاثنين، وكتاب الدامغ للقرآن، وكتاب الزمرّدة، والتاج والفريد. وأمره في الزندقة والمخرقة أشهر من أن يذكر. عليه اللّعنة والخِزْي».

ـ ١ ـ

وصفوهُ: «غايةٌ في الذّكاءْ»
قِدَمُ الكونِ ـ لا صانِعٌ، لا نبوّةَ: بعضٌ
مِن مقالاتهِ.
كان يطعنُ مستهزئاً
بالشرائع والأنبياءْ.

ـ ٢ ـ

قال يوماً لإحدى مريداتهِ:
«بعض روحيَ يحيا
في كتابٍ، وبعضٌ
في كتابٍ، وبعضٌ
في مكانٍ غريبٍ لا طريقٌ لَهُ.
هل أصدّق وَهْمي
أم أقول: بَلَى، لستُ حيًّا
ولا أتحرّك إلا بجِسْمي؟».

VII

وما تَسَعُ الأَزْمَانُ
عِلْمي بِأمْرِها . . .

المتنبي

٢٥٩هـ.

*

هُوذا[1] في البَصْرة،
كان النّاس سُكارَى
بَطراً، أو كانوا
يُحْتَضَرون هَواناً.

حَرّك فيهم جَمْرَ الرّفْضِ،ـ
دَعَا الشّبّانَ (وكان يقال لهم: غِلْمانٌ). كثروا،
قامَ خطيباً فيهم:
«سنبدّلُ هذي الحالْ
ويكونُ لكم
ما تحتاجون إليهِ ـ
أرضاً، أو مالْ».

(١) الإشارة إلى قائد الزنج.

ـ أ ـ

مِن أينَ، كيف تَمشَّتْ في دمي حلَبُ؟
سقيتها لغتي، حتى إذا سَكرت
تمرّدت، وسبَاها سُكرها العجَبُ
هل جئتُها لأرى نفسي، كما فُطِرت
أم جِئت أوغل في نفسي، وأغتربُ؟
لقامة الشعر تَزْهوني وتلبَسُني
خلعتُ ثوبيَ: ليل الكونِ مؤتَلِقٌ
بِما أبوحُ، وعطر الخَلْقِ مُنْسَكِبُ.
آخيتُ في كيمياء الشعر أخيلتي
حتّى تمازج فيّ الرّومُ والعربُ
لا نارَ فِيَّ إذا لم تشتعل مطراً
لا ماءَ فِيَّ إذا لم يُجْره اللّهبُ،

مِن أين، كيف تمشّت في دمي حلبُ؟

* أوّلوا أنّهُ
لا يقول بما قاله الأنبياءُ
أوّلوا أنّه
يتهيأ كي يُصلحَ السّماءُ.

٢٥٩هـ.

*

في عَسْكرِهِ،
قال لكلّ مواليهم:
«أسْرَفْتُمْ في قهر
الغلمانِ، ولَوْ لَمْ يشفَعْ
أصحابي فيكم،
لَقتلتكمُ.

هَيّا، انطلقوا،
لكن،
إيّاكم أن تَرْوُوا
شيئاً مِمّا شاهَدْتُمْ
عندي».

- ب -

أُدْرِكُ الآن أنّيَ في حيرةٍ في عَذابْ:
لا أرَى ما يميّز هذا الحجَرْ
عن بوارقَ خَلاّبةٍ.
أأُسمّي
واقعاً ما أرَى، أم خيالاً؟
أم أقول: النّظَرْ
هو طوراً ترابٌ، وطوراً
سرابْ؟
كاد أن يَصرخَ التّرابُ: انفجِرْ، أيّها الماءُ،
لم يَبْقَ غير الخرابْ.

* ربّما،
لم يعد أيّ معنىً لرأسكَ، إلاّ
أن يكونَ مرُوقاً.

٢٥٩هـ.

*

قال رُمَيْسٌ[1]:

ـ «غِلمانٌ أُباقٌ،
وغداً يمضون، فلا يُبْقُونَ
عليك، ولا يُبقونَ علينا.
لا تأخذهُمْ، خُذْ مالاً».

ـ «للعبد الحَقُّ بضَرْب
المولى»، قالَ، وأكملَ:
«قوموا، وَلْيضربْ كلُّ
مولاهُ بجريدِ النَخْلْ،
لكمُ أن تختاروا فيهم
ما شِئتمْ ـ
إلاّ القَتْلْ».

- ج -

حضَنْتُ عَصْريَ ـ أطويه وأنشرهُ
أخطُّه وأغنّيهِ، وأَرْتَجِلُ
أزورُ أرضَ صباباتي، أطوفُ بها
أُقيمُ، أنقضُ ما أبني، وأَرْتَحِلُ
منوَّراً بدمي، مستنفِراً وَلهي
كأنني برحيقٍ ساحرٍ ثمِلُ،
طوفانُ حبّيَ ميثاقي، فلا قلَقي
يَبْلى، ولا جُرحيَ الخَلاّق يَنْدمِلُ.

* يا هذا الفَطِنُ، الجوّابُ، الحَذِرُ النّملْ،
قُلْ لي، علّمني
كيف تُدحْرِجُ قرصَ الشّمْسِ،
وكيف تسوسُ الرّملْ؟

(١) رسول الموالي إلى قائد الزّنج.

٢٥٩هـ.

*

يومَ الفِطر،
هَبّ الزّنج جميعاً، وانضمّوا
مُنقادين إليهِ في مِثل السِّحر.

حَيّاهم،
ودعا لِصلاةِ الفِطْر، وصَلّى
صَلّوا، قامَ خطيباً
فيهم.

أنكر ما كانوا فيهِ
مِن سوءِ الحالِ، وأقسمَ
أن يُنْقِذهم،
ويُملّكهم ـ
أموالاً وبُيوتاً.

- د -

أَلتحيّةُ مِن أوّلِ
لِلسّواد لأهل السّواد لهذا النّهارِ
الذي بدأ الآنَ يَسْودُّ فيَّ/
عرفتُ السّوادَ الذي يتحدّر من جسَدِ
الشمس، حيناً، ومن جسد اللّيلِ،
حيناً،
وأعرف جنس الثّقوب التي فيهِ، أعرفُ
ما تُخبىء الثقوبُ / السّوادُ مدَانا
والسّوادُ مواثيقُنا وهَوانا.

* أَلحقولُ الأزقّةُ من وقع أقدامِنا
تجفلُ،ـ
أَتُراها أعاصيرُنا
بدأت تُقبِلُ؟

٢٥٩هـ.

*

قال نبيّ الزّنجِ:

انْسالَ الحِبْرُ الأسودُ

فوق صحائِفِ هذا

العالَمِ:

ليس هناكَ بياضٌ

إن لم يَلْقَحْهُ

ألَقُ زِنْجيٌّ.

- هـ -

أتيقَّنُ: هذا دُواري

ليس لي مِن مكانِ.

حلَبٌ تتضاءَلُ، والأرضُ

ضاقَتْ.

سأفوّض أَمْري لِعَفْو الفضاءْ

سأقول لنفسيَ: كوني

كُرَةً، والْبَسيني

واهْبطي واصْعَدي

في الظُّنونِ على دَرج الكيمياءْ.

* هو هذا دَمُ اللاّنهايَهْ

دافقاً ـ تعجبونَ؟ رويداً

بعدُ، لم يُولد الكلامُ، ولم

تبدأ الحكايَهْ.

٢٥٩هـ.

*

كان الجيش بدون سلاحٍ.

بدأوا بثلاثةِ أسْيافٍ:

سَيْف عَليٍّ،

سيْفِ ابْنِ أَبَانٍ،

سيف محمّدْ.

كان النّصر حليفاً لهُم

في أول حَرْبٍ خاضُوها.

غنموا أموالاً وسلاحاً

قتلوا أعداءَ. قالوا:

«حُملت كلّ رؤوسِ المقتولينْ

فوق بغالِ المهزومينْ».

- و -

حَلَبٌ -

كيف أَقْفوكِ، أرَى زَهْريَ في حوضكِ

أشجار لقاحاتكِ، والطّلْعَ كما

كان، ولا يجمعنا الآن سوى

جَمْر الشّتَاتْ؟

هوذا أُشْعل قنديلَ ظنوني

هوذا أقرؤكِ الآن، وأَسْتَقْرىء ما

كنتِ

وأَسْتَطلع أغوارَكِ في كلّ

الجهاتْ...

* نملةٌ خيّمت

فوق رأسِ الجَبَلْ،

تتساءل: مِن أين تؤتى السّماءُ،

وما سيكون العمَلْ؟

٢٥٩هـ.

- ز -

قَصْرٌ من الرّيحِ يَطْويني وينشرني،-
لم يَرْوَ مِن حلَبٍ ظنّي، ولستُ بلا
شَكٍّ يُلِحُّ، وما ضاقَتْ بها سُبُلي.

*

قال نبيّ الزّنجِ:
الرّغبةُ في الأشياءِ
دَمُ الأشياءِ.

وها أنا بين أيّامي وأَخْيِلتي
مُبعثَرٌ بَطِرٌ هَشٌّ وبي شَغَفٌ
يطوفُ يبحث مجروفاً بلهفتهِ
كأنّه يقنصُ التّاريخَ في حجَرِ
ينامُ في الرَّمْلِ، أو في راحتيْ طَللِ.

* واضحٌ مُبهمٌ، لا يبوحُ ولا يكتمُ:
شبَحٌ للكلام، لأَحْرف وَصْلٍ وفَصْلٍ،
على وجههِ يُرسَمُ.

٢٥٩هـ.

*

فوضى ـ خاف السّودانْ
أن يُرجعهم لمواليهمْ.
جاءَ إليهم، طَمْأنَهُمْ.

قال: «ائتوني، وأحيطوني،
ليكن حوليَ منكم جمعٌ
وَلْيُفتَكْ بي،
إن أحْسَسْتُم مني غَدْراً.
لم أخرج أبداً لِحطَامٍ
أو عَرضٍ من أعراض الدّنيا.
لم أخرج إلاّ غَضَباً لِلّهْ،
ولما يَمْلأْ هذي الأرضَ
فساداً».

-ح-

الآن، كلانا
يشكو ظُلمَ الآخر، يشكو
بعد الآخر عنه.
يسألُ كلٌّ مِنّا:
كيف، لماذا لا نتساوى؟
مِن أين سنبدأُ؟ مِنّي؟ حسناً
لا أملكُ إلاّ الجرحَ فَخُذْهُ
كي نتقاربَ، كي نتساوى.
وأدلّكَ: حدِّقْ، هذي طرُقي
أكداسُ غيوبٍ ومراراتِ
هل تسلكها
كي نتلاقى، كي نتقاربَ، كي نتساوى؟
أتُرانيَ إن أعطيتُكَ ملكيَ هذا
نتباعَد، أم نتقاربُ، أم نَتساوى؟

* الضّياءُ الذي حملته إلى الشارع
الشّمسُ: بعضٌ
أخذته المفارِقُ، بعضٌ
أخذته الزّوايا.
بقي العابرون يسيرون في ليلهم.

٢٥٩هـ.

*

«لا تنتهبوا[1] شيئاً
مِن هذي القَرْيةِ،
لا تَسْبُوا أحداً.
مَنْ يَفْعَلْ،
يُقْتَلْ».

ـ ط ـ

هذا زمانيَ؟ لا، لا شيءَ يربطُني
بِحبلهِ، لا مقالاتٌ ولا كتبُ
مَدَّ الفرات يديهِ، ضارِعاً لِغَدٍ
يرجّهُ، وبكت أنْفاسها حلَبُ
لم يَبْق مُتّسَعٌ لِلّيل في جَسدي
كأنه غابَةٌ سَوداءُ تَلْتهبُ
تركت شِعْريَ في جرداء قاحلةٍ
يَسْري، وراحلتاه الرفْضُ والغضَبُ
لي من دُجاهُ كشوفٌ تَسْتضيءُ بها
أفلاكُ نفسي، ولي مِن نورهِ حجبُ.

* بين أفراحه ينامُ،
وفي حزنه يَستفيقْ
هو كالأرضِ: جسمٌ يظلّ جديداً
وجرحٌ عتيقْ.

(١) الكلام لقائد الزّنج. والقرية تدعى الجعفرية، على نهر دجلة.

٢٥٩هـ.

*
كان لعليٍّ أصحابٌ
ينضمّون إليهِ في
عُزلَتِهِ،
يتساقَوْنَ الخمرَ،
وكانت
حِلاً في عَسْكرِهِ.

- ي -

لا أُريدُ طمأنينةً، بل أُريد التّرنّحَ
في طرَفِ الخيطِ،
في آخر الأفقِ، أو بين
مَهْوَى ومَهْوى.
هكذا عِشْتُ حربيَ - حَربي
لم تكن خارجاً،
مع الآخر الصّديقِ، أو القاتلِ،
حَرْبيَ في داخلِي.

* لم يَجِئْهُ من العيش إلاّ التقلّبُ
في تيه جُرْحٍ وداءْ،
لم يَجئهُ من التيهِ إلاّ فضاءٌ يقودُ
الفضاءْ.

٢٦٠هـ.

قال نبيّ الزّنجِ:

العالَمُ ـ هذا العالَمُ،

عهدٌ

مع طغيانٍ عاهد عَرْشاً،

وأنا مِن هذا العهد بُراءْ.

*

أوّلُ سَبْيٍ[1]:

غِلمانٌ،

مالٌ وحِليٌّ،

ذَهَبٌ

ونساءْ.

ـ ك ـ

مِن زمانٍ، وتعرف عنّيَ هذا،

أتشهّى الرّحيلْ

أيّها الفارسُ المتردّد في داخلي، يا دمي.

هوذا أنتَ، في ذُرواتِ الترحُّلِ ـ عيناكَ،

صدركَ، أحشاؤكَ الوديعةُ

محروقةٌ،

والجراحُ التي مَزّقتك ينابيعُها.

كان يُغْريك هذا الدُّخولُ إلى كلّ ما لا يُطاقُ

وها أنتما الآنَ في وحدةٍ:

أنتَ والمستحيلْ.

* أعاره اللّيل عينيهِ، وأسْلَمَهُ
خيط الرّؤى لفضاء الحلم والصُّوَرِ
لم يقرأ الأرضَ إلاّ وَهْيَ حانيةٌ
على الرّمادِ، ولم يكتب سوى الشَّررِ.

(١) من قريتي القادسيّة والشّيفيا، لأنهما لم تُسلّما له قاتلَ أحد أصحابِهِ، كما ذكر الطّبري.

٢٦٠هـ.

*

حَرّم شُرْب الخمر، لِئلاّ
يُشغلّ مَن كانوا معه
بحروبٍ أُخرى
فيما بينهم.

*

أَسْرى،
ورؤوسٌ قُطِعتْ.

ـ ل ـ

كَبُرت خطواتي
ودروبي صَغُرَتْ:
أين أوجّه وَجْهي؟
مِثْليَ ذاكَ الجَبلُ الضّخْمُ: له آفاقٌ
وله ذُرواتٌ.
كيف اسْتَقْصَى أسراري
وتغلغلَ فيها،
واسْتَنْسَخَ همّي،
كيف تَماهَى مع أحلامي؟

* تعبت قدَما نهْرِ قويْقِ. لن يَشْفَى بعد الآنِ. قويْقٌ شيخ نباتٍ، طفلُ حقولٍ،
لم يحمل غيرَ صفاء الماءْ،
من أين أتاه ذاك الدّاءْ؟

٢٦٠هـ.

*

سفُنٌ:
بعضُ الحُجّاجِ، وتُجّارٌ.
قالوا: لسنا
مِنْ أصحابِ السُّلطانِ،
فَأُطْلِق كلٌّ مِنهم.

*

قال نبيّ الزّنجِ: أفيقوا،
هذي الأرض قطافٌ
والرّيحُ رُخَاءْ.

- م -

أتهجَّى البلادَ:

اليمينَ الشّمالَ الوراءَ الأمامْ

أتهجى العلوَّ، الأَسافِلَ -

ما كانَ مِن كلماتٍ

ومَا لم يكن.

وأنادي، وأُصْغي، وأشعرُ أنّي
مُوثَقٌ بخطايَ، كأنّي أنادي
غيابي، وأنادي الظّلامْ.

* أأقولُ: أفْرغني دمي مِنّي،
ومزّقني ستاري؟
حلبٌ تئنُّ معي - تحلّ إزارها
بيدي، وتدخل في إزاري.

٢٦٠هـ.

*

نَهْرٌ شيطانٌ[1]

ضَلّلني عن صَخبي

ضَلّلهم عنّي.

أَمْشي ـ في رِجْليَ نَعْلٌ

سِنْديٌّ

وعمامتيَ انْحَلّتْ.

أمشي ـ قَصّرْتُ. تَحيَّر

صَحبيَ مِن فَقْدي.

سَكَتُوا حين رأَوْني.

أَخَذَ البَصْريّون متاعاً

مِنّي:

كتباً، إِصْطرلاباتِ...

(١) في إحدى المعارك على نهرٍ يُسمّى «نهر شيطان». (الطبري).

ـ ن ـ

عالَمٌ ـ مَشْهَدٌ

غيرَ أنّ الممثّلَ والمسرحيّةَ

والناظرينَ إليها

والذين أتوا قَبلهم

والذين سيأتون مِن بَعْدِهم،

كُرَةٌ في فراغِ

والفراغُ المكانْ ـ

عجباً! كيف لا يتوقّفُ

ذاك الدَّمُ البهلوانْ؟

* هل غدت نارهُ

مِثل ماءٍ على المائده؟

هل أقول التحيّة من أوّلٍ، أم أقول

التوهّجُ من أوّلٍ،

لِبَراكينهِ الرّاقده؟

٢٦٠هـ.

*

ساعَةُ عُسْرٍ!

يا ربّ أَعِنّي!

... ورأيتُ طيوراً بيضاً

تَتلقَّى جمع الأعداءْ

غرقت منهم طائفةٌ

قُتلت طائفةٌ

هربت طائفةٌ

أكثرُ مَنْ في هذا الجَمْع أُبِيدوا.

يَوْمٌ سَمّوه يومَ شَذَا[1] -

جاؤوا برؤوسِ القَتْلى،

جاء النّاس ليأخذ كلٌّ منهم

رَأْسَ أَبٍ،

أو رأسَ ابنٍ،

أو رأسَ قريبٍ.

- س -

كلٌّ يَجهرُ: «حَقًّا،

لِلَّهِ،

لِسيفِ الدّولةِ،

للأمراءِ وللفقهاءِ، الأَمْرْ»،

ويتابعُ كلٌّ:

«أحني رَأْسي -

مُلكيَ هذا الفَقْرُ، وهذا

الأَسْرْ.»

كلاّ، كلاّ يا آدَمْ

«مملكتي ليست

مِن هذا العالَمْ».

* إغواءُ مُفْتَرقٍ ووسوسة اختبارِ:

أهناك ما يختارُه؟

أيفرُّ من طينٍ إلى طينٍ، ومن نارٍ لنارِ؟

(١) الشَّذَا جمع شذَاة، نوعٌ من السّفن الخاصة في البصرة، في ذلك الوقت.

ويوم الشّذا: «قُتِل فيه من بني هاشم جماعة من ولد جعفر بن سليمان وأربعون رجلاً من الرّماة المشهورين في خلق كثير، لا يُحصى عددهم». (الطبري).

٢٦٠هـ.

*

ما لم يُؤخَذْ منها
وضعوه فوق بساطٍ
مِن خشبٍ.
قذَفوهُ في الجَزْرِ إلى
البَصْرَهْ
جاء النّاسُ إليهِ
كُلٌّ
يأخذُ رأساً يعرفهُ.

-ع-

حَبِلتُ أمّهُ، وعنيتُ الأميرَ،
(خِلافاً لما تعرف النّساءُ)،
كما تحبلُ الغيومْ
أرضعتْهُ (خِلافاً لما يعرف الآخرون)،
كما يرضعُ الضّوءُ ثدي النُّجومْ.
هكذا يَرِثُ الحَرْثَ والزَّرْعَ،
يمتلك الأرضَ والعالمينْ
باسْمِنا، نحن عبدانَهُ
وأعوانَهُ،
المؤمنينَ بهِ، التّابعينْ.

* تلك ناري وحَرْبي:
لا أُتابعُ إلاّ هوايَ:
ولا عَرش لي غيرُ قلبي.

٢٦٠هـ.

*

قال نبيُّ الزنجِ:

بيوضُ كواكبَ

تُحضَنُ في أعشاش

الرَّفْضْ،

سَتُعيّد عيد الأَرْضْ.

- ف -

عندما تكتب الشّمسُ شِعرَ الفضاءِ،

وتُسألُ عمّا تبقّى

عندما يلبس الفجرُ تاجَ الزّمانِ،

ويكتب تاريخَهُ،

ويُسأل عمّا تبقّى،-

ما الذي يتبقّى مِنَ الرَّانِ من تَلِّ بطريقَ،

أو قلعة الحدَثْ،

غيرُ تلك الجُثَثْ؟

* تجلس اللاّنهايةُ

خَرْساءَ في وكْرِ

نَمْلِ.

٢٦٠هـ.

*

ما أَوْهَنهم ـ أهْلَ البَصره
لا تَجمعهم أيّة فِكره!
يا رَبِّ، أعني
في تعجيل خراب
البَصْره!

خُوطبتُ: «البَصرةُ بين
يديكَ رغيفٌ. كلهُ،
وابْدأْ بالأطرافِ».

تراءى
نصفُ رغيفٍ، مكسورٌ.

قلت: كمثل كسوف القمرِ،
اليومَ، غداً، أو بعد غدٍ.

- ص -

ـ غَنِّ، صَلِّ، ابتهجْ
للمكان الذي صار فينا زماناً
للزَّمان الذي صار فينا مكاناً
غنِّ، صَلِّ، ابتهجْ للسّقيفَهْ:
لا تزال إلى الآنِ ممدودةً
كي، يَجيءَ الخليفَهْ.
ـ تتحدّثُ عن وطنٍ، أم بقايا دِمَنْ؟
وطني حيث شعريَ حرٌّ، وبيتيَ حرٌّ،
وحبّي حرٌّ،

ـ غَنِّ، صَلِّ، ابتهجْ
لا مكانٌ لهذا الوَطَنْ.

* إمْضِ، طَمْئِنْ رؤوسَ العبيدْ
سيفه ليس وقفاً على القَطْعِ والبَتْرِ،
فالسَيفُ أيضاً نَشيدْ.

٢٦١هـ.

جاؤوا،
جاءت قبلهم نيرانٌ
في المربد، في زهرانَ،
بَني جِمّانِ
في وَقْتٍ واحِدْ.

أهل البَصرة بين الهاربِ،
والمتبلِّدِ، والسَّاجِدْ.

ذاكَ تمامُ الرُّؤيا
بِتمامِ خَراب البَصْرَةْ!

- ق -

سَرُوجٌ، سِمْنينُ، حصْنُ الرّان، خَرْشَنَةٌ[1]
رؤىً على عتباتِ اللّهِ تَزْدحِمُ
لأَرْسِنَاسَ[2] هديرٌ في جوانبِها
كأنه، حين تَطْغَى، سيلُها العَرِمُ
«ترعى السّيوفُ بها»[3]، فيما تُعانقها
نارُ القتال، «نباتاً إسْمُه اللِّمَمُ».
أَضْرمْتُ جمرة شعري في مواجعِها
حتّى التوى الرّمحُ مِمّا قاله القلَمُ
ولم تك الحرب حربي، كنتُ من وَلَهٍ
قيثارَ حبٍّ، وسيف الدّولةِ النّغَمُ
واليومَ أَهجرُ: هَجْري في تمرّده
بَوْحُ المولّهِ ـ لا شكوى، ولا نَدَمُ.

* ضَعْ يديكَ على وجنتيّ، تأكَّدْ
أنَّ رأسيَ يأسي.

(١) أسماء أمكنة تاريخية شهدت معارك وحروباً بين سيف الدّولة والرّوم.

(٢) اسم نَهر.

(٣) ما بين المزدوجتين للمتنبي.

٢٦٢هـ.

*

قال نبيّ الزّنجِ، غداةَ دخول
الزّنج إليها:
«رُفعت بين يديّ البَصْرَه
أصحابيَ فيها طوفانٌ
لا مَهْربَ منهُ.

ورأيتُ كأنّ ملائكةً
تأتي وتقاتِلُ مع أصحابي.
نَصْريَ، لا مِن بَشَرٍ
نَصْريَ رَبّانيٌّ».

- ر -

ما تكونينَ مِن بَعدُ، يا حلبَ الشّعر،
نهداكِ رَمْلٌ
وعيناكِ معصوبتانْ
كيف لي أن أعودَ إليكِ؟
أخْطأ الفقهاء بما قَوّلوكِ،
وأخْطأَ تأويلهم والبيانْ.
عجباً! خِرْقَةٌ
تحجب الشمسَ عن ناظريكِ.

* أَنْكِرْ ما شئتَ: فضاءَ الشّعر وسرَّ الشّعرْ،
لستُ غباراً،
كي أعلو فيك، وتعلوَ نحوي،
ياهذا العَصْر!

٢٦٣هـ.

*

قال نبيّ الزّنج:

التّاريخ زواجٌ

بين الصّورة والمعنى.

*

ـ هل أنتَ نبيٌّ؟

ـ أُعطِيتُ نبوّةَ هذا الدّهر،

أَبيتُ،

ـ لماذا؟

ـ عِبْءٌ أَخْشَى أَلاّ أَقدرَ

أن أحملَهُ.

ـ ش ـ

حملتُ شَمسي وأيّامي وأسئلتي

ورحْتُ أسْتَقرىء الدّنيا وأَمْتحِنُ،ـ

لا أرضَ، لا وطنُ

إلاّ خُطاكَ تروزُ الموتَ، تفتحهُ

دَرْباً،

وشعرك بيتُ الموتِ، والكفَنُ.

* بَلَدٌ باللّهِ، بكلّ نبيٍّ، شَبِمٌ

عامِرْ

فلماذا يَصغُرُ

يُصبح فِتراً

حين يسافِرُ فيهِ الشاعرْ؟

٢٦٤هـ.

*

قالوا: في واسطَ أعطى
اللّهُ أبا العبّاسْ[1]
أكتافَ الزّنج، انهزموا
وارتاحَ هناك النّاسْ.

*

قالوا: دُعيَ الفاسِقْ[2]
للتّوبة من تقتيل النّاسِ،
ومن تخريب البلدانِ،
وَمِن دَعْوى
لم يجعله اللّه لها أَهْلاً.

لكن، لم يَأْبَهْ
وازدادَ غلوًّا في ثورتهِ.

- ت -

مُرْهَقٌ بسطوعي.

شَغَفي الآنَ، أن أتحوّل ظِلاّ
أنْ أمازجَ سِرّي بسِرّ الهباءِ،
وأُعْطيَ جِسمي
لِقميص الغيابْ،
شَغفي أن أكون، تُراباً
وأدخلَ في كيمياء السّحابْ.

* جَبلٌ لا يريد سوى أن يكون ذراعاً،
لِسماءٍ،
لا تريد سوى أن يقال لها: أنتِ
خَضْرٌ.

(١) هو ابن أبي أحمد المتوكّل.

(٢) «الفاسق»، «الفاجر»، «الخبيث»... إلخ، من النعوت التي يطلقها الطبري على قائد الزّنج، وداعيه إلى التوبة هو أبو أحمد بن المتوكّل أي الخليفة الواثق.

٢٦٥هـ.

*

قال نبيّ الزّنج:

الطّوفانَ الطّوفانْ

كي تغرقَ مملكة الطّغيانْ.

*

قالوا: سيفٌ، رمحٌ، قوسٌ

عَرّاداتٌ ومجانيقٌ

مِقلاعٌ وحجارٌ -

ذاك سِلاحِ الزّنج،

- وكيف، إذنْ

فَرّوا؟ فَرّ عليٌّ؟

- ث -

هذا الصّباح - رمَى ماضٍ فريستَه

في نَحْرِها، وبكى رَبٌّ على صَنَمِ

دمٌ يُضَرّج أقداماً وأقنعةً

وثائرون يرون الشحم كالورمِ

يؤرّخون لآتيهم بلا لغةٍ

ويُنشدون لماضيهم بلا كَلِم

أتيت أسأل عن مَعنى، فأحدقَ بي

سَيْفٌ، وشرّدني في صمتهِ قلمي -

«أتَى الزّمانَ بنوه في شبيبتِهِ

فَسرّهم، وأتيناه على الهَرمِ».

* تاريخٌ يمشي:

بين يديهِ

تمشي الأشياءُ

من دون طريقٍ، من دون ضياءٍ، من دون فَضاءْ.

٢٦٦هـ.

*

حُوصِر جيشُ الزّنج،
اسْتَأْمَنَ بعضٌ،
بَعضٌ أُعطيَ مالاً،
وكثيرٌ قُتِلوا.

قالوا: حَزوا للزّنج
رؤوساً
لم يُحصُوها.

- خ -

مَنْ أَسائِلُ؟ ماذا تَهدّمَ؟ هذا
التّرابُ الذي فيَّ؟ ظنّيَ؟ وَهْمَ التوقّع؟
ذاك الفضاءَ الذي كنت سمّيتُه مكاني
واصطفيْتُ أحبّايَ فيهِ، وأشرعْتُ
غاباته لرياحِ الأمَلْ؟
مَنْ أسائِلُ؟ ذاك الغرابَ الذي فيّ؟ أم ذلك
الذئب؟ أم يأسي المرّ؟ أم غضَبَ
الشعر يَصْعَقُ تاريخَ تلك العروشِ،
وتلك المحاريب، تِلك المِلَلْ؟

ما بقائيَ في حلَبٍ، ما العمَلْ؟

* في تَرحالي،
أحمل بين يديّ الرّيحَ،
وأسأل تيهيَ عن أحوالي.

٢٦٧هـ.

*

قال نبي الزّنج: بَهِيٌ
أن تَرْتَدَّ لجذركَ، تُمسي
في مِذْراة الرّيح غباراً.

يا ربّ أعِنّي
كيف أُعايِنُ هذا المشهَدْ؟
أتناسَخُ؟
أهبط في ملكوتِ
ضيائِكَ،
أمْ أصعَدْ؟

- ذ -

الوجوهُ التي حضنتني وأحببتُها تَضيقْ
والبيوت التي شربت ماءَ شعري
وحرّكت جُدرانها
ولهاً وانتشاءً، تَضيقْ،
والمسافة بين الجراحِ وآلامها تَضيقْ.
غير أنَّ المدارَ الصّفيَّ الصّديقْ
في المجاهيل في بوحها
وتباريح إشراقِها،
عاهَدَ الأرضَ فيَّ وفي خطواتي:
لن يضيقَ إليها مساري، لن تضيق الطّريقْ.
آهِ، من أين؟ أنّى، وكيف وماذا؟
أهنالكَ حقّاً طريق؟

* يتنشّق رائحةَ الواقعِ،
عارفاً كيف يدخل في كنهِهِ، كاتماً
سِرّهُ.
ويظلّ يسافر فيه كنجمٍ
يتشرّد في فلكٍ ضائعِ.

٢٦٨هـ.

*

أسْرى ورؤوسٌ
في شَذَواتٍ وسُمَيْريّاتِ.
صُلِبَ الأَسْرى وتَدلّى
في كلّ مكانٍ رأسٌ.
زعموا: كان حصاراً،
فيه نَبَشَ الزّنج الموتى،
دَفْعاً للجوعِ،
وباعوا الأكفانَ وقالوا:
أكَلَ الزّنج نساءً
أكَلُوا أطفالاً.

- ض -

ألسّحابُ رفيقٌ لوجهي، سأحلمُ:
قلتُ السّحابُ ثيابٌ
بتخاريمِ ضوءٍ وظلٌّ.
أيّها الأصدقاءُ، اعذروني، فقد ضعتُ
ما عدتُ أعرفُ. من أين تأتي،
ولا كيف تأتي إلى حِبْركم
كلماتي،
واسْمَحُوا لي - أُحِبّ ضياعيَ
هذا،
أتنوّر سرِّيَ فيه،
وأُسرّح في ضوئهِ خطواتي.

* في دفتر الرّيح بعضٌ من خواطرهِ،
وفي المحيطات بعضٌ من حناياهُ
لوجهه فلكٌ شَطّ المدارُ بهِ
كأنّما صُنعت منه مراياهُ.

٢٦٩هـ.

*

رأسُ نبيّ الزّنج يُحزُّ
ويُلقى
بين يديهِ[1].
رأسٌ مِن أحلامِ
صارَ رماداً.

*

جاء نبيُّ الزّنج يقولُ
الزّنجُ نجومٌ أُخرى
في هذا الشّرْق،
ولهم في كلّ بياضٍ عِرْقٌ.

كان جزاءَ القولِ الحَرْقُ.

(١) الخليفة الموفّق.

- ظ -

حلَبٌ تذهبُ
وأنا مثلها أذهبُ
والظلام هو المستريحُ على عرشهِ،
والضياء هو المتعبُ.
أيّها الكوكبُ الجامِحُ المتفرّد في نَأْيهِ وفي قُرْبهِ،
هل يقول لكَ الضَّوءُ، مِن أين جئتَ،
إلى أين تمضي؟
أم تُرى أنتَ مِثلي، غيهبٌ حائِرٌ
واليقين الذي يتفتَّق، في بعدِنا
وفي قربِنا، غيهبُ؟

* كيف أقول لفكري:
انظر حولكَ أَنْكِر نفسكَ حيث حللتَ
كي تعرفَ كيف أتيتَ وكيف ضلَلْتَ.

٢٧٠هـ.

*

كان نبيّ الزّنج يقولُ
اللّيلُ فضاءُ المعنى
والمعنى لغةٌ
لا لِلشّرْعِ، ولا لِلحدّ،
ولكن
كي تُخْلَقَ ـ بدءاً منها،
لغةٌ أُخرى
ومَعانٍ أُخرى.

-غ-

إنه زَمنُ الابتداءْ
زمَنُ الماءِ يَسْتَنْبِتُ النّارَ،
والرّيح تتركُ أبناءَها للعراءْ
زمنُ المومياءْ ـ
ضارِباً في الجذور، وفي
طبقاتِ السّماءْ،
زمَنُ القيد والحدّ والأرضِ ـ
سابحةً في الدّماءْ
إنه زَمَنُ الابتداءْ
زَمَنُ الخَلْقِ يوغِل في كيمياء الهبَاءْ
زمَنُ الابتداءْ.

* لم تعد حلَبٌ غيرَ ذاك الغبار الذي
قذفته خطاهُ
نحو ذاك المكانِ الذي لا مكانٌ
سِواهُ.

هوامش



أنا الغريقُ،
فما خَوْفي مِنَ البلَلِ؟

المتنبي

سمنون الصّوفي

مات سنة ٢٩٨هـ. سمّى نفسه سمنوناً الكذّاب لقوله:

«فليس لي في سواكَ حظٌّ

فكيفما شئتَ فامتحنّي».

ولأنه كان يطوف على المكاتب ويقول للصبيان: «ادعوا لعمكم الكذّاب».

لن تعرفني

لن تعرف كيف سترسم وَجْهي.

وجهيَ ماءٌ في عاصفةٍ ـ

هل تعرف كيف تحيط بوجه الماءْ

في عاصفةٍ؟

حَقًّا

غاب الشّررُ الخالق عنكَ،

وغابت معَهُ

سُوَرُ الأشياءْ.

أبو القاسم الجنيد

مات سنة ٢٩٧ أو ٢٩٨هـ، «كان إمام الدنيا في وقته»، كما يوصف، وكان يُلقّب «شيخ الطائفة»، و «طاووس العلماء». وحين مات، قيل: «اضطرب الوقت لموته».

لم يعد يعرف أن يجلس في مجلسهم،

لم يعد يعرف أن يصغي إليهم

لم يعد يعرف أن يحيا كما يحيا سِواهُ ـ

لم يعد يعرفُ غيرَ الحِبْر،

مسكوباً على حَيْرتهِ.

الجنابيّ القرمطي

قتل سنة ٣٠١هـ. يقال: قتله خادم له صقلبيّ، وهو في الحمّام، بهَجر.

كانَ في هَجَرٍ والقطيفِ وأكثرَ مِن بلَدٍ آخرٍ،
يلجأون إليهِ، يُسمّونَه السيّدا
وزَعَ المالَ والملكَ ما بينهم
(لا أقول سوى ما روته التّواريخ عنهُ)
وتحكّم واستأسدا،
وتفرّد في القولِ: لا كتبٌ منزلاتٌ إن تكن حجّةً للقويّ لكي يأسرَ الضّعيفَ، ويبتزّهُ. الأرضُ ملْكٌ لعمّالها، سواءَ.
قتلته يدا خادمٍ!
هجَرٌ، أصبحت هجَرْ
عِبرةً مُرّةً، والسّؤالُ يُكرَّرُ:
مِن أين يُبْدَأُ؟ أنّى، وكيف؟
بماذا، بمن يُعْتَبَرْ؟

النَّسائي، أحمد أبو عبد الرحمٰن

توفي سنة ٣٠٣هـ. من الفقهاء المعروفين، دفن في بيت المقدس، أو في مكة ـ في رواية أخرى.

صَلّى في الرّملة ـ في جامعها
سألوه:
ـ ومعاويةٌ؟ وفضائلهُ؟
ما رأيكَ فيهِ؟

أمْسَكَ. آثَرَ ألاّ يتحدّث عنه
ضربوه حتّى الموتِ. جحيمٌ
أن تسكن أرضاً
صمتُكَ فيها موتٌ
وكلامُكَ موتٌ.

أبو بكر الرازي، محمد بن زكريا

توفي سنة ٣١٠هـ ـ ٩٢٥م، وقيل: ولد سنة ٢٥٠هـ ـ ٨٦٤م. يوصف بأنه «طبيب المسلمين»، ويلقّب بـ «جالينوس العرب»، وفي حين كان الفكر السائد في وقته يؤكّد على دور النبوّة والوحي في المعرفة وإيقاظ النفوس، كان هو يؤكّد على دور الفلسفة والعقل.

هذي صَحَارَى مراراتي ـ مزجْتُ بها
غدي بوجْهي
وفَجْرَ الأرضِ بالغَسقِ
خليليَ العَقْلُ ـ مَنْثوراً على طبَقٍ
من الجراحِ، ومنظوماً على طبَقِ

كَوْنٌ ـ سِبَاقٌ، وتُعْطيني أَعِنَّتَها
إلى الأقاصي، خيولُ السيّدِ الأُفقِ.

ابن العلّاف

توفي سنة ٣١٨هـ. كتب قصيدة في رثاء ابن المعتزّ، لكنه خاف من الخليفة المقتدر، فحوّلَها وجعلها في رثاء هرّ. وهي قصيدة مشهورة.

جُنَّ حزناً على هِرّهِ، رثاهُ

لا تزال القصيدة محفوفةً

بتهاويلها

وتآويلِها

لا تزال كما قالَها

يُنكَّر فيها، ويُعرَّف فيها

زمنٌ بائرٌ ماكِرُ

كيف صار الخليفة هِرًّا؟

مَنْ نُسائِلُ؟ والشّعر هل سيُجيب،

إذا سئل الشّعرُ، يا أيّها الشّاعِرُ؟

ابن مسرّة، محمد بن عبد الله

تـوفـي سـنـة ٣١٩هـ ـ ٩٣١م، يـقـول عـنـه ألـفـرد غـيّـوم: «هـو أوّل مـن قـدّم للغرب الاستعمال الغامض الملتبس للكلمات العادية». ومذهبه الفكري باطنيّ صارم، يقوم على هرميّةٍ سريّة. (معجم الفلاسفة، لجورج طرابيشي).

مثلما تسكنُ الرّيحُ بيتَ الفضاءِ:
التّرحّلُ قنديلهُ
والحنين له طُرُقاتٌ.

جسمهُ لغةٌ ـ فِطْرةٌ
تترصَّدُ شمساً تُنوِّرُ أيّامَه.

ساكِنٌ في طفولةِ أَسْرارِهِ.

الترمذي
(أبو عبد الله محمد بن علي، الحكيم)

توفي سنة ٣٢٠هـ - ٩٣٢م، نُفي من ترمذ، مُتهماً بالزندقة، يقول: إن الولاية متقدمة على النبوّة. من أهم كتبه: ختم الولاية.

أخذتْكَ الولايةُ، أعطتْكَ أسرارَها وتآويلَها.

معنا أنتَ، في الصُّوَرِ المُسْتسرّةِ، في كلّ شيءٍ.

ولنا ضوءُك الغويّ اللّغات

يتحدّرُ من شهُبِ نيّراتِ

زرعتها بروقك في رَحِمِ الكلماتِ

ونطوفُ بهِ، ونقولُ لأيامنا:

إنّه عهدُنا،

إنّه وَقْتُنا.

البَلْخي
(أبو زيد، أحمد بن سهل)

توفي حوالى سنة ٣٢٢هـ ـ ٩٣٤م. «كان حرّ التفكير لا يخشى أن يرمى بالزندقة. يرى أنّ أسماء الله الحسنى في القرآن مأخوذة عن السّريانية. اشتهر بوصفه عالماً جغرافياً، له: صور الأقاليم، وتقويم البلدان». (معجم الفلاسفة، طرابيشي).

كأسُكَ الآنَ مَلآنَةٌ

باللّغاتِ، بِما قوَّلوها، وقالوا.

هل ستجرؤ مِن أوّلٍ

وتُوشْوِش ذاك الأبَدْ:

مرحباً، يا صديقي،

أيُهَذا الزَّبَدْ؟

أبو بكر الصّنوبري

توفي سنة ٣٣٤هـ. كان يحضر مجالس سيف الدولة، وكان أميناً على كتب خزانته. شعره يتمحور حول الرياض والأزهار.

ادخلْ إلى روضةٍ
يا شاعر الزّهْر، احتضنْ زهرةً
وقل لها: وجهكِ وجه امرأه
تعيش مسجونةً
في بَرْدِ أحزانِها،
والأرض من حولها
بحيرةٌ من دمٍ
وجمرةٌ مُطفأه.

الرواية

VII

«جاء حكيمٌ إلى سيّد المدينة غين، قال له:

ـ إذا قطعتَ رأسَ وزيركَ طوغان، ودفنته، تخرج منه شجرة تثمر ثمراً عظيماً يعود بالخير على رعيّتك وعلى الدّنيا كلّها.

قال سيّد المدينة:

ـ وإذا لم يظهر ما ذكرت؟

ـ تصنع برأسي كما صنعت برأسه.

أمر سيّد المدينة برأس الوزير فقطع. أخذه الحكيم وغرس في دماغه نواةً غريبةً جميلة عالجَها حتى صارت شجرة. أثمرت هذه الشجرة ثمراً لا عهدَ للناس به ـ

لهذا الثمر عينان وفَمٌ، وله لِيفٌ كالشعر

وفي داخله مثل الدّماغ.

عادَ هذا الثمر، كما قال الحكيم، بالخير على المدينة، وعلى الدّنيا كلّها.

وسمعَ أبجد أن حاكم المدن فاء، وكاف، ولام، وميم، ونون، وهاء، وواو، وياء، وكانت متّحدةً في

نظام واحد، استدعى مرّةً فيلسوفها ويُدعى الخلجانَ بْنَ الوهم وكان بارعاً في وصف الإنسان.

سأله:

ـ ماذا تعرف عن الذكر والأُنثى؟

فأجابه، بعد رويّةٍ وتمعّن:

ـ يجتمعان بشهوة اللحم والعظم، لإيداع الماء في بيته. وهو ماءٌ يندفع من بين الصُّلْب والتّرائب. ثم يصير هو نفسه عظاماً تتخذ اللحم ثوباً يُشَدّ بالأعصاب ويُنْسَجُ بالعروق.

ـ وماذا تعرف عن رأس الإنسان؟

ـ أعرف العين: لها أشفارٌ كالنوافذ تُفْتَح وتُغلَق. وأعرف السّمع: هو شِقٌّ ملآن بالرطوبة المرّة لقتل الدّود والهوامّ، وملآن بتعويجات الصّوت. وأعرف الأنف، وهو لاستنشاق روح الحياة، غذاءً للقلب وترويحاً لحرارة الباطن. وأعرف الحنجرة وهي أنبوبة، بأشكال مختلفة في الضيق والسّعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر، لتختلف الأصوات ويتميّز الناس. وأعرف الرّقبة وهي مركز الرأس. وهي برجٌ يتكوّن مِن سبع خرزاتٍ مجوّفة، مستديرة، زائدة، ناقصة، لينطبق بعضها على

بعض، ويطول ذكر الحكمة.

ـ صِفْ لنا الكفّ والأظافر؟

ـ الكفّ، إذا بُسِطت كانت طبقاً، وإن جُمِعت كانت آلةً للضرب، وإن ضُمّت كانت مغرفة.

أمّا الأظافر فعمادٌ خلفيٌّ ومناقير لالتقاط ما تعجز عنه الأنامل ورادارٌ يهدي إلى مواضع الحَكّ في الجسم في النهار واللّيل، في النوم واليقظة.

ـ وما الرّئة؟

ـ مروحة لحرارة القلب.

ـ وما العظام؟

ـ كثيرةٌ وبينها مفاصل وأوتادٌ كالرّباط لجرّ الحركة، والعضلات آلات لتحريكها.

وسمعت أن هذا الفيلسوف، الخلجان بن الوهم، اختفى بعد ذلك، ولم يُعثر له على أثر.

(استطراد)

[أحبُّ أبجد هنا أن يستطردَ فيرويَ ما قاله القلم أوّل الخلق عن كيفية إيجادهذا الكائن الذي سُمّي الإنسان. قال]:

«أمرَ الخالق ملاكاً، قيل إنه جبرائيل[1]، أن يأتيه بطين من الأرض. غضبَت الأرض وقالت للملاك: أعوذ بالله منك أن تُنقصَ مِنّي وتَشيناني.

آنذاك، بعث الخالق الملاك عزرائيل، وهو ملاك الموت. قال للأرض أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفّذ أمر ربّي. أخذ تراباً أحمر وأبيض وأسود

سُكِب عليه ماءٌ حتى صار طيناً

تُرِك حتى صار حمأً مسنوناً

تُرك حتى صار صلصالاً

منه جاء آدم وجاء بنوه حمراً وبيضاً وسوداً

وسُمّي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض.

مكث آدم أربعين سنَة جسداً ملقىً. كان إبليس[2] يأتي فيضربه برجله ويقول له: لستَ شيئاً.

عندما نفخ الخالق الرّوحَ في طينة آدم، دخلت من رأسه، ثم جرت فيها فصارت لحماً وعظماً.

عَطَس آدم فقالت له الملائكة: قل الحمد لله.

(١) «هو نفسه الذي رفع مدائن قوم لوط، وكنّ سبعاً، بمن فيهنّ من البشر والحيوانات، على طرف جناحه حتى بلغ بها أوج السّماء. سمعت الملائكة نباح الكلاب في هذه المدائن وصياح الديكة. ثم قلب هذه المدائن فجعل عاليها سافلها.

وهو نفسه الذي يظهر أحياناً في صورة أعرابيّ. وفي المأثور أن له ستمئة جناح بين الواحد والآخر كمثل ما بين المشرق والمغرب».

(٢) «في المأثور أنه هو الذي قاتل الجنّ الذين كانوا أول من سكن الأرض وقتل بعضهم بعضاً، فقاتلهم وشتّتهم، ومن يومها عرف الشتات. أخذه الغرور بهذا النّصر فاستكبر على خالقه، وقال: صنعت ما لم يصنعه أحد. ومن يومها عرفت الفرادة.

وفي المأثور أيضاً أن إبليس من أشدّ الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، وأنه حيٌّ الآن. له عرشٌ على وجه البحر، وهو جالسٌ عليه، ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشرّ والفتن. وهو أصل الجنّ، كما أن آدم أصل البشر».

سجدَ له الملائكة إلاّ إبليس[1] قال:

أنا خيرٌ منه

لا أسجد لكائنٍ من الطين.

طُرِد من الجنّة أعورَ عليه عمامة وفي إحدى رجليه نَعلٌ.

أُسْكِنَ آدم الجنّة بعد طرد إبليس. كان يمشي فيها فَرْداً.

مرّةً نام آدم. استيقظ. رأى عند رأسه امرأةً خلقها الخالق من ضلعه. سألها:

ـ مَنْ أنتِ؟

أجابت:

ـ امرأة.

ـ لِمَ خُلِقْتِ؟

ـ لتسكن إليَّ.

سألته الملائكة لترى علمه:

ـ ما اسمُها؟

ـ حواء.

ـ لم سمّيت حواء؟

ـ لأنها خلقت من حيّ.

وسوس الشّيطان لهما (وكانت الحيّة حملته بين

(١) «في المأثور أنّ إبليس سخر من البيت المعمور الذي يقال إنه مسجد في السماء يقال له الضُراح، يدخله كل يوم سبعون ألف ملاك ثم لا يرونه قطّ. وهو في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض. وسخر كذلك من القول: «ليس في السماوات السبع موضع قدم، ولا شبر ولا كف إلاّ وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع». وسخر من القول: «إن فيها لِلّه ملكاً لو قيل له: التقم السماوات والأرض بلقمة واحدة، لفعل».

ومن القول: «فيها ملك من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمئة عام.

وسخر من سدرة المنتهى التي جاء في المأثور أنّ «ورقها كآذان الفيلة. يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران. الباطنان في الجنّة، والظاهران النّيل والفرات».

وفي المأثور أن إبليس هو أول من أعطاه الخالق ملكاً، ملّكه على سماء الدنيا وجعله خازناً من خزان الجنّة. استكبر على الربّ وادّعى الربوبية، ودعا من كان تحته إلى عبادته. مسخه الربّ شيطاناً، وسلبه ما كان أعطاه، ولعنه وطرده من سماواته».

أنيابها وأدخلته الجنّة)، فقال:

ـ يا آدم، هل أدلّك على شجرة الخُلد ومُلْكٍ لا يَبلى؟

مالت حوّاء:

وعندما دعاها آدم إلى حاجته قالت لا، إلاّ أن تأكلَ من هذه الشجرة. أكلَ وأكلت. بدت لهما سوءاتُهما. ذهب آدمُ هارباً في الجنّة. ناداه ربّه:

ـ أتفرّ مني يا آدم؟

ـ حياءً منك، يا ربّ!».

خيّل إلى أبجد أنّه كان، فيما يروي، ينظر إليه حجرٌ أسود يشعّ من جهة القلعة. كان القميص الذي ترتديه السّماء ممزّقاً وبلون البنفسج تقريباً. إلى يسار الشّعاع الطّالع من الحجر، جسرٌ مكسور. يعلو، غير بَعيدٍ عنه، سورٌ يبدو كمثل دماءٍ عالية تخثّرت.

كان في الجهات كلّها ضوءٌ يتكلّم:

هل اللّغة نجمةٌ تسيرُ بقدمين؟ سألَ مدارَ الكلام، الذي كان يتحرّك ولا ينطق.

امتزجت خطاه بخطوات الوقت، واختلط صوتاهما. لمسَ بأهدابه صورة الأرض ـ

صحراءُ ينهض فيها كتاب أشرعةٍ وأمواج

وجهٌ آخرُ مَرْئيٌّ لِلهَبِ غير مَرْئي

خارج الحجر شفافيةٌ سيقولها يوماً

داخل الحجر جدارٌ سيخترقه يوماً

أخذت الرّيح تفرش البسط وتمدّ الوسائد. جلسَ على مَقْعدٍ دعته إليه. نهض، أسْنَدَ ذراعه اليسرى على نافذةٍ متحرّكة في بيت الفضاء.

عندما حاول أن يتحدّث مع حارسٍ يلتصق بباب التّاريخ، أحسّ أنّ صوته يعلو ويهبط في حنجرته كأنه حصاةٌ غير مدوّرة وملساء،

وجاء يشهد عليه الغسَقُ الذي رسمته، أمس، حول النوافذ قدمُ الشمس،

وجاء ملك الرّمل.

هل بيتُ اللّه في هذه الجهة؟

أكّد له صوتٌ صارخٌ أنّه، عقاباً على هذا السّؤال، سينزل قريباً في بئرٍ من النّار.

كيف يُواجِهُ العتبةَ التي يتغلغل شعاعٌ منها بين أصابع قدميه؟

والقوسَ التي تشبه جَفْن غزالةٍ وَلَدت

لِتوّها غزالاً؟

وخشبَ الباب الذي يمتلىء بالأهلّة،
والذي يتغيّر، بحسب النّظرة
واللّحظة، كمثل دميةٍ في يد
الضّوء؟
سَيَسْتَعينُ على ذلك بشجرة السّدر، وبالنّخيلِ أولاً.
قبل ذلك، عليه أن يتجزّأَ، أن يدفنَ بعضه في
جوف كلمة، وفي صخرةٍ بعضاً آخر.

مَرّت عربَةُ رَمْلٍ تجرّها الرّيح، ولامست وجنتيه ـ
كان قد وضعَ قدميه على عتبة القَلْعة.

الذّكرى

VII

المدينة خاء

قمر المدينة خاء طبيب. يأخذ تعاليمه من ورقٍ تتنافس في تزيينه جميع الألوان، ـ ورق ينضاف إليه دائماً كلامٌ يهبط عليه من جرُف عالٍ كأنه رأس كوكب أو كَتِفُ نجمة.

*

الشوك في المدينة خاء، أكثر ألفةً من اليد، والنافذة فيها ترى أكثرَ مما ترى العين.

*

يتساقط الزمن في المدينة خاء، كمثل أوراق شجرة لا اسم لها.

*

لا أظنّ أن في الأرض مكاناً يتعذّب دون جدوى، كهذا المكان الذي يسمّى المدينة خاء.

*

تتقاطر الكلمات في المدينة خاء، كأنها ناقات عجاف يحملن على ظهورهن ـ أثقالاً تُسمّى أفكاراً.

*

كتب لي قارئ من المدينة خاء:

«عندي جسدان، ـ واحد أدخل به إليها، وآخر أخرج به منها».

*

كان وجميع أخواتها في المدينة خاء، أسماك تسبح في بحيرة آسنة، وتكاد أن تجف.

*

الجبر، والكيمياء، ونجمة الصبح، جسد واحد يرتجف بين يدي المدينة خاء.

*

ليس في اللغة التي تتحدّث بها المدينة خاء، أسماء أو أفعال، فهي كلها مجرورات ونعوت.

*

مجلس الفضة هو الذي ينتخب أعضاء الذهب:

تلك هي صيغة الحكم في المدينة خاء، كما يقول سكانها.

*

الآن، تصغي إليّ ريحٌ ليست لها أذنان، ـ

ريح تهبّ من جهة المدينة خاء.

*

الحياة في المدينة خاء ليست حلماً

وليست إنجازاً، ـ

أعطها موعداً بين ذراعيك أيها الوقت.

*

بوفاء كامل،

سأخون المدينة خاء.

*

أحببتكِ حيناً، وكرهتك أحياناً،ـ

كان الخبز نفسه وسخاً على مائدتك. وما انحنيت لك، حتى عندما كان ظلامك يطبق عليّ وعلى أنحائي.

ولست أريد منك أيّتها المدينة خاء،

إلاّ شيئاً واحداً:

أن تكوني في مستوى التّراب الذي تنهضين فوقه.

المدينة ذال

يخيل في المدينة ذال أن الأشباح هي الكائنات الوحيدة التي تحمل رؤوساً تشبه الرؤوس الآدمية.

*

في إناءِ اسمه المدينة ذال،
يعيش نباتٌ لا يذبل أبداً، اسمه القتل.

*

أمرت المدينة ذال مؤرّخيها أن يكتبوا تاريخاً يؤكّد أنّ رأسها ينتمي إلى سلالة اسمها تاج الدين، وأن قدميها تنتميان إلى سلالة أخرى اسمها تاج الدنيا.

*

تعلّم المدينة ذال سكّانها أن ينذروا حياتهم كلها لعمل واحد: أن يلوّثوا ضوء الشمس.

*

ليس في الدم الذي يملأ عروق المدينة ذال، غير الأبواق.

*

لا أحد في المدينة ذال يعرف نفسه:
تلبس النعامة لِبْدَة الأسد،

ويمشي الذئب بأرجلِ الحمامة.

*

تتراشق جدران المدينة ذال بِكُرَاتٍ غريبة يؤكّد الذين رأوها، أنها ليست إلاّ رؤوساً.

*

أجّلوا العدالة إلى وقتٍ آخر،
أجّلوا العمل إلى وقت آخر،
أجّلوا الحب إلى وقت آخر،
أجّلوا العلم إلى وقت آخر،
أجّلوا الخبز إلى وقت آخر،
أجّلو الحرية إلى وقت آخر،
أجّلوا حقوق الإنسان الأخرى إلى وقت آخر،
أجّلوا الإنسان إلى وقت آخر:

تلك هي المبادئ التي تهيمن على المدينة ذال، وفي هذه المبادئ يتنافس المتنافسون...

*

الطرق التي تبدأ من المدينة ذال، جراح لا تشفى.

*

إن شئت أن تعيش في المدينة ذال، فلن تقدر أن تمارس إلاّ عملاً يهدم الفكر، أو فكراً يهدم العمل.

*

الرؤوس في المدينة ذال هي نفسها السجون،
والأعمدة الفقرية عتبات للدخول والخروج.

❊

منذورٌ ساكن المدينة ذال لنضالٍ وحيد:
أن يأكل لحم أخيه.

❊

موت الإنسان في المدينة ذال، هو الدليل الوحيد على أنّه كان حيًا.

❊

لا تعرف الحياة في المدينة ذال أن تصفّق إلاّ للموت.

❊

بعد الأشياء التي قرأتها، وتلك التي سمعتها عن المدينة ذال، قرّرت أن أزورها مرة ثانية ـ لكن في عربة من الخيال.

كانت، لحظة وصولي، مقفلة. ويقال إنها مقفلة دائماً، مع ذلك يمكن الدخول إليها من ثقبٍ ما، بإذنٍ ما، بورقةٍ ما، بتوقيعٍ محدّد وخاصّ، يوحي بأن هذا الدخول نعمة وامتياز.

تدخل. ترى. تختبر، ـ لا تقدر أن تصادق في هذه المدينة أيّ شيء. وقال لي أكثر من واحد: حتى عندما يصادق الإنسان جسده أو عقله، فإن هذه المدينة تنظر إليه كأنه متّهم، وربما تعرّض لأن يفقد جسده أو عقله، أو كليهما معاً.

وتؤكّد لك الخبرة أن كل شخص يسير في المدينة ذال، يسير وراءه أو أمامه، إلى يمينه أو يساره، نوعٌ غريبٌ من العَسَس.

وتلمس لمس اليد كيف أن أسياد المدينة ذال يمضون أوقاتهم في العمل على حفر نَفقٍ ضخم، وإجبار الناس على المرور فيه لكي يصلوا إلى ما يسمّونه المستقبل أو الفجر المقبل.

وهؤلاء الأسياد هم الذين يصنعون للناس رؤوساً ثانية يركبونها داخل رؤوسهم الأولى. وكثيراً ما تتحوّل الرؤوس، كما روى لي أكثر من شاهد، إلى قطع تبديل. لهذا حين يتحدّث مواطن مع زائر، يسأله هامساً:

ـ هل تريد أن أحاورك برأسي الأول، أم برأسي الثاني؟

لكنه سرعان ما يستدرك، هامساً أيضاً:

ـ كلا، كلا، لا أقدر أن أحاورك إلاّ برأسي الثاني.

ويقال، في رواية ثانية، لا يُعَدّ مواطناً صالحاً إلاّ الشخص الذي مسح هؤلاء الأسياد رأسه بأيديهم.

ومع ذلك، هناك من يوحد مصيره مع مصير المدينة ذال، غيرَ مدركٍ أنه في عمله هذا كمن يربط نفسه بعمود من الضباب.

ما أعجب المدينة ذال،ـ

إنها تناضل كمن يخطّط لكي يقلّص الفضاء.

رموز وعبر من: «كتاب آخر للأمثال».

قرأته في المدينة ذال

أ ـ

قال ابن عباس:

«كان عرشه على الماء،

وعندما أراد أن يخلق الخلق،

أخرج من الماء دخاناً ارتفع فوق الماء وسما عليه،

فسماه سماءً.

ثم أيْبَسَ الماء فجعله أرضاً واحدةً،

ثم فَتَقَ الأرض فجعلها سبع أرضين، وذلك في يومي الأحد والاثنين.

وخلق الأرض على حوتٍ هو النّون،ـ

الحوت في الماء

والماء على صَفاةٍ

والصفاة على ظَهْر مَلَكٍ

والمَلَكُ على صخرة

والصّخرة على الرّيح

وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء وليست في الأرض.

وعندما تحرّك الحوت واضطرب،

تزلزلت الأرض،

فَأَرْسَى عليها الجبال، فاستقرّت.

يوم الثلاثاء،

خلقت الجبال وما فيهن من المنافع،

ويوم الأربعاء،

خلق الشجر والماء، وخلقت المدائن والعمران والخراب،

وفي يومي الخميس والجمعة،

فُتِقت السماء وكانت رتقاً فصارت سبع سماوات.

ثم خلقت الكواكب

زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها.

ولَمّا فرغ الخالق من خلق ما أحبّه،

استوى على العرش».

ب ـ

روي عن محمد بن إسحاق أنّه قال:

«يقول أهل التوراة إن اللّه ابتدأ الخلق يوم الأحد،

ويقول أهل الإنجيل ابتدأه يوم الاثنين،

ونقول نحن المسلمين ابتدأه يوم السبت»،

وإلى هذا القول الأخير مال طائفة من فقهاء الشافعية[1].

(١) بعد التّحقيق، تبيّن أنّ هذه رواية شائعة ومكرّرة في كتب التّاريخ كلّها.

المدينة ضاد

بشر يهرولون بين الكلمات، يتّخذون من حروفها شرايين، ومن نقاطها عيوناً،

أسافل تهبط في اتجاه أسافل أبعد غوراً،

ظلام يأخذ العرش، ونور يأخذه المنفى،

سيوف تسكن الأعناق، ورماح تسكن الخواصر،

وحدة بين الفكر والسجن،

زمن يعارض الماء،

فضاءٌ لا يتّسع لأكثرَ من ببغاء،ـ

أقول: رأيت هذا كلّه

رؤية العين،

وكان ذلك في المدينة ضاد.

*

١ ـ في المدينة ضاد، لا يولد الغيم من الماء، ولا من الغيم، ـ يولد من الحجر.

٢ ـ الغراب نفسه في المدينة ضاد دفتر أبيض.

٣ ـ رجل في المدينة ضاد توفيت زوجته. نام ليلة، حزيناً، فرأى في نومه نساءً لم ير معهن زوجته. سألهن عنها، قلن:

ـ «قَصّرتَ في كفنها، فهي تستحي أن تخرج معنا.»

٤ ـ قال رجل في المدينة ضاد: «رأيتُ في النوم حسناتي وسيّئاتي. في حسناتي، رأيتُ حبّاتِ رمّان. وكنت مرّة، قبيل موتي، آكل رمّاناً فسقطت على الأرض ثلاث حبات، لممتهن عن الأرض وأكلتهنّ.

ورأيت في سيّئاتي خَيطيْ حريرٍ كانا في قلنسوتي».

٥ ـ روى رجل آخر في المدينة ضاد: «رأيت في نومي الناس يجتمعون حول رجلٍ عند المسجد. اقتربت، وسألت:

ـ من هذا؟

ـ هذا رجل جاء من الآخرة إلى الدنيا، ليخبر الناس عن موتاهم».

٦ ـ وقال رجل آخر في المدينة ضاد: «رأيت رجلاً شاهراً سيفه، يضرب رؤوسنا. كان كلّما وقع رأس، يأخذه، ويعيده إلى مكانه.

أتى إليّ، وضرب رأسي. وقع على الأرض. أخذته، نفضت عنه التراب، ثم وضعته بين كتفيَّ، وأعدته كما كان».

*

عجباً للمدينة ضاد،

كيف تجد المتّسع لكي تجلس، حيناً، تحت كرسي وحيناً بين قدمين.

*

أحاول (بلا نجاح حتى الآن)
أن أضع في فلاة كتب المدينة ضاد،
لغاية واحدة: أن أحرّر الورق!

❊

تحيا المدينة ضاد، كأنّها اللّب
وتعمل كأنها القشر،
يا لهذا الجدل بين عبَثٍ باطن وعبث ظاهر.

❊

الضوء في المدينة ضاد
يائس من المصابيح،
والمصابيح يائسة من العيون.

❊

لا يقدر النهار في المدينة ضاد
أن يكون أكثرَ من سرير،
لا يقدر اللّيل فيها
أن يكون أكثر من غطاء.

❊

إن شئت أن تسكن في المدينة ضاد،
فلن تجد بيتاً تسكنه غير الكلام ـ عنيت:
قفص الكلام،
وسوف يواكبك حرس خاص ينتظم في صفٍّ لا ينتهي،
أوّله السماء وآخره الغبار.

❊

لا تحيا في المدينة ضاد، إلاّ بعد أن تموت،
سلفاً، منذ ولادتك، بل قبل أن تولد:
أنت من الأسلاف!

*

للمدينة ضاد
جدران تتواطأ مع عميان
يتسرّبون إليها من بين النجوم.

*

يبدو الجسد في المدينة ضاد، كمثل الشجرة،
والروح ثمرة ـ للفصول كلها،
ولا تكف عن السقوط،
وأحياناً، تبدو الروح نفسها كمثل الشجرة
والجسد ثمرة للفصول كلّها،
ولا يكفّ عن السقوط.

المدينة ظاء

خوفاً من سلطة البرد الذي يحكم شوارع المدينة ظاء،
لبس الجوع معطفه،
صعد إلى المسرح، مسرح السّاحة العامّة،
وأخذ يمومئ الشبع.

❊

الأخضر معتقل، والبياض متهم في المدينة ظاء،
وفيما تحاول الشمس أن تلأم جراح السهول، تكاد الجبال أن تختنق.
على القمم ثلج لا يسقط من جهة السماء، وفي الأودية صراخ يخرج من ثقوبٍ في الأرض تشبه الحناجر.

❊

هوذا حكم الرّيح على ساكن المدينة ظاء:
أن ينقل الماء، طول حياته، من الرمل إلى الرمل.

❊

يمكن أن تنفد الكلمات في المدينة ظاء، ولا تنفد قيودها.

❊

ها هم يهتفون لنيرون، ويضعون بين يديه رؤوس القتلى،

تقدّموا يا شعراء المدينة ظاء،

إنه دوركم لكي تضعوا على رأسه الغار.

*

أحياناً، يبدو الإنسان في المدينة ظاء،

كأنّه شخص التقى بجسده عبثاً، والتقى بروحه مصادفة.

*

يا للرؤوس التي تتساقط دون توقّف

من أجل تاج يذهب وتاج يجيء:

ذلك هو التاريخ في المدينة ظاء.

*

في لحظة ما، وبسحرٍ ما،

يمكن في اللغة التي تسود المدينة ظاء، أن تسمى الجنّةَ جحيماً، والجحيم جنّة.

وأن تصرخ: أيّتها الغزالة، ألن تعترفي أخيراً بأنك كَرْكدنّ؟

*

يبدّدون أصواتهم في الغناء من أجل مستقبل ليس إلاّ السّرطان الذي يلتهم حناجرهم:

هكذا يصف بعضهم سكان المدينة ظاء.

*

تغصّ المدينة ظاء بمشانق تنتصب في الهواء، سرّيًا.

*

كلمة ـ تضع في عنقها طِلْسْمَها، لكي لا تضيع، محفورة عالياً، فوق رأس المدينة ظاء،

ـ وما الغرابة، هنا؟ اللغة في هذه المدينة تحب أن تستسلم لأحوال الهواء.

المدينة غين

لا يكتشف الإنسان في المدينة غين، تاريخه الحقيقي
إلاّ في الطبقات السفلى من أنين أيامه.

*

في المدينة غين،
يقتل بعضهم بعضاً كما يأكلون،
وفي محابر الأناشيد المنذورة للعرش،
يسكبون دماء القتلى.

*

عنده، في المدينة غين، مفاتيح لا تحصى
لكن، ليس هناك بابٌ واحد.

*

نزل السّيل، سيل الكلام، واديَ المدية غين،
ترك أسنانه في رأس الوادي، وقدميه عند قدميه،
ثمّ تحوّل إلى ثقوب في دولاب الوقت.

*

جلس اللّيل تحت سقيفته، في المدينة غين،
دعا النّجوم إلى الجلوس معه،

ثم أخذَ ينتقد الظلام.

*

أمس، خيّل إليّ بقوة لا أعرف كيف أفسّرها،
أنني أرى السماء تبذر نجومها في حقول المدينة غين،
تحية لحصاد صلواتها، كما قيل لي.

*

سكّانُ هذه المدينة في حاجة إليك أيّها الأب الموت.

*

اتْبعوا الشارع في تغيّراته ـ
يكاد أن يكون وجهاً مصنوعاً من الموج.
لا أحلم. واليوم غسلت ذاكرتي من أنقاضها.
هذا هو الشارع في المدينة غين، ـ
مرسوم بزبد كأنه النار، وبنار كأنها الزبد.

*

كُتبت الكيمياء وغازاتها في سجل الفضاء،
كتب الأرق وكوابيسه،
احتفاءً بالمدينة غين ـ
هذه الكتابة أرضٌ بلا حدود، وقيل إنها مَخْلوطَةٌ بالسماء.

*

من أين للكلمات أن تتحوّل إلى قبائل؟ لا تقيم على ضفاف اللسان إلاّ لكي تسبر غور الرّحيل.

أتأمّل هذه المسألة، فيما أتأمّل أحوال المدينة غين.
وأعجب لانحراف خطواتي نحو قمّة في جبال الرغبة،
يشاع أنها خرساء.

*

حقاً، يبدو العالم كمثل طائر ميّت
في عنق المدينة غين.

*

نادرون جدّاً أولئك الذين يقدرون أن ينكروا
أنّ القرنَ العاشر هو الذي سيعقب
في المدينة غين
القرن العشرين.

*

قال شاعر هذه المدينة:
الأمّة قصيدة والأفراد كلماتها.
قلتُ: لا وجودَ، إذن، إلاّ لِلّغة.

*

ليست الحياة في هذه المدينة ذروةً يشرف منها الإنسان،
بل نفق يختبىء فيه.

*

يُصدّق سيّد هذه المدينة أنّه بطل:
أمرٌ لا يُصدّق.

*

ما أكثر الكتب في هذه المدينة ـ
لكن، يكفي، لكي تفهمها، أن تقلّب أوراقَها.

*

لن يمتلك الإنسان فصاحة الرّيح،
لذلك لن يقدر أبداً أن يصف المدينة غين.

*

قرأت آخر قصيدةٍ كتبها شاعرٌ عاش في هذه المدينة، قال فيها:ـ

«الفرس التي يمتطيها اللّيل في سفره
لا تقدر أن تسيرَ إلاّ على الطّريق
التي تقود إلى الصّباح.
مع ذلك ـ
أيّتها الغيمة التي ولدت واقفةً
والتي ستموت وهي تمشي،
هل تقبلين صداقتي؟».

*

«قبلَ أن تقولي عنه[1]: إنه يحتلّ مكاناً عالياً،
اسألي: مَنْ أُولئك الذين رفعوه، وأولئك الذين ينظرون إليه.

*

يغيّر رأيه دون أن يغيّر ذوقه،
أو يغيّر ذوقه دون أن يغيّر رأيه:
في الحالين، لا يتغيّر.

*

إلى متى نبقى مجبرين على هذا الاختيار:
بين بيتٍ لا يدخله أيّ نورٍ،
ونورٍ لا يُدخلنا إلى أيّ بيت؟

*

تسألينني أن أضع معجماً للكلمات من نوع آخر؟ حسناً، لنُجرِّب:

كلمة قذفَ بها الفضاء من شبّاكه الأماميّ،
وكان سقوطها حدثاً ماتت فيه الكيمياءُ،
وابتليت المادّة بالداء الذي لا دواء له.

كلمة لن يقدر المعنى أن يَجِدَ لهُ صورة جديدةً إلاّ إذا ماتت.

كلمة إن كان هناك فرحٌ، فهو أن تقتلَ الكلماتِ وأن تحييها.

كلمة يخرج من عباءتها الجند والخيل والبساتين.

كلمة عمود كبريتٍ يعانق عموداً من الملح.

كلمة رأسٌ مثقوبٌ بالشكّ.

كلمة لم يولد بعد الأفق الذي يَتّسع لتلك الأجنحة
التي تبتكرها خطواتي
كلمة ليتني أقدر أن أضيف إلى جسدي جسداً
آخر لكي أقدر أن أحتضنَها،
(والبقية آتيةٌ لا ريب).

*

كلاّ لم يعد القمر بيتاً لي،
غيّرت الطّريقَ بين قدميّ وأحلامي.

*

لم أولد بعد،
سَأُولد قريباً، أقربَ مِمّا يُظَنُّ.

*

دخل كمثل عاصفةٍ بيني وبين آلامي،
ورفعني إليه -
لا تَسليني: مَنْ، كيف، ومتى وأين؟

*

بِقَدْر ما تقتربين من الأفق،
بيتعد عنك:
لن تصلي، إذن، إلى نفسك، أبداً.

*

لم يكن يبكي -
كان يبكي داخل البكاء.

❋

تصنع المدينة غين حاضرَها بأشخاصٍ ماتوا،
وتصنع المستقبل بكلماتٍ لا حاضرَ لها.

❋

مدينة يبدأ فيها سجن المَرْء
بالسّلام على العرش.

❋

الأب في هذه المدينة لا يُقْتَل، بل يُبدّل.

❋

يتقدّم الزّمنُ في هذه المدينة،
كمثل طحلبٍ على جدار اسمه الأبد.

❋

تجلس الخوذ على رؤوس الشجر، في هذه المدينة،
في كل ثمرة رصاصة».

خاتمة

ـ «الشّامُ أمامكَ، لا أحدٌ يمنعك منه»،

قال ناصر الدّولة لأخيه سيف الدّولة.

ودخل سيف الدّولة مدينة حلب

يوم الاثنين، من شهر ربيع الأول،

سنة ٣٣٣هـ.

وكان دم الحرب لا يجفّ، وكان قتلاها كمثل إبَرٍ في يد الرّيح تخيط للزمن ثوبه الأكثر التصاقاً بجسده

وكان الدّم يتفجّر من أحشاء القلعة وأطرافها

ليست تُفّاحة حواء هي وحدها الغواية

للتّاريخ، هو أيضاً، تُفّاحاته وغواياته.

وفي رواية، وهذا تكرار لما سبق، أنّ القلعة بدأت خطواتها في أيّام سلوقس نيكادور قبل المسيح بثلاثمئة واثنتي عشرة سنة. ولمّا صار فيها تلامذة للمسيح أخذ يتعايش فيها الذين يعبدون الله ـ يهوداً ونصارى، والذين يسجدون لوجه الحجر الذي كان يُسمّى الصّنَم، والذين يسجدون للنار.

ثم هَلّلت لخيول أبي عبيدة وسيوفه.

ثم أخذت تتدحرج كمثل كرةٍ تنزف دماً بين يدي الأرض، وتحت أقدام العرش ـ

الأموي

العباسي

الطولوني

الحمداني

. المرداسي، العقيلي، التركماني، الزنكي، الأيوبيّ، المملوكي، الجركسي، العثماني ـ

(«سار السلطان سليم
إلى حلب. خَفّ أهلها لملاقاته. طلع إلى القلعة. رأى أشياء أدهشته: ذهباًوفضّةً وغيرهما

ـ ومن هؤلاء؟

ـ خلفاء المشايخ الذين أتوا مع الغوري مسافرون إلى بلادهم.

أمرَ بإحضارهم. رمَى رقابَهم عن آخرهم».)

«قال بعض الحذّاق من المؤرخين إن وقائع الجراكسة مع السلطان سليم كانت دموية، وكان موته سنة ثمانٍ وعشرين وتسعمئة بعلّة فَرْخ الجمر. وهكذا الدنيا تفعل بأهلها. هنيئاً لمن أعرض عنها ورضي منها باليسير، فإنها غدّارة غرّارة سبحان مبيد الأكاسرة ومذلّ الجبابرة وقاهر العباد بالموت، وهو الذي يرث الأرضَ ومن عليها».

القسم الثاني

أوراق سيف الدولة

أوراق سيف الدولة

[كتبت هذه الأوراق، في أوقاتٍ متقطّعة بين ٣٣٣هـ ـ ٣٥٦هـ.]

٣٣٣هـ[1].

اليومَ، بدأتُ طريقاً
لا أعرفُ كيف تؤولُ، وكيف تكونُ
أعرفُ أنّ الأرضَ
هنا وهناكَ ـ
دَمٌ، وجنونُ.

❊

لا أحبّ المطَرْ
حينما لا يسافر كالدّمعِ بين جُفون الشّجَرْ.

❊

ليس بين الخليفةِ والنّاسِ إلاّ
سيفُه والخِلافَةُ،ـ
لِلسّيفِ مَنْ قال: كَلاّ.
للخلافة أبناؤهُ

(١) آثر أبجد أن يتحدّث عن المدينة غين أيضاً بشكل غير مباشر، عبر مقاطع من رسالة كتبها في شكل خواطر، شاعر إلى صديقة له في هذه المدينة.

(١) السنة التي سيطر فيها سيف الدّولة على حلب.

وأبناء أبنائهِ،

ولَهُ الحاشِيَهْ:

هِيَ في القَصرِ حيناً، ذئابٌ

وَهْيَ، حيناً، قطيعٌ من الماشِيَهْ.

❋

٣٣٦هـ:

أعرابٌ،
وقبائلُ طيٍّ،
وقرامطةٌ،

لِمَ لا يُجدي غيرُ السَّيْفِ؟
أغرتُ، قتلتُ الهادي[١]،
وهدمتُ القرية[٢]، حيث اعتصموا.

*

مِن جديدٍ تثورُ كِلابٌ وأحلافُها:
بالِسٌ فتنةٌ، وفسادٌ، وفوضى.
لا سبيلٌ سوى العُنْفِ، لكن
لن أبالغَ فيهِ ـ أكتفي منهمُ بتأديبهم.
وسأوصي
أن تعادَ إليهمْ سباياهُمْ.

*

جند الإخشيدِ أسارى
بين يديَّ، ولكن
لن أقتل منهم جنديًّا، وسأعفو عنهم، وأُسَرِّحهم.

(١) اسم القرمطيّ الثائر.

(٢) اسمها الحدث، وكانت في إقليم حمص.

*

جَبَلٌ شاهِقٌ
والدّروبُ إلى الحصن مقطوعَةٌ
بخنادقِ نارٍ ونَفْطِ.

*

لا حصانَة غيرُ الصُّعود. صعدنا
وصلنا إلى برزويهِ، دخلنا إليهْ،
كنتُ أُصْغي إلى أرضهِ ـ التّلالُ،
الصّخور، المتاريسُ، أسْوارهُ
تَتَهاوى وتنشقُّ حزناً عليهْ.

٣٣٧هـ[١]

فَرْدَسٌ[٢] مُحْبَطٌ كَسِيرٌ،

وكأنّي أَراهُ

يَتَمزَّقُ مُسْتَسْلِماً ويُجرجرُ أحشاءَهُ

فوق صَخْرٍ ونَارِ.

كان نَصراً جميلاً تنوّرْتُ فيه

ما سيحدث، وازدَدْتُ فنّاً

في التمرّسِ بالحَرْب.

عَزّزتُ أخلاقَها ـ أعَدْتُ إلى فَرْدَسِ إبِنَهُ (مات في حربنا، وحملناهُ رِفْقاً وضنّاً بهِ أن يظلّ طعاماً لطيرٍ أو لِوَحْشٍ. نصَارَى حلَبٍ سلّموه إليه وكانوا بيننا جسر وَصْلٍ)

كنتُ أستبصر الوقتَ في نشوة النّصرِ، حين مررتُ بِأنطاكيهْ

والتقيتُ بأحمد[٣]. كان اللّقاءُ المدارَ الأشدّ التصاقاً بأعماقي النّائيهْ.

(١) السنة التي حقّقَ فيها سيف الدّولة نصراً مهمّاً على الرّوم، وهي السنة نفسها التي التقى فيها بالمتنبي في أنطاكية.

(٢) فردس فقّاس، قائد الرّوم، آنذاك.

(٣) المتنبي.

٣٣٧هـ:

عامِرٌ وقشيرٌ وعَجلانُ، أولادُ كَعْبِ
وكلابٍ ـ
كلّهم خارجونَ عليّ. ولكن
كان سَهْلاً
أن يُرَدّوا إلى طاعتي. أَزلْتُ أباطيلَهم،
وأوصَيْتُ جُنْدِيَ ألاّ يَمسّوا
حريماً لهم. وعفوتُ، وسامحتُهم
وكانوا قتلوا والياً[1].

*

أعرفُ أنَّ بكاء النّاسِ شديدٌ،
مِنّي.
لكن،
سيكونُ عليَّ شديداً أيْضاً،
حين أموتُ.

*

(١) هو الصّباح بن عمارة، وكان والياً على قنّسرين.

ظِلُّ رمحي سؤالٌ عن القتل والموتِ،
خُطَّ على جَسدِ الشّمس. وَجْهي
مثلُ طِفْلٍ
يُهيّىء أحلامه وألعابَهُ
لِلطّيور وأعشاشِها.

*

أصدقائي ـ
يحسبون الكواكب شعراً
والشّعاعَ الذي يتبجَّسُ من دورة الكواكب،
وحياً.
ما يكون، إذن، حِبرُهم؟

*

لم أكتب شيئاً. كنتُ أقولُ: الحَرْفُ يُميتُ،
وكلّ كتابٍ
يسخر مِمّا فيه الورَقُ،
إنْ لم تَتَجَدَّدْ فيه الأرضُ، وتَبْدَأْ مِمّا
قالَ الطُّرُقُ.

*

كونٌ ـ لم أقرأ فيهِ
إلاّ كلماتٍ
لم ألمحْ فيه إلاّ صُورَهْ
أين يكونُ المعنى؟
هل أسأل ما يتغيّر فيهِ، أو ما يتبَقَّى؟
هل أسأل جسم الكوكبِ عن مَعناهُ؟
أم أسأل نُورَهْ؟

*

يَنْبغي أن تُسمَّى الثُّغورْ
وطناً آخراً
زارعاً حاصِداً لِلقبورْ.

*

غارةً، غارةً، في تباريحه العاليهْ،
يتغيّر طوروسُ: طوراً
يَنْحني ـ يَتَراءى
في خليج قُسَنْطينةٍ، وطوراً
يَزْدهي ـ يتقلّب في حضنِ
أنطاكيهْ.

*

لا نِبالٌ ولا عَرباتٌ. لا دروعٌ ـ ولكن
خوذٌ، لا طُبولْ
إبِلٌ وبيارقُ شتّى ـ خطوطٌ ووشيٌ، وعمائِمُ
تَسْتَنْفِر الصّهواتِ، وتزهو وتخطّ فضاءَ
الخيولْ.

*

يمدحونَ، ولو عَرف المادِحونَ دخائلَ مَنْ
يمدحونَ، إذن لَرَمَوْا ما يقولونَ
في سَلّةٍ للقمامَهْ،
ولكانوا، إن أرادوا الحياةَ بِصدقٍ،
رَفعوا عُذْرَهم وأخطاءهم
في الطّريق إلى موتهم علامَهْ.

*

أَتركُ الرّيحَ تعبرُ. وقتُ المحبّين والشعراءِ
الجذورُ وأسرارُها، وأداري
حَيْرتي، وطحالبَ خَطْوي،
وأخطاءَ حَقْلي:
أَلطَّبيعةُ فِيَّ تُقلِّمُ أشجارَها.

*

بخضوعٍ وزُلْفَى،
يرفعون هواهم وأقْوالَهم وأعمالهم،
إلى كلّ عَرْشٍ.
ويمدّون أيّامهم
تحت خَطْوِ سلاطينهم بِساطاً،
ويُضيفون أسماءهم
للنبيِّ، وآلِ النبيِّ، وصَحْب النَّبيْ.
ما الذي يفعل العرشُ،
أجملَ مِن جَنْبِي هذا القَطافِ
الشَّهيْ؟

❊

٣٥١هـ:

خَرّبوا حلباً، تركوها
أثراً بعد عينْ
وكأنّي أرَى كلَّ ما شاءت الخلافةُ مِنّي،
وما شئتهُ،
ورَقاً عائماً
في مياهِ قُويْقِ،
ودماءً تسيلُ على الضّفتينْ.

*

حين أرنو إلى الحَرْبِ غزواً وقتلاً ونَهْباً،
أتَشكّكُ: ماذا، أهذا جِهادْ؟
أبهذا نضمّ سوانا إلى ديننِا؟
أم فسادٌ يجرّ الفسادْ؟

*

لِمَ لَمْ أقرأ الرّيحَ وَهْيَ تُقلّب بين يديها
كتاب الشّجَرْ؟
لِمَ لَمْ أسألِ النّهْرَ من أين يأتي بأقلامهِ؟
كيف يقرأ، أو كيف يقدر أن يتحدّثَ
مع غيمةٍ أو حجَرْ؟

ضَحِكَ الضّوءُ مِنّي
ضحكت أنجمٌ تتموّج أثداؤُها في مياه قُويْقِ.
وكأنّي أرَى لقويقِ يتغامَزُ مع ضِفّتيْهِ.
ضَحِكَ الزّبَدُ المتربّعُ حُرًّا على عرشهِ
فوق وَجْهِ النَّهَرْ.

*

أَلخلافةُ بيتٌ ـ
عندما يدخل الدّاخلونَ إليهِ
تُغَلَّقُ أبوابهُ،
وتُقامُ الطّقوسُ،ـ
الإلّـهُ على عرشهِ
ساهِرٌ بين جُدرانهِ:
أَلرّؤوسُ تُقَطَّعُ مختومةً بيديهِ
والدّماء تُراقُ على قدميهِ.

*

أَرْسناسُ وأطوافهُ والزّوارق والجند والخَيْلُ
والإبلُ النّافراتُ جَوارٍ إلى الفَلَكِ المُنْتَظَرْ:
عرَبٌ يعبرون إلى الرّومِ، في نَهرٍ مِن صُوَرْ.

*

لم أَعُدْ أفهمُ
كيف يُسْتَغْفَرُ العرشُ كاللَّهِ،
أو كيف تُزْرَعُ،
مِن أجلِ أن تُحْصَدَ، الأنجمُ.
أعْطِني قوّة الرّفْضِ والنُّطْقِ، يا حُبَّها
لأقولَ: بلادي
لا حدودٌ، ولكن
حيثُما كان عدلٌ وحبٌّ، بلادي
ولا خوفَ، لا فَرْقَ فيها،
أعربَ النّاس أو أَعْجَمُوا.
❊
آهِ، ما أطيبَ النّومَ!
بين السّرير وتلك المرايا
حولَ محرابها،
لا فراشٌ لنا
غير عِطْر الفضاء،
وغيرُ الفضاءِ الذي سيّجَتْهُ بأهدابِها.
❊

أتقدّمُ نحو الكهولَهْ
وأوشوشُ صَحْبي
وأكرّر هذا لسيفي
وأكرّره لثيابي -
وأردّد ما أتعزّى بهِ:
ليس بيني وبين التقدّم نحو الكهولةِ، إلاّ
خطوات الطّفولَهْ.

*

لم أزعم يوماً
أنّ هُيامي أن أَرْعَى النّاسَ، ولكن
صَادَفَ هذا.
وَلَهي أن أسْتجلي
جسَدَ الأشياءِ، وأمشي خلفَ خُطاها
وَلَهي أن أرْعَى نجماً
أن يشردَ وجهي في وجه الشّمسِ
وأُسْلِمَ صَدْري
لِبهاء مَداها.

*

لولا الفارابيُّ وأحمد[1] والكتّابُ وأهل الفَنِّ، ولولا

العلماءُ،

كانت حلَبٌ قَفْراً.

هُمْ أعطونيَ مَجْدي،

وَبِهم حلَبٌ قالت وتقولُ رؤاها

وبهم عرفتْ

أن تُوغل في سِرّ الأشياءْ.

*

(١) يشير إلى المتنبي، والمعروف أنه بقي معه في حلب، تسع سنوات، بين ٣٣٧هـ. ـ ٣٤٦هـ. (٩٤٨ ـ ٩٥٧م). والمعروف أيضاً أن سيف الدّولة وُلد في السنة نفسها لولادة المتنبي، سنة ٣٠٣هـ ـ ٩١٥م. وأنه مات بعده بسنتين ٣٥٦هـ. وأنه أنشده آخر قصيدة في حلب، سنة ٣٤٥هـ، والتي يقول فيها:

ولا تبال بشعرٍ بعد شاعره
قد أُفْسِدَ القول حتى أُخْمِدَ الضَمَمُ.

٣٤١هـ:

أَلدّمشْقُ يبكي. تَرهَّبَ. أشفَقْتُ. لن يُقْتَلا
سيرى عندنا مَلاذاً
ويُكرَّمُ. أوصيتُ خيراً بهِ.
كان يأتي إليهِ نَصارَى حلَبٍ للزِّيارةِ. يوماً،
أخذته مواجيدُه وأسرارُها،
وارتقى في سلالم رؤياهُ: «كلاّ،
لن أعيش أسيراً، هُنا»، وقَرّر أن
يشربَ السُّمَّ. أَعطَوْهُ في خِفيةٍ ما أَرادْ
وتغاضيتُ رِفْقاً بهم
وسمحتُ لهم بِالصّلاةِ عليهِ، والحدادِ عليهِ،
شأنَهم في تقاليدهم،
وبلبْسِ السَّوادْ.

*

كلّما قلتُ: رومٌ، أُحِسُّ بأنّيَ أُصْغي
لِعذابِ ابْنِ مَرْيَم:
ـ يا سيّدي
لم أحارِبْكَ يوماً.

وأُصْغي
بحنانٍ وحبٍّ لصوتٍ يُغنّي
لمجدِ ابنِ مَرْيَمَ:
«أنتَ الطّبيعةُ ـ ما قَبْلَها، وما بعدها،
والتّحوّلُ أنتَ، وأنتَ الفصولْ»،
أو يُغنّي لِصَلْب ابْنِ مريمَ:
«أنتَ الطّريقُ،
وفي السّفرِ اللاّنهائيّ، أنتَ الوصولْ».
ـ لم أحاربْكَ، يا سيّدي، لم أُحارِبْكَ يوماً.

❊

أتساءَلُ: مِن أين جاءَ يقيني
بأنّيَ أعرف أحوال غيري،
وأحوالَ نفسي ـ
وأنا الآنَ أجهلُ مِنّيَ أمسِ؟

❊

ذاهبٌ في غَزاةٍ غداً. ولماذا؟
ألكي يَتعالَى صراخُ العَبَثْ
فوق صَمْتِ الجُثَثْ؟

❊

ليس لي من طفولتيَ الآنَ غيرُ الصُّوَرْ
صورٌ ـ ذكرياتٌ
لا كلامٌ، ولكن
أبجديّة وَرْدٍ وضَوْءٍ تتلألأ في طَبقات النَّظَرْ.

*

أَحْرقوا، دمّروا،
نهبوا كلّ شيءٍ
والنّساء اسْتُبِحْنَ: اغْتُصِبْنَ، سُبِينَ ـ بماذا
أسوّغُ هذا،
وكيف أدافعُ عنهُ؟
بجهاد العدوّ؟ بنبل الجهادِ، وبأسِ الكفاحْ؟
والجنودُ اندفاعُ رياحٍ:
أَهُناك سبيلٌ لِصَدِّ الرّياحْ؟
حَيرتي عَبَثُ الدَّهْر:
من يأسِرُ الأرْضَ يحيا أسيراً على الأرضِ،
والمستبيح هنا أو غداً
سيكون هنا أو غداً مستباحْ.

*

الحروبُ التي خضتُها
وانكسرتُ هنا، وانتصرت هناكَ، الحروبُ
التي دَمّرت عدوّيَ، أو دَمّرتني
لم تزدنيَ إلاّ ضياعاً ويَأْساً.

❊

في انكساريَ، في ذُروةِ الفجيعَهْ،
دائماً،
كنت أشعرُ أنّيَ أصْفَى
وأكثر قرباً لنفسي
وإلى حكمةِ الطَّبيعَهْ.

❊

لم أَشَأْ أن أُطارِدَ كافورَ[1]، أو جُنْدَهُ
والأسارَى سمحت لهم أن يعودوا إلى أهلهم:
لم أَشأ أن أشاهدَ خيلي
تُخوِّضُ في بُرْكةٍ.
إمْضِ كافورُ ـ رأسُكَ في مأمَنٍ
وجيشُكَ في مأمنٍ،
وطريقُكَ مفتوحَةٌ.

❊

(١) لقيه وجنده في الرَّسْتن، قرب حمص، فانهزموا. أمر سيف الدّولة جنده ألاّ يقتلوا أحداً من الأسرى، قائلاً: «الدّم لي، والمال لكم». أسر نحو أربعة آلاف من الأمراء وغيرهم. ومضى كافور هارباً إلى دمشق. ثم أطلق سيف الدّولة هؤلاء الأسرى جميعاً.

خَمْرةُ الأرضِ أبعدُ من نَشْوةِ التفكّر في
أصْلِها،
والطّبيعة أسمى وأعمقُ
مِمّا يقول اسمُها.

*

في الطّريقِ، جنودٌ يموتونَ: بعضٌ
لا يزالون في أوّل العمر، بعضٌ شيوخٌ.
الذّبابُ، الوحوش، الطّيورُ الكواسِرُ
تجتاحُ أحشاءَهمْ.
كلّهم خَطّ نَقْشاً على ساعديهِ،
أو على صَدْرهِ ـ اسْمَه وإلٰهَهْ
آهِ من هذه المتاهَهْ.

*

يا أطبّاء جسمي[1]، اذهبوا الآن عَنّي
إنّ روحي في حاجة
لأَطبّائِها.

*

(١) قبل: كان يقف على مائدة سيف الدّولة أربعةٌ وعشرون طبيباً لينصحوا له بتناول الطعام الذي ينفع مزاجه. (الطّباخ، أعلام النبلاء: ١/ ٢٧٩).

لم أكن مرّةً قريباً لنفسي، كما أشعر الآنَ:

فَوْقي

نجمةٌ أترصَّد أحوالَها.

أتُرانيَ، يوماً،

مثلما وَشْوَشَتْنيَ أمّي:

أتدثّرُ سِرْبالَها؟

*

أتساءَلُ في وحدتي:

أتُرَى اللّيل أجملُ من هذه الشّمس؟

والموتُ، هل هو، حَقًّا، ظلامٌ؟

والسّؤالُ لكي يُسْتَعادْ

وَلَعاً بالخفاء وسِحْرِ السَّوادْ.

*

غالباً، أتساءل: كيف عرفنا

وحدةَ اللّه؟ لا جسرَ ما بيننا،

لا كلامٌ، ولا صورةٌ.

وأضيفُ بشكٍّ وصَمْتٍ:

ربّما ـ نحن لم نخترِ الجهلَ باللّهِ، لم نَخْتَرِ المعرفَه.

رُبَّما ـ هو شاءَ الذي شاءَ:

ألاَّ نرَى منه غيرَ الصِّفَهْ.

*

يتساءَل: ما السرّ في هذه الأرضِ؟ ما الغيبُ؟

مِن أينَ إمكانهُ والمُحَالْ؟

يتساءَلُ ـ وهو السُّؤالْ، وأَصْلُ السُّؤالِ، وسِرّ السّؤالْ.

*

٣٣٩هـ.

كتبٌ ورسائِلُ، أوراقُ شِعْرٍ وعِلْمٍ
خَطّها بيديهِ،
أُخِذَتْ منه[1] في هذه الحَرْبِ. خَيْلي
شَتّاتٌ، وجُنديَ في
مِحْنةٍ.
وأنا لستُ أعرفُ ماذا أقولُ
كلّ ما فِيَّ أنقاضُ حبٍّ وحلْمٍ
ورمالٌ بلا شاطىءٍ، وطلولُ.

*

حلَبٌ لم تكن مرّةً مثلَها الآنَ:
لأُلآءُ بِيزنطيا وخميرةُ بَغداد: زَوْجانِ فيها،
والسّريرُ دمشْقٌ.

*

أتعلّم أن أرسمَ الأفْقَ بالحبِّ، والأرضَ بالقَلْبِ:
هذي
لغةٌ في الصّباحْ
أتنسَّمُ أغوارَها وأسرارَها

(١) الإشارة إلى الخطّاط المشهور علي بن مُقْلة، (مات سنة ٣٣٨هـ)، وكان منقطعاً إلى سيف الدّولة وآل حمدان. وقيل: إن عدد هذه الأوراق خمسة آلاف، ولا يعرف ما كان فيها.
وقد سمّيت هذه الغزوة، غزوة المُصيبة.

في كتاب الجِراحْ.

*

قَدَري أن أكونَ أليفاً
وأُولدَ في كلّ يومٍ،
غريباً.

*

أحملُ السَّيْفَ قيثارةً (هذه لُغَةٌ لا تُحَبُّ وأشعرُ
أنّيَ في حاجةٍ لكي أتنكّبَ عنها)
وأقولُ لهذا الزّمانِ: انْسكِبْ
بين أوتارها
هل يُصدّق[1] أنّي أحنّ إلى أن يكون أميراً،
وأكونَ إلى جنبهِ شاعراً؟

*

(١) الإشارة إلى المتنبي.

أحمدٌ[1] ـ

لم يكن مادِحاً
كان يهجو عمَى الأخرينَ،
ويقرأ أحوالَه وأعمالَهُ
في شمائِلِ ممدوحهِ.
كان يرنو إليَّ كأنّيَ صِنْوٌ
ونِدٌّ لَهُ،
وَيُضيء نبوءاتهِ وهياماتهِ
في التحدّثِ عَنّي.
كان ممدوحهُ
شخصه الغامضَ الآخَرَا.
هكذا، كان يمضي بعيداً في الكلام عليهِ
لِيزدادَ علماً بأحوالهِ.
وكثيراً تساءلتُ: ماذا سيفعل لو كانَ في
موضعي؟
أَتُرى، كان يَنْشَقُّ نصفينِ، مِثلي: يعيشُ
مباذِلَ أيّامهِ،
ويخسرُ أحلامَهُ وغواياتِها؟

(١) الإشارة إلى المتنبي.

وكثيراً، تمنّيتُ لو قال لي مرّةً
خَطأي، والتباسَ النّظَرْ
في أمور البشَرْ.
وكثيراً تساءلتُ:
لكن،
أَتُرَى كان ذلك يلقى لديَّ القَبُولْ
أمْ تُراني كنتُ أجاهِرُ: كلاّ،
باطِلٌ ما تقولُ وتجهلُ ماذا تقولْ[1]؟

(١) المعروف أن سيف الدّولة أعاد الصّلة بالمتنبي بعد تركه مصر، ومجيئه إلى الكوفة. فقد أرسل سيف الدّولة ابنه من حلب إلى الكوفة ومعه هدية، فكتب إليه من الكوفة سنة ٣٥٢هـ، قصيدته المشهورة اللاّمية، والتي يقول فيها:

وسوى الرّوم خلف ظهرك رومٌ
فعلى أيّ جانبيك تميلُ؟
(...)
مِن عبيدي، إن عشتَ، لي ألف
كافورٍ، ولي من ندالكَ ريفٌ ونيلُ.

بلَدٌ ـ بركةٌ مِنْ دَمٍ:
هل أقولُ ـ تعهّدتُها، وأشْرعتُها
لِلملأْ
كي تزولَ عن الأرض نارُ الظَّمأْ؟
(لغةٌ لا أحبّ اللّجوءَ إليها).

*

تفتح الحرب للموت بَحْراً
وللحبّ تُغلق بيتاً،
وتشاءُ الذي لا نشاءُ.
بخطاها، لا بألفاظِها
تكتب الحربُ تاريخ هذا الفضاءْ.

*

سيُسَمّونني خائِناً ـ ولكن
هل أخون المدينَه
إن جلبت إليها ـ في تباريحها ومرارتِها
ما يردّ إليها السّكينَهْ؟

*

عالِياً،

في ينابيع حريّتي -

أشعرُ الآنَ أنّي وحيدٌ،

ومَنْفايَ في بَدْئِه.

❊

قلت للشمس، أمسِ، اغفُري لي

نمتُ أكثر من عادتي،

وسهرتُ بلا حكمةٍ.

ومددتُ يديّ إلى شعرِها،

وصلّيتُ في حضنِها.

❊

فِيَّ ضعفٌ يُهيمن حيناً، فأصرخُ:

«قَرْعُ الحوافِرْ

يتقدّمُ عندي رنينَ المزاهِرْ.»

❊

ليس هذا صباحاً،

إنّه قِشْرةٌ مِنْ صَباحْ

جَرَفَتْها إليّ الرّياحْ.

❊

أهنالك حُبٌّ
شَيخٌ وفتيٌّ في آنِ؟
*
عَرَقٌ يتحدّر مِنّيَ ـ لكن
مِن أين؟ ثيابي
ثلجٌ؟
والأنجمُ فوقي ترجفُ بَرْداً.
*
روميّةٌ عاشقةٌ أسْرَها، وعِشْقُها آسِري،
تأخذني، تسكبُ أحزانَها
في جسدي في دمي،
تقولُ في غبطةٍ ـ والدّمع مرآتها:
«يأسرني أنني
حَرّرني حبُّه
يأسرني أنّني
أُحبّ حبّي لَهُ.»
أقولُ: «روميّةٌ ـ حرٌّ أسيرٌ بها
يأسرني أنّني
أحببتُ حبّي لها».
*

كيف، من أين أصلح نَفْسي
وأعيد الفضاءَ الذي كنتهُ
لمداراتهِ،
والذي كانَ فِيَّ وما كان عِنديَ،
ضَيَّعْتُهُ؟

*

تتحدّث أمّيَ عن آخَرٍ
فِيَّ. مِن أين جئتُ إليهِ،
ومن أين يأتي؟ غيوبٌ
تتوهَّجُ في صَدْرِها:
«ذاكَ مِن أمْر رَبّي».
لا أُجادِل أُمّي، ولا أَتساءَلُ. أحنو عليها
وأفوّض أمْري إلى أَمْرِها.

*

حُلُمي في اتّجاهٍ، جسدي في اتّجاهٍ، وفكريَ في آخَرٍ:
لا تَناقُضَ،
بل وحدة الضّوء والظّل في هذه الحياةِ ـ

وحدة السّاهر المشرّد

في غابةِ الكلماتِ.

*

سَايَرْتُ نَهْرَ قويْقٍ: ضِفّةٌ لبستْ

وَجْهَ التّرابِ، وأُخرى تلبس الأُفقَا

في صوته قَلقٌ ـ أَقْفُو تموّجَهُ

فأحضنُ الصّوتَ، لكن أعشقُ القَلَقا.

*

جسَدي خُبْرتي، ـ

ليس لي غيرُ ما قامَ أو نامَ فيهِ،

مِنْ بَهاء المسيرةِ

في عَتَماتِ الكِفاحْ.

ليس لي غيرُ هذي المباهج، هذي الجِراحْ.

جسدي خُبْرتي ـ

أخذتْهُ إليها سماءُ الغيومِ، وتُزْجيه في فَلَكِ

الرّصْدِ، هُوجُ الرّياحْ.

*

كنتُ أقولُ: أُحِسّ بأنّيَ أُولَدُ كلَّ صباحٍ،
واليومَ أقولُ:
الموتُ أمامي والموتُ ورائي.
الشُّبَّاك شِبَاكٌ
والمقعدُ، حوليَ، خالٍ.
أحدِسُ: ضَيْفي، هذا اللّيلَ، شهابٌ أعمى.

*

قال يتابعُ أفكاراً، كنّا نَتحاوَرُ فيها:
«كنتُ أسائل عَقلي عَمّا كانَ، وعَمّا
يتكوّنُ ـ مِن أشياء الغَيْبِ، ومن أشياء
الدّنيا.
لم أسأل يوماً حِسّي،
ألهذا لم أعرف شيئاً
وأموتُ غريباً عن نفسي؟».

*

حولي أشياءٌ كنتُ أراها
كلّ صباحٍ.
واليوم أحسّ كأنّيَ لم أعرفْها

وكأنّي لم ألمحها، قَبْلُ ـ تُرانا
نُولَدُ في لحظات الموتِ،
أمِ الأشياءُ تحولُ:
الطّفلُ يراها في ثوبٍ
والشيخ يراها في ثوبِ؟
طِفْلٌ في جُبّةِ شيخٍ،
شيخٌ في طَلْعةِ طِفْلٍ ـ
لا أزمنةٌ، لا أعمارٌ،
بل أحوالٌ ومواجيدٌ.

❊

لو تَيسَّرَ لي أن أعودَ كما كنتُ طفلاً،
وخُيّرْتُ، لاخترْتُ
ألاّ أفكّر، ألاّ أُحارِبَ،
لاخترتُ حِسّي
ولأغرقْتُ في الحبِّ، في فتنةِ الحياةِ،
وفي فطرة الطّبيعةِ نَفْسي.

❊

أمسِ حيّيْتُ نَهْرَ قويْقِ
عند مفرقِ بيتي
وتحدّثْتُ مع وردةٍ.
لم أفكّر، قبل حبّي لها،
أنّني قادرٌ أن أحيّيَ نَهْراً
وأن أتحدّثَ مع وردةٍ.

*

أحببتُ دونَ حنانٍ دونَ عاطفةٍ
وما تشَهّيْتُ إلاّ ما أُلاَمِسهُ
في عُزْلةٍ عِشْتُ: لا ضِدٌّ يُشَاطرُني
نُبْلَ الصّراعِ، ولا نِدٌّ أنافِسهُ.

*

كانت الحربُ حيناً عَزاءً
لِيَ عن وَحْدتي، وحيناً هُروباً.
من صَغَارةِ هذا الزّمانْ
والذين يموتون في الحرب، كانوا
لعبةً أو رِهانْ.

*

أَتعجّب مِنّي

كيف أمضيت عمريَ في الحَرْبِ ـ
حَرْب السّيوفِ، وحَرْب الكلامْ،
كيف لم يرفع الشّعراءُ البيارقَ
للحبّ أو لِلسّلامْ.

أتعجّب مِنّي ومنهم

كيف كنّا نغنّي لِتحطيم مَنْ ليس مِنّا
ونزهو بهذا الفناءِ وهذا الحُطامْ.

*

ربّما لم تك الحربُ إلاّ ثوبيَ المستعارْ
كي أغطّيَ عجزي عن الفكر، أو أتجرأَ حتّى
أقولَ لِهذا الغبار الإلٰهيِّ: أنتَ
الفريسةُ والوحشُ
يا آدَمَ الغبارْ.

*

للأشياء كلامٌ أَبْهى، ودَمٌ أَغْلَى:
تُقْتل أمٌّ
كي تُؤخَذ مِنها مِرآةٌ.

يُقتل طِفلٌ
كي تُؤخذَ منه لعبتهُ.
يُقتل شيخٌ
لِيُجَرَّبَ نَصْلٌ.
ما لي أتذكّر هذا؟... جسَدي واهٍ... أَصواتٌ؟
أصغي: حشدُ ملائكَ فوقي في طبقات الغيم وفوق سريري؟
هل يُنذرني؟ هل يسخرُ منّي؟

*

جالِسٌ في سريري، أُسائِلُ نفسيَ:
ما الحربُ، ما الحبّ،
ما الحكم، ما حلَبٌ؟
كلماتٌ
تتخاصَمُ فيَّ،
وتعلو وتهبطُ،
تأتي وتمضي،
وأجهلُ ماذا أقولْ.

جسَدي في مكانٍ،
وفراشيَ في آخَرٍ،
إنّها لحظةُ الدُّخولِ إلى غَيْهَبِ الأفولْ.

*

أأقولُ الآنَ لِسيفِ الدَّولهْ؛
لستَ عَلِيًّا؟
أأُسائِلهُ: مَنْ أنتَ؟ ولكن،
مَنْ كانَ عَليٌّ قَبْلَهْ؟
سِرٌّ مكنونُ،
لا، لن أسألَهُ: مَنْ سيكونُ؟

*

المكان سَريرٌ
يَتَشَعَّثُ في ريحِ هذا الزَّمَانْ، ـ
إنه الوَقْتُ: وَجْهي يَردّ إلى الشّمسِ
ما كان فيهِ،
مِن تقاسمها،
ويَدايَ إلى الموتِ مَمْدُودتانْ.

*

مِن غبار المعاركِ، فوق ثيابي
جمعتُ الكثيرَ،
وسَوّيتُهُ لِبْنَةً،
وأوصيتُ صَحْبي:
«عند موتي[1]، ضَعوها
مُسْنداً تحت خَدّي».
*

(١) يُروى أن سيف الدّولة غُسِل، لمّا مات، تسعَ مرّات: بالماء، والزّيت، والنيلوفر، والصّندل، والعنبر، والكافور، وماء الورد، والماء المقطّر، والزّعفران. وبلغ ثمن كفنه ألف دينار، ودفن في ميّا فارقين، سنة ٣٥٦هـ، بعد مقتل المتنبي بسنتين.

أوراق خـولة

أوراق خَوْلة*

[كتبت هذه الأوراق بين ٣٤١ ـ ٣٤٨هـ]

في الشّمسِ، اليومَ، رأيتُ لجسمكَ ظِلاّ
فوق فراشي.

*

أَلوقت يَصيرُ تراباً، يا ماءَ حياتي
هل ستمرّ؟ رَجاءً، مُرَّ. البَابُ سيبقى
مَفْتوحاً.
حُرّاسي؟ عُشّاقٌ أَيضاً.
ولهم أسرارٌ ومواعيدٌ ولقاءاتٌ. . .

*

لِلسّرير الذي سَأُلاقيكَ فيهِ،
العشيّةَ، بَوْحٌ
تَتَمازَجُ فيه روائحُ وَرْدٍ ومِسْكٍ،
وروائحُ نَدٍّ. وفيهِ
أَلَقٌ مِن بَهاءِ النّخيلِ، وفيهِ
واحةٌ رسمتْها

* الأخت الكبرى لسيف الدولة، وهي التي كانت بينها وبين المتنبي علاقة حبّ، في رأي بعضهم. تُوفّيت في مَيّافارقين، سنة ٣٥٢هـ. وكان المتنبيّ آنذاك في الكوفة. ورثاها بقصيدته المشهورة، والتي جاء فيها:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ
فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً
شرقت بالدمع حتى كاد يَشْرَقُ بي.

ويُعلّق الواحدي على أحد أبيات هذه القصيدة في شرحه قائلاً: «أساءَ في ذكر حسن مبسم أخت ملك». ودافع عنه ابن جنّي، قائلاً: «كان المتنبي يتجاسر في ألفاظه جدًّا».

وفي هذه القصيدة، يقول:

قد كان كلّ حجابٍ دون رؤيتها
فما قنعتِ لها يا أرضُ بالحجبِ
وهل سمعتِ كلاماً لي ألمّ بها
فقد أَطَلْتُ وما سلّمتُ من كثَبِ.

بالحنين وأيّامهِ
خواصِرُ غِزْلانِها.
في السّرير الذي سألاقيك فيه، العشيّةَ، هذي العشيّةَ،
ميثاقُ غاباتِنا
ومُحيطاتِها.

*

أَعْطِ للحربِ وقتاً أقلَّ وشعراً أقلَّ. عَذابٌ
أن أراكَ إلى جَنْبِهِ[1]:
أنتَ في حيرةٍ،
وتُكابِدُ ما ليس منكَ، وما لستَ مِنْهُ.
وَهْوَ مُسْتَبْسِلٌ
واضِعٌ رأسَهُ بين سَيْفٍ وسَيْفٍ،
ضائعٌ بين بيزنطيا ودِمْشقٍ، -
تلك قُدّامَهُ تكرّ تفرُّ، وهذي
خلفَهُ: كيدها عَظيمٌ.

*

(١) الإشارة إلى أخيها سيف الدولة.

في الفراشِ الذي ضَمّنا
يكتبُ الحبُّ والحلمُ والرّغبَاتُ صحائِفَ أيّامِنا،
مثلما تكتبُ الحقولْ
ما تقول الفُصولْ.

*

كلّ تلك العوالم في جَنّة الوَعْدِ،
في وَهْميَ الأنثويّ، حياةٌ
أتقلّبُ فيها
بين أحضانه الخالِقَهْ ـ
أين أنتَ؟ اغْترِفْني
أَعْطني ماءَ قلبكَ، خُذْني إليكَ،
إلى نار شَهْوتِكَ الخارِقَهْ.

*

لا دَمٌ في عروقي
غيرُ ذاكَ الدّم المتفجّر منه إليَّ. وهذي
غرفتي تتقلّب في نارِها
وتهامِسُ جُدْرانَها:
لا أصدّق ـ لَيْلي، وحُلْمي

والنّوافذُ، والبَابُ: هذا
كلُّه، مِثْلُ ضَوْءٍ
يتبجّس مِنه،
ومن ذِكْرِه،
آسِري، وأُصلّي
كي تَضيقَ عَليّ عُرَى أَسْرِهِ.

❊

آهِ طَعْمكَ! ما زالَ ريقي يُسافِرُ فيهِ:
لِسانيَ سُكْرٌ،
وفي شفتيّ جُنونٌ.

❊

طولَ اللّيلِ، أُنَقِّل خَطْوي
في الدّارِ، هنالكَ ـ حيثُ...
وحيثُ الماءُ انْسكَبَتْ.

❊

الموتُ أسيرٌ
والحارِسُ أنتَ وحبّي.

❊

قَلْبي جُزُرٌ

سُفُنُ الحبّ الأولى تُرْسي فيهِ،

ورياح الحبّ الأولى تغدو وتروحُ إليهِ،ـ

لا رُبّانٌ إلاّ أنتْ،

أبْحِرْ فيّ إلينا، كيف تشاءُ، وأنّى شِئْت.

*

كلَّ يومٍ،

أقولُ لهذا السّريرِ، لهذا الغطاءْ

جسَدي ناحِلٌ،

ويُحبّ التموّجَ بين يديهِ،

ويُحبّ العرَاءْ.

*

أَمضيتُ ليليَ أسألُ اللّحظاتِ عنكَ،

أشمُّ جِلْدكَ في الغطاءِ،

وفي الوسادَهْ،

صَدّقْتُ: كلُّ غوايةٍ

رَبٌّ، وكلُّ هوىً عِبادَهْ.

*

ليَفعلوا ما أرادوا، لن تُفارِقَني
جِنّي، ولن أتخلّى عن شَياطيني
وكيف أكتم حبّي، أو أقنّعهُ
حتّى ثِيابي وأَحْلامي تُعَرّيني.

*

أَلقصائِدُ ـ تلك التي كنتَ تكتب في دَفْتري
بين ثَغْري ونَحْري،
يَتَقافَزْنَ، يأتينَ ليلاً إليَّ،
يداعبْنَ ثَدْييَّ في ليلكَ السّاهرِ،
آهِ يا ساحري.

*

قَمرُ اللّيل جَوْعانُ،
والوقْتُ مِثلُ السِّوارْ
هُزَّ جذعي إليكَ، احْتَضِنّيَ ـ
ملأى بحبّيَ،
ملأى بأشهى الثّمارْ.

*

اليومَ، حصاني
لم يعرف كيف تجيء الشّمسُ
لينهضَ كي يَلْقاني،
دَاعَبْتُ سوادَ قوائمهِ،
والعُنُقَ، الرّأْسَ، وغُرّتَهُ
بردائيَ ـ بالأَزْرارِ، وبالأَرْدانِ.

*

بين ثَدْيِيَّ طيفٌ:
رأسهُ مثلُ طِفْلِ
وادِعٌ، دافِىءٌ.

*

أنتَ فَضاءٌ وأنا تيهٌ ـ

ما أَبهى تيهَ الإثْنينْ،
يا قَمري الأَبْهى ما بين القمرينْ.

*

ليس لي أجنحهْ
كي أطيرَ إليكَ، وهذا
شَغَفي: أن أكونَ كأرضٍ
وتَجيء إليَّ، وتهبطَ في ظُلماتي
أنْ أكونَ كبابٍ على سُرّة الزّمانِ،
وأن تَفْتَحَهْ.

*

هوذا بَصري ـ طائِرٌ، سابِحٌ، غارِقٌ
عَالِقٌ بطريقكَ أنّى تَوجَّهْتَ، أو كنْتَ.
ماذا،
تفعل الآنَ، يا سيّدي؟
خُذ يدي، خُذ يدي.

*

آهِ من فِكْرة الحريمِ،
ومِن ملكوتِ الحريمْ
جسدي، مِثْلُ فكري، جحيمٌ
جسدي، مِثلُ فكري، رجيمٌ، ـ
تَبارَكَ شيطانيَ الرّجيمْ.

*

أَلكرسيُّ يجرّ خُطاه سِرًّا
لِيرَى: هل ثوبُكَ هذا المَرْميُّ، إزاء سَريري؟
وأنا لَمّا أسْتَيْقِظْ.

*

وَحْدي ـ لا طَعْمَ لهذا الشّايِ، ومنه شَربْنا
أمسِ، وكان لذيذاً.

*

أمسِ حلمتُ. رأيتكَ نَهْراً
وأنا فيكَ أغوصُ وأنزل حتّى القُعْرْ
صَوْبَ البَحرْ.

*

ما لجسمي غريبٌ ـ
لا عليلٌ، ولا خالِصٌ
مِن عذاباتهِ،
لا مقيمٌ ولا راحِلٌ.
أَلَقٌ في خلاياهُ، لكن
قلَقٌ في خُطاهُ.
امْزُجي عِطْريَ، اليومَ، يا حَيْرتي
امزجيهِ بشِعر حبيبي وأَنْفاسهِ.

*

أَلسّتارُ، البلاطُ، البِساطُ، الحصيرْ
كلّ شيءٍ يقولُ: انْهَضي،
وأَعدّي السّريرْ.

*

من صَنْدلِ حبّي، من مَجْمرتي
يخرج ليلٌ آخَرُ يمشي حول سريري
ويُخالِط ضوءَ البيتِ ويبكي
ويذوبُ حنيناً في حُنجرتي.

*

لا أصدّقُ، لكن
جسَدي غارَ مِنّي
حين قلتُ لفكري:
زُرْهُ ليلاً، وسَلْهُ، وأَخْبِرْهُ
واحْضُنْهُ عَنّي.

*

طُولَ هذي الشُّهورْ
لم أَنَمْ مرّةً
دونَ أن أتغطّى
بالغطاء الذي لَفّنا
وعرفنا أوائل أسرارِنا تحتهُ.
هُوَ لي لونُ وَجْهي وجِسْمي وعينيَّ،
والأَرْضِ في ما تكونُ، وكانَتْ.
وَهْو لي مائيَ الطَّهُورْ.

*

في شَهْر الصَّومْ
غيّرتُ ثيابي
غيّرتُ غلائل نومي
غيّرتُ بياض سريري، ووسائده،
كي لا أنقضَ صومي
كي لا ألمسَ إلاّ نارَكَ في أثناء النَّوْم.

*

ما أحبَّ وأغربَ هذا المساءْ:
مِن شبابيكهِ تتدلّى نجومٌ
لابساتٍ غلائلَ مِن وَرقِ الآسِ،
واللّيلُ يرسم أفخاذهنَّ
على شُرفات السّماءْ.

❊

ها هنا، حول بيتي
فوقَ خَدٍّ توَسَّدهُ لازَوَرْدُ المدينةِ،
يكتب رَبُّ الكواكب أشعارَهُ ـ
غرفتي، وهي تقرأ تلك الكتابَة، تقتصّ آثارَهُ
وسريري، رموزٌ
تتفتّحُ في ضوئهِ،
وتعلّم أسرارَها
كيف تَجلو، متى جاءَ، أسْرارَهُ.

❊

مَرّتِ الرّيحُ بيضاءَ، واشتعلَ اللّيْل أبيضَ،
في ذُرواتِ الشّجَرْ،
كنتُ أقرأ ما يكتب الحبُّ بيني وبين النّجومِ ـ
صديقاتهِ،
وأُهيّىءُ أطفالَ حُزْني لِرسْم القمرْ.
*
لم يكن عادِلاً عليَّ[1]
حين أَصْغَى لحسّادهِ[2]،ـ
كيف يقدر أن يسمع الشّعرَ مِن غَيْرِهِ؟
يهرعونَ إليهِ
لا ولاءً، ولا فتنةً
بالجمالِ، ولكن
يهرعونَ إلى مالهِ وإلى زادهِ.
*
إقْتَرِبْ إِقْتَرب
أَلملائكُ مِن فوقِنا في هَوادج أعراسِها،
سأقول لِحُرّاسنا أن يُعِدّوا الخيامَ لِحرّاسِها.
*

(١) أخوها، سيف الدّولة.

(٢) الإشارة إلى المتنبي.

أَلْمآذِنُ في شفتيكَ، على كتفيكَ،
وفي ناظريكَ... سوارٌ،
أم حصارٌ؟
ودروبُ السّماء تؤدّي إليكَ. تَلفَّتْ،
ربّما...
ما أقولُ؟ لماذا
أتذكّر هذا؟
فاطِمَهْ
أَطْفِئي شمعةَ السّرير، وأَعْطي
لِلّهيب المُنوَّر في ذكرياتي،
فَراشاتِها الهائِمَهْ.

*

أَلحبُّ بلادٌ
تَترحَّلُ في أثناء اللّيلِ،
بدون حدودٍ
وبلا حرّاسِ.

*

عندما ينظر الآخرون إليَّ،
أُحِسّ كأنّ لِوَجْهي غطاءً
نَسجته تجاعيدُهم.
عندما لا يراني سِواهُ، أحسّ كأنّي
فَلَكٌ بين أفلاكه الحانياتِ عليهِ
أتنقّل بين يديهِ.

*

أَلسّماءُ تَغَطَّتْ
بغبار المدينةِ، هذا الصّباحَ. غيومٌ
تأسِرُ الشّمس ـ تخرج منها، وتهبط
في حيّنا
مَطراً ساخِناً.
كانَ جِنُّ المساءِ قد استيقظوا باكراً
ومَضَوْا، بعد أن حَمّلوني رسائلَ مِنهمْ
إليهْ.

. . .

سأقول له: واحِدٌ
بينهم، يَتَشَكّى عليهْ.

*

أيَكونُ الفراتُ سريرَ تباريحيَ

الشَّارِدَهْ،

أتكونُ الجبالُ شبابيكَها؟

يا ظباءَ الفراتِ التي لم تَزرْني

مِن زمانٍ ـ (وقالوا:

إنّها الآن تقفو ظباء الحجازْ

وتغنّي لأطلالها البَائدهْ)

يا ظباءَ الفرات التي لم تزرني

مِن زَمانٍ، خذيني

ساعديني، سَلي كيف أَشْفَى ـ

دوائي

مثل دائي، رحيلٌ

في سُهوبِ المجازْ.

*

أكتبُ الآنَ ما يُشبه الرّسالَهْ
لا إليهِ، ولكن
لِلطّريق التي سَلكتْها خُطاهُ،
بعد ذاك اللّقاء الذي ضَمّنا ـ
لِخُطاهُ، لاضطرابِ خُطاهُ في الزّقاقِ
الذي يَنْتهي عند بابي، لِصمت التلهُّفِ
وهو يدقّ على البابِ. يدخلُ ـ جسمي
وردةٌ في يديهِ، هلالٌ
حول أجفانهِ،
وحبّيَ هالَهْ،
أكتبُ الآنَ ما يُشبه الرّسالَهْ.

*

هاهُنا نحن في البابِ، في ظِلّهِ واقفانْ
أنتَ ماضٍ. أنَا؟ نتردّدُ:
كيف نقولُ: الوداعَ،
وجسمي وجسمكَ لا يقبلانِ،
ولا يُصغيانْ؟

*

كان أجدادُنا يقولونَ:

قيسٌ بدايَهْ ـ

لا بدايةَ للحبِّ، كلّ عشيقين بَدْءٌ.

أتُراها النّهاية لفْظٌ، لا لِوَصْفِ الوجودِ، ولكن لِوَصْفِ الكلامِ،

البدايَةُ في الحبِّ والخَلْقِ،

لا تعرف النّهايَهْ.

*

أتذكّرُ. لا غيمَ. كانت سماءُ المدينةِ أصْفى مِنَ الدّمع. قلنا

نارُ أعضائِنا فِراشٌ

والنّجومُ غطاءٌ لنا.

*

لا أصدّقُ ما قال بعض المحبّينَ: «ما كان في الحبّ أَوْهَى وأوهَنُ مِمّا يكونْ»،

لا أصدّقُ ما قالَ بعض المحبّين: «ما كان في الحبّ أَبْقى وأكمل مِمّا يكونْ».

كلُّ حبٍّ جنونٌ بَهِيٌّ

لا تَفاضُلَ في مِثل هذا الجنونْ.

*

زُرْتُ آثارَنا

بين بَيتي وبيتِكَ. فَوّضْتُ أَمْري إليها،

وتَنَسَّمْتُ عِطْرَ الطّريقِ وعِطْرَ المكانْ،

وتَخيّلتُ أنّي

بِاسْمِها، رُحْتُ أَخْتَطُّ تحت السّماءِ سماءَ

كي تُظَلِّلَ عُشّاقَ هذا الزّمانْ.

*

داخلَ نَفْسِكَ تَمْضي، تتوغّلُ. خارج نفسي

أمضي، أتوغّلُ: أنتَ مقيمٌ

حيث الشّعرُ، وأنْتْ

لا حَدّ لوجهكَ. وَجْهي

فَلَكٌ دَوّارٌ

يَتبعُ وجهَكَ أنّى كُنْتْ.

*

أَصْغِ. هذي خُطانَا
تتقدّم خلفَ السّياجْ،
أصْغِ ـ هذا هو الجرَسُ المتموّجُ
في عُنُقِ الرّيحِ،
هذا غِناء المفاتيحِ،
هذا رنين الرّتاجْ.
أصْغِ ـ لا شيءَ إلاّ
جَسَدانا،
وإلاّ السِّراجْ.

*

ليتك الآنَ عنديَ، قُرْبَ السّريرِ،
تَرى اللّيلَ كيف يَجيءُ إلَينا
ساكِباً حِبره في الفراشِ كموجٍ،
راسماً فوقه جَسدَيْنا.

*

أَعْطِها، سيّدي
أَعْطِ أعضائيَ الأسيرةَ، أَعْضائيَ العاشِقَهْ،
أن تُسافِرَ في هذه اللّغة المُسْتَسِرّةِ،
في أبجديّةِ
أعضائكَ الخالِقَهْ.

*

مِثْلَها أنسجُ[1] ـ
غيرَ أنّ عروقي سَداةٌ ودَمي لحمةٌ.
عالياً ـ أترصَّدُ أنوارَهُ
وإلى ساعديهِ، إلى عَرْشهِ،
جسَدي يَعرُجُ.

*

لا أُحِسّ بأنّي أَنامُ، ولو كنتُ أُوغِلُ في النَّوْمِ،
يَقْظَى
أبداً بانجذاباتهِ
وبأنوارهِ ودياجيرهِ.
هوذا رأسهُ بين نَهْديَّ،
والأرضُ تَجْري إلى ربِّها.

*

(١) الإشار إلى بينيلوب.

أقرأ الآنَ، تلكَ الغصونَ التي تتكسَّرُ

في غابةِ الوَقْتِ،

عُريانةً، ندَيّهْ

والتي تتراكمُ في حَقْلِ أيّامِنا.

لم أقلْ مرّةً إنّها ذكرياتٌ

لم أقل إنّها غيومٌ ـ

قلتُ: هذي رياحٌ خفيّهْ.

*

بِاسْمِهِ لاسْمِهِ

كم أُغيّر مَسْرايَ، كم أتنقَّلُ، كم أرحلُ

وأنا هاهنا بين جدران بيتي

خطواتي كقلبي ـ عالَمٌ مُقْفَلُ.

*

غالباً، أتخيَّلُ أنَّك بعديَ[1]،

لن تعرفَ النّساءْ

وأُسَرُّ بهذا التّخيّلِ، لكن

فَجْأةً، تتوهَّجُ فيَّ، كأنَّكَ

تلمس تلكَ النّواةَ التي أتوهّجُ فيها،

فَأصرخُ: كلاّ،

ليكن، وَلْيَعشْ

مثلما شاءَ، لا مثلَما أشاءْ.

*

أتراها حياتي

لا تقولُ سِوى مَوْتها؟

*

(١) عاش بعدها.

ستكونُ لنا بعدَ ليل الهبوطِ
إلى آخر الهاويه،
في مَداراتِ أحْبابنا وأخِلاّئِنا
دَارَةٌ للإقامةِ: لِلشّعر والعِشْقِ أبوابُها
وأساطيرُها،
وللعاشقين ولِلشّعراء نوافذ أشواقِها
وأسرّة أفْراحِها،
ومقاماتُها.
سيكونُ لنا موتُنا
في معارج أسْرارِنا الآتيهْ
لغةٌ ثانيهْ.

*

وَحْدَهُ مالِكٌ لِساني
واللّغات التي تتفجَّرُ من تحتهِ.
وحدهُ عالِمٌ بصدري وما فيهِ من نِعْمةٍ وَضيقِ،
وحده أوّلُ الطريقِ إلى صَبَواتي،
وحده آخرُ الطّريقِ.

*

في زُرْقَةِ الأُفْقِ، أَسْري خلفَ كوكبِهِ
وأقرأ النّارَ والآلامَ والمِحَنَا
بَحْرٌ فَتحتُ له صَدْري، وطُفْتُ بهِ
أعانِقُ الأرضَ والأفلاكَ والزّمَنَا.

❋

بين عُنْقي وصدري فَراغٌ.
فراغٌ
بين دِفْءِ اليديْنِ ودِفْءِ الهلالِ الذي يَتَمْرأَى
في مياهِ المُثَلَّثِ ـ أَنَّى، وكيف
أقولُ لأعضائِكَ القمريّةِ هذا الفراغَ،
وكيف أُهدِّمُ أسوارَهُ،
والحِواريُّ أنتَ، وأنتَ الذي يتملَّكُ أسْرارَهُ؟

❋

ما الذي خلفَ عينيكَ، ماذا يُسِرُّ التَّغضُّنُ
في وجنتيكَ؟ تُريدُ المُضِيَّ
إلى آخرِ التّخومْ
أم تُريدُ التّراجُعَ؟ قل لي،
أيّها القمر المتلألىءُ في وَجْهِهِ،
كيف أقرأ فيه النّجومْ؟

❋

زمَنٌ مِثْلُ غَيْمٍ يُحوّم كالطّيرِ فينا
ونُحوّم فيهِ،ـ
حبّنا غابَةٌ لطيورٍ
صالحتْنا مع الرّيحِ أشْجارُها.
*
جسدانا
يملآن المساءَ بفوضاهما ـ
يحفظ اللّيل إيقاعَها، ويُغنّي
لِلسّرير أناشيدَها.
*
في تقاطيعنا، في خطانا
يقرأ اللّيلُ سِفْر الدُّخولِ إلى حبّنا
مثلما كتبتْهُ أقاليمُنا.
*
فَكّتِ الشّمسُ أزْرارَها
للمغيبِ، رَمت ثَوْبَها
في يديهِ،
وتَغطّتْ بِوَرْدٍ.
*

أتَقاتَلُ في البيتِ مع خطواتي
وأعاتِبُ ثوبي على صَمْتِهِ.
أتمدّدَ فوق سريري، وأُصْغي:
صوتُ نَافورةٍ من عَذابِ
يَجيءُ ويَذْهبُ في زَفَراتي.

*

دَعْ صَدْرَكَ، افْتَحْهُ، قُلْ لي كيف يَتَّسِعُ
لذلك القلَقِ الأكّالِ يمخرهُ
لِلرّعد يَقْصِفُ، للأمواج تَصْطَرِعُ
ولِلصّحَارَى، وللرَّمْلِ الذي امّزقَتْ
فيه الرّياحُ، وناءَ الرّاحلون بهِ
فاسْتَسْلَمُوا، وانْثَنَوْا يأساً، وما رَجعوا،
وكيف تَجْتَرِحُ الإعصارَ يَلْقِفُها
وكيف تَسْمو على الدّنيا وتبتدعُ ـ
أَلصّاعدون إلى آفاقِكَ انْحَسَرُوا
والسّائرونَ على آثارِكَ اتّضعوا
دَعْ رأسَكَ الآن يَسْتَسْلِمْ لِخاصرتي
دَعْ صدرَكَ، افتحْهُ، قل لي كيف يَتَّسِعُ؟

*

مِثلما عَلّمتني رؤاهُ
أنّ نورَ القصيدةِ يأتي إلى الشّيءِ،
يفتح أحشاءَهُ ويسافِرُ فيها،
هكذا، بعده
سوفَ أبدأُ في شَقِّ أحشاءِ هذي الحياةِ
التي تتراءَى كمثل الضّبابْ
ثمّ أمضي، أردّ إلى الأرضِ ذاكَ الهباءَ الذي
أخذته رياحيَ مِنها،
وأصعدُ نحو الأقاصي
على سُلّمِ الغيابْ.

❊

أخذتني الوسادةُ بين يديها
حينما رحتُ أبكي،
وأرسمُ بالدّمعِ حُلْمي عليها.

❊

ربّما آثرَ السّفَرْ

وتشرّدَ كي يتعزّى

حبّهُ عاصِفٌ

وأقاليمُه

شرَرٌ يَسْتَثيرُ الشّرَرْ.

*

قُلْ لي: تلك الغاباتُ الممتدّةُ

في عينيكْ

مِن أين أتاها غيمُ الحُزْنِ؟ وقلْ لي:

هل وَصَل النّبعُ الطّالِع مِنّي

في أهداب الفجر إليكْ؟

*

طُرقٌ ـ ما أكثرَها، ما أقربَها،
ما أوسعَها
وأراها قفراءَ، وكلّ مكانٍ فيها
سِجْنٌ أو ضِيقٌ.
إلاّ واحدةً ـ
تأتي منكَ إليكْ
ما أبهى أن تتمادَى، وتطولَ، وتَنْأَى بينَ يديكْ.

*

أمسِ، لمّا التقينا على النَّهْرِ، ثم أتينا إلى البَيْتِ،
أحَسْسَتُ أنّك تهبطُ مِن كوكبٍ
في قصيدَهْ
قُلتَها في شبابكَ، ـ
أوْغَلْتَ فِيَّ،
وأسْلَسْتَ جسمَكَ لِلحبِّ. قُلْ ليَ:
هل كنتُ نِصْفكَ، منذ الطّفولةِ؟ هل كنتَ
تبحث عَنّيَ؟ قُلْ لي:
أَأَنا مِنْكَ أوّلُ أيامكَ الشّريدةِ،
آخِرُ أيّامكَ الشريدَهْ؟

*

لا أريدُ لحلميَ أن يَتحقّقَ،
كي لا يكونَ لناريَ فيكَ انطفاءٌ،
كي أظلَّ انتظاراً،
كي أظلّ كأنّي على طرَفِ الجمر، أحْيا
وكأنّي أضُمُّ شَفَا هُوّةٍ.
لا أريدُ لحلميَ أن يتحقّقَ فيكَ،
لكي لا أُسافرَ مِنْكَ، لأبْقَى
في أقاليمِ نَوْعي وجِنْسي
أسيرةَ نَفْسي.

❋

كلّما غابَ في وجههِ ناظرايَ
لكي أتنوّر أبعَادَهُ
والهمومَ التي تتزاحَمُ فيها ـ
حسبْتُ كأنّي ألمُّ المساءَ، ألَمُّ الصّباحْ
موجةً موجةً
مِن خليج الجِراحْ.

❋

أنكرتْهُ المدينَهْ ـ
هي في نَوْمِها
وهو في فَجْرِها
يُوقِظُ الحبّ فيها
والشّموسَ الدّفينةَ في أرضها الدّفينَهْ.

*

أين يمضي، إذن؟
نَهَرٌ من جراحٍ لا مَصَبٌّ له،
يتدفّق في فلواتِ السّماءْ
جارفاً حلَباً والفراتَ ومَيًّا فارقينَ، بأمواجِهِ.
أين يمضي، إذن؟
شَجَرُ الحِبْر نكّسَ أغصانَهُ ـ
أين يمضي، إذن؟
لم يعد بيننا غير تَرْحالِهِ ـ وخطاهُ، ووَقْعِ خُطاهُ،
وطَيْفِ اللّقاءْ
لم يعد بيننا
غيرُ أنْ أَنْسِلَ الوَقْتَ كالخيطِ من طيفِهِ،
ومن ذكرِهِ،
وأخيطَ الهوَاءْ.

*

جسدي ـ كم أُحِبّ شياطينَهُ
أَسْتَضِيءُ بِوَسْواسِها
وأفوّض أمري إليها.

*

كيف لي أن أميّزَ بيتيَ بين البيوتْ
أو أُفاضِلَ ما بين رُمْحٍ ونايٍ،
عندما لا يكون أماميَ، في هذه اللّحظاتِ،
سِوى بُعْدِهِ،
وسِوى أنْ أموتْ.

*

دفاتر

(أوراق خاصّة عُثِر عليها وأُلحقت بالمخطوطة)

«كان يستغرق في الدّرس، حتى يمضي من اللّيل أكثره. وقال وكيل داره: «ثم جُنّ اللّيل، فقدّمت له شمعةً، وأمرَ برفع **دفاتر**، وكانت تلك عادته، كلّ ليلة».

(الصّبح المنبي: ١/ ٨٠)

1 / VIII

دفـتر أيقـونات

غَيَّرَ الحِبْرُ أقْلاَمَهُ
غَيّرَ الضّوء أبوابَه وقناديلَهُ
غَيّر الظلّ مَسْرى خُطاهُ، ـ
كلّهم يكتبون تآبين بِيزَنْطيا
وأنا عاشِقٌ لأسرارِها ـ
أتبطَّنُ أيقونَةً
وأسافِرُ فيها.

يُولَدُ اللّيل في وَرْدةٍ. مرايا
تتلألأ بين الظّلالِ. سياجٌ
خلفه، أتلمّسُ أقرأ أيقونةً،
وكانت
وَردةٌ من جراحٍ
تتفتّح فيها (أو تخيّلتُ هذا)،
رأيتُ الكتابةَ حمراء زَرْقاءَ
ترفلُ في بُرْدةِ الطّبيعَهْ
كي تكونَ، كما يحدسُ الشّعر، لَيْلاً
لائِقاً بنجوم الفجيعَهْ.

- ج -

أيقونَةُ صَلْبٍ:

كدتُ أموتُ. جِراحي

تَتمشَّى تحت نوافذَ. مِثلي

تتوهّجُ حبًّا

لِكَنائِس أَنْطاكيةٍ،

جسَدي بيتٌ لِلأسْرارِ، وحُزْني

حِبْرٌ أَيْقُونيٌّ.

أزنُو إليها ـ تُرَى مِن أين جئتُ إلى
أغوارِها،
وسَرَتْ فيها خيالاتي؟
هَذي ـ هُنا صُوَرٌ مِنّي، وذَا أثَرٌ
وهذه بُرَكٌ مِن ماءِ أُغْنِيتي
محفوفَةٌ بطيورٍ من صَباباتي،ـ

ذكرتُ أيقونةً كانت تُعلّمني
أنْ أصقلَ الأرضَ مِرآةً لقافلتي
حُبًّا، وأن أَتَمَرْأَى في مَراراتي.

ـ هـ ـ

في الظّلالِ الخفَيفةِ، عِبْر النّوافذِ
تظهر أشياؤها ـ
ما أقولُ لأشْياءِ أيقونةٍ؟

ما أقولُ عن الشّيءِ، والشّيءُ يَبذخُ في صَمتهِ،
وأنا المُفْرِغُ الشّيءَ مِمّا لَهُ
وأنا المالىءُ؟
ما أقولُ، وتحت لساني
ناطِقٌ ناصِحٌ:
كلُّ صَمْتٍ بريءٌ
والكلامُ هو الخاطِىءُ.

ربّما كانَ هذا الفراغُ مليئاً بأيقونةِ
هي نفسي وأَشْياؤُها.
ربّما كان هذا الفراغ الخيوطَ التي
نسجت ثوبَ أحلامها.
ربّما كان ضوءاً عليها وضياءً لها،
ربّما كان جِسْرَ التآلُفِ
ما بينَ أوهامِها وأيّامها، -

ربّما كان هذا الفراغُ طريقي إليها.

- ز -

يَومٌ يلبس ظِلاّ
يومٌ يلبس خَطًّا
يومٌ بينهما،
يَومٌ عارِ.
أيّامٌ
بِشرارِ المعنى، وبكلّ رمادٍ
مَعْجونَهْ،
أيّامٌ
تَتطايَرُ في صَمْتٍ - في هذي الأيقونَهْ.

- ح -

تَسْرَحُ الأزمنَهْ
بين خَطٍّ وظلٍّ
تَتقدّم في الضّوءِ، بين تعاريجهِ
وتُمازِجُ بين هوَى الأمكنهْ
وَهوَى العاشقينْ.

تلك أيقونَةٌ
تَهْتَدي بتآويلِها
طُرُقُ التّائهينْ.

ما لَنا اليوم:

لا اللّيلُ وَشْوشَ قنديلَهُ

الكلماتِ التي بيننا

مِثْلما اعْتادَ. رِيحٌ

وسَبْعينُ[1] تَهْتَزُّ تحت أعاصيرِها،

وأنا لا مُبالٍ.

وَجْهُ أيقونةٍ

أتشرّد في ضوئهِ

أتبعثر، أسألُ، أحزمُ أمْري

وأُحاوِرُ في صمتهِ ظُلماتي.

(١) سبعين: قرية بباب حلب، وكانت إقطاعاً له من سيف الدّولة. إضافةً إلى الصفّ، وهي ضيعة بالمعرّة، منها هرَب المتنبي إلى دمشق ومصر. أشار المتنبيّ إلى هذا الإقطاع قائلاً:

«أسيرُ إلى إقطاعهِ في ثيابه

على طِرْفهِ، مِن دارهِ بِحُسامهِ».

- ي -

سُفُنٌ مَازجَتْها جراحي تَماهَتْ بها

زَوّجت عِطرَها

لِرياحٍ جَرت، مرّةً،

بما تشتهيهِ.

فَاتَنَا

أن يكونَ لأمواجنا

شاطِئٌ واحِدٌ ـ

كنتُ أقرأ أيقونةً

وأعلّم شعري

كيف يأتي إلى بيتِها.

بستانُ طيوفٍ مَفْتُونَهْ
بوقائعَ ـ لا تتذكَّر مِنها
إلاّ أشجاراً دافئةً
وسياجَ وُرودِ.

بابٌ محروسٌ
إسْمُ الباب العالَمُ واسْمُ الحارسِ
نِسْيانٌ:
هل تَعرفُ كيف ستقرأ هذي الأيقونَهْ؟

لا تُحارِبُ. جَاءَتْ
مِنْ قُسَنْطينةٍ[1]، ومَدَّتْ
لِضفافِ قويْقِ يَدَيْها.
غَمرتْها يَداهُ
وأناخَتْ تباريحَها
بين أحضانهِ.
تلك أَيقونَةٌ
جَمَعَ البحرُ أمواجَهُ وأصدافَهُ ومراكبَ أحلامهِ
مِن شوارعِ أنْطاكيهْ،
وأَتَاهَا إلى حَلَبٍ
كي يعانِقَ أحزانَها العاليهْ.

(١) جاء في شروح ديوان المتنبي أنّ العرب كانوا يجترئون «على استعمال الأسماء الأعجمية، فإن أمكن نقلها إلى أوزانهم نقلوها». وإن لم يمكن نقلها حذفوا بعض أحرفها. مثلاً: أرسطوطاليس، صارت عند المتنبي رسطاليس، وأبرواز أصبحت أبرويز... إلخ. فالعرب «تتصرّف في الأسماء الأعجمية ما شاءت». (شرح البازجي، ص ٢٧٧، و٢٨٧).

مُصَوَّرٌ.

كأنّما

مِن أوّلِ الزّمانِ. كلُّ ظِلٍّ

سَحابَةٌ.

خُطوطٌ

مِثلُ خيوطِ مَطَرٍ مُخيِّلٍ.

يَداهُ، مقلتاهُ

مُسْتَودعٌ مِن كتُبٍ وَوَحْيٍ.

أيقونَةٌ بَقّعها بحبره خيالي

كأنّما صَوّرها إلهُ،ـ

هل المسيحُ لا يزالُ طِفْلاً؟

لا يُريدُ الفَضاءُ الذي يَتحدّث عنها
وَيُوجّه فرسانَهُ إليها،
أن يكونَ جَليًّا
لا يُريد التجسُّدَ:
لا يتمثّل في كلماتٍ، ولا يَرْتَسِمْ.

هِيَ أيقونَةٌ ـ
أُفُقٌ واسِعٌ شاسِعٌ
والفَضاءُ الذي أتحدّثُ عنهُ
مُغْلَقٌ كالرَّحِمْ.

- س -

حِبْرُها بَحْرُها

ولها أبجديّةُ نارٍ ويابسةٍ وهواءِ.

وبأقلامِها

تَتهجَّى أقاليمَها.

يتفتّح حِبْري

برعماً بُرعماً

في حدائقِ أيّامها -

ربّما، في غَدٍ

يُحيطُ، رويداً رويداً، بأحلامِها.

عطَشٌ
يُجْلِسُ الشّمسَ في ظلّ غُصْنٍ.
عطَشٌ
يجعل الغيمَ إبْريقَ حُزْنٍ
ويدلّيه مِن بُرْعمٍ.
عطَشٌ
مثلما يقرأ الرّملُ أمواجَهُ
وتُخَطُّ التّجاعيدُ في وَجْه نَبْعٍ.

عطَشٌ،
أيّ أيقونةٍ
سَتُفجّر فيَّ يَنابيعَها؟

فَاجِىءْ غَدي،ـ

سَكِرتْ عيناىَ، أيُّ رؤًى

تَجيءُ، تلبسُ أَهْوائي ـ مدىً، وصَدَى؟

ظِلالُها، نورُها مَوجٌ وأَشْرِعَةٌ

تطوفُ بي أمَداً مُسْتَشْرِفاً أمدَا:

أيقونَةٌ

ضِعْتُ في أَبْعادِها وَلهاً

ورُحْتُ أقرأ فيها اللَّهَ والأبَدا.

- ص -

هُوذَا
سَأُوَشْوِشُ بيزنطةَ
أنّ بين النّجوم التي تتوهّجُ في رأسِها وبيني،
قُبّةً مِن سَلامٍ وحبٍّ.
هُوذَا
سَأُجَاهِرُ أَنّي أُعاشِرُ أيقونةً:
بأساريرها أتمرأى
وأُطيلُ التوغّلَ في الأرضِ، في ما تَبَقّى
مِن أساطيرها.
هوذا
سأُجاهِرُ أنّي أعانِقُ أيقونةً،
وسأكتب تاريخ حبّي لها وتاريخَ نيرانِهِ
بألوانِها.

كيف لا أضطربُ
وأنا الشّاهِدُ يَرْوي ما رَأَى:
خَرجَتْ أيقونَةٌ مِن بيتِها
لِتَرى النّاسَ، فراحت دجلةٌ
تتغنّى بِهواها
وأتت تحنو عليها حلَبُ.
وتَكتّبْنا لكي نَحْرسَها
أنا والشعر، وكانَ التّعَبُ
حارساً آخرَ،
كانتْ جسداً:
آهَةٌ نارٌ، ودمْعٌ ذهَبُ
كيفَ لا أَضْطربُ؟

أَلسّماءُ ترفُّ هنا، بين هذي الأظلّةِ،
في شَكْلِ جَفْنٍ،
والنّجومُ لِقاحٌ
بين لونٍ ولَوْنٍ.

أخذتنيَ، في دَرجاتِ الفضاءِ،
طيورٌ.
ومَشيتُ خفيفاً إلى غابةٍ،ـ
بَعضُ تلك القيودِ التي فِيَّ تُكْسَرُ،
والأرضُ سَمْحاءُ،
والضّوءُ غَطّتْهُ أحلامهُ.

سَمّني، أيّها الضَّوءُ، أيْقُونةً.

- ش -

يُبْعَثُ الضَّوءُ،ـ
قَشٌّ وَدِيعٌ، سنابِلُ محزومَةٌ
بأشعّةِ شَمْسٍ خريفيّةٍ.
ألحقولُ صحائِفُ، والكلماتُ بذورٌ.

يُبْعَثُ الضّوءُ،
روحٌ ترفُّ على الحَقْلِ. نَجْني، نُعَبِّىءُ ـ
مالَ النّهارْ
كي يعودَ إلى البيتِ. أكْتافُنا
وأكتاف جيرانِنا
تترَنَّحُ تحت الثّمارْ،
مِثْلَ أيْقُونَةٍ.

تلك أيقونَةٌ:

مِثْلَ نَهْرٍ عميقٍ
حُزْنُها مُفْرَدٌ بعيدٌ تحتَ أمواجِها.

وأريد لِحزني
أن يعيش بعيداً مُفْرداً مِثله
في قرارة نَفسي.

ذَهَبُ اللّونِ في ضِفّة النَّهر يفتح أبوابَهُ
ويقول لمن طَرقُوها: ادخلوا.
ذَهَبُ اللّون عانقَ مِعْراجَهُ
ومضَى يتدفّق، في حزنِهِ، باذِخاً.

أتَخيَّلُ أَيقونةً
يكونُ التخيّل فيها
شَبَكاً مِن ترابٍ وغَيْمٍ:
صورةً
تتحدّر من ذُرواتِ التّخيّلِ
في لغةٍ والهَهْ،ـ
بَشَراً لا يعيشونَ إلاّ
في رؤًى، في طيوفٍ
ولهم شَهْوةُ الآلِهَهْ.

- خ -

أتخيَّلُ أيقونةً
لا كنائسَ فيها، لا مساجدَ، لا هيكلٌ.
أتخيّل أيقونةً: شُرُفَاتٍ
ضَوءُها دَهْرُها
وَعَلى رأسِها
قمرٌ عاشِقٌ، وبين يَدَيْها
شَمسُ حريّةٍ وانخطافْ.

أتخيّل أيقونةً
لها الشّعر بدْءُ المطافِ،
وخاتِمةٌ لِلطّوافْ.

ذهَبٌ على ذَهَبٍ، نَثَرْتُ كآبتي
في الضّوءِ، وافْتَرَشَتْ مَداهُ خواطري
تَتلمَّسُ الألقَ البعيدَ وتَرْتَجي
أن يَسْتجيبَ مِدادُه لِدفاتري
وفَرِحْتُ أنّيَ لم أَنَلْ ما شئتُهُ
وفرحتُ أنّيَ كنت أسْعَدَ خاسِرِ:

أيقونَةٌ ـ
أَعطيتُ نظرةَ واثقٍ
لفضائِها،
وأخذتُ نظرةَ حائرِ.

- كلّا، ليس المعنى بيزنطيًّا

أو عربيًّا.

مَنْ قال الشّمس تمدّ يديها

لِلقيد،

ومن سيقول الرّيحُ تَصيرُ حَصاةً؟

- أأقولُ المعنى نجمٌ حائِرْ

في فَلَكٍ دائِرْ؟

يبسطُ الصّمتُ جناحيهِ. شهابٌ
واضِعٌ أهدابَهُ تحت غيومٍ.
ـ ما الذي تقرأ في أيقونةٍ؟
ما الذي تبحث عنه
في خَفَايا لغةٍ مُلْتهِبَهْ؟
عن شَرارٍ آخَرٍ؟
عن دَمٍ يَسْخَرُ مِن سافحهِ؟

بيتُ أَلْوانٍ على تَلّةِ عُشْبٍ:
سِرْبُ طَيْرٍ يرسم البيتَ، قناديلٌ
تَخطُّ العَتَبَهْ.

مِثلَ أَيْقُونَةٍ أراهُ[1]،ـ
لا أمجّد فيهِ
ما يُرادُ له أن يُمَثِّلَ: فارسَ تغلبَ،
أو بَطَلَ المسلمينْ
في القتالِ مع الرُّومِ. هَذي
تُرَّهَاتٌ
لا يُصفّق شِعْري لها
(لم يكن لِيُصَفّقَ مِن قَبْلُ، لولا هِنَاتٌ)،
بل أمجّد فيهِ
حِسّه بالجمال، بفنّ الصّداقةِ، بالشعرِ،
والغَوْصِ في لُجّهِ،
وأمجّدُ فيه الصّديقَ الأمينْ.

(١) الإشارة إلى سيف الدولة.

2 / IX

دفتر للائكة الحبر

ـ أ ـ

أَجْمَع ضوءٌ في المحرابِ وضَوءٌ
يأتي مِن أبوابٍ وهياكلَ أُخْرى
وانْضمَّت لهما
أضواءُ كواكبَ تَسهر بين خيامٍ
لا نَشهد منها
إلاّ ما يُشبهُ لونَ التّفاح على العَتَباتِ، وقالَتْ
لِلزّاهي[1] الخارج: أنتَ
صَفِيُّ تُخومٍ
لا نَتوغَّلُ إلاّ فيها،
أنتَ قرينُ أَعالٍ
سَنَظَلُّ نَفِيءُ إليها.

(١) هو الزّاهي عليّ بن إسحاق الذي وُصِف، ولا أعرف سببَ ذلك، بأنّه «الخارج على إجماع المسلمين». شاعر وكاتب، كان عضواً في حلقة أدبية حول المتنبي. من أعضائها الشاعر علي بن دينار وابن نباتة الخطيب. ويقال إنهم كانوا يتدارسون قصائد المتنبّي في حضرته. مات سنة ٣٥٢هـ ـ ٩٦٣م.

- ب -

نَحويٌّ[1] في بستان الشّعرْ

يَتْلو شجراً

ويُرَتّلُ عُشْباً،

ويقول لسيف الدّولة: أنتَ الحِبْر.

ويقول لماء قويْقِ:

سيف الدّولةِ نرجسُ هذا الدَّهرْ.

(١) الإشارة إلى الشاعر أبي الحسن، علي الشّمشاطي (السّميساطي)، نسبة إلى سميساط التي ينتمي إليها لوقيان.

كان مؤدّب الأمراء الحمدانيين، واختار مع أبي محمد الفيّاضي من مدائح الشعراء لسيف الدّولة عشرة آلاف بيت، كما يُروى. مات سنة ٣٧١هـ.

- ج -

كان يَرْفُو[1] الثّيابَ، ويَرْفو الكلامَ:

يُطرّز هذا،

يزركش تِلكَ. اشْتَكاني

مِراراً،

ولكنّه كان عَدْلاً،

ويُحْسِنُ، فيما وراء الخصومةِ، أَلاّ يُسمّيَ

فَجْرَ القصيدةِ ليلاً، وأَلاّ

يَحْسَبَ القَشَّ وَرْداً.

كان يَسكن في ظلّ شِعْري،

عاصِياً، وَوفيًّا.

(١) الإشارة إلى الشّاعر أبي الحسن السّريّ، الرفّاء (كان في صِباه يرفو ويطرّز في دكّان). وكان من أعداء المتنبّي، ومن المتأثرين بشعره. ويقال إنّه حُمّ حسداً من المتنبّي، وتحامل إلى منزله ومات بعد ثلاثة أيام. (الصبح المُنبي: ٥٦/١ ـ ٥٧).

غَمَرَتْني[1] عطاءاتهُ
غيرَ أنّيَ لم أتغيَّرْ، بقيتُ كأنّي
وَردةٌ في أصيصٍ.
يَعشق الماء تَرْتيلَ عِطْرٍ
يتقطَّرُ في خَفَرٍ واتّضاعٍ
مِن هَيادبِ أرْدانِها.

صِرْتُ خِلاًّ لَهُ:
كنت في دارِهِ
موضِعاً آمِناً أميناً
لأسراره،
وخبايا هَواهُ.

(١) الكلام بلسان الشاعر الوأواء الدمشقي، مشيراً إلى سيف الدّولة. واسم الوأواء محمد بن أحمد أبو الفَرج، وهو مولود في نصيبين. كان موضع ثقة سيف الدولة، وصديقاً للمتنبي. مات سنة ٣٩٠هـ ـ ٩٩٩م.

ـ هـ ـ

طَبْخُ أَكْلٍ على نارهِ،

وعلى نورهِ طَبْخُ شِعْرٍ[1]:

ضِفَّتا نَهَرٍ

يتحدّر مِنْ سُرّة المدينةِ، حيث المكانْ

جَسَدٌ عاشِقٌ

يتقصّى سريرَ ملذّاتهِ

في مَباذلِ هذا الزّمانْ.

(١) الإشارة إلى الشاعر كُشاجم، أبو الفتح، محمود بن محمد. كان طبّاخاً لسيف الدّولة، كما يُروى. مات سنة ٣٥٠هـ ـ ٩٦١م.

- و -

ماذا قال النّاشِئُ[1] أمسِ؟ وماذا
سيقولُ غَداةَ غدٍ؟
يتكلَّم؟ أسْأَلُ:
هَلْ لِلأسْودِ حبٌّ أزرَقْ؟
أَتُرَى، يَرِثُ الوردُ؟ وهذا الزَّنْبَقْ
هل يَتوضَّأُ دونَ حجابٍ؟
والتّفاحُ، أَيُفْتَى فيهِ، إن قال الشّاعر عنهُ:
هذا نَهْدٌ لم يَعرفْ أيّةَ أَفْعى؟
والنّرجسُ؟هل يتزوّج، أم يكفيهِ
أن يَسْتَمْتِعَ، أو أن يَعشقْ؟

قُلْ، يا ناشِئُ. ماذا؟ حسناً،
سنراكَ غَداةَ غَدٍ،
وسَنُصْغي.

(١) هو أبو الحسن علي بن عبد الله، المعروف بالنّاشىء الأصغر. كان من علماء الكلام، إلى جانب كونه شاعراً. مات سنة ٣٦٥هـ - ٩٧٥م.

- ز -

أَعْطني وردةً، وقل لي[1]:

ما الدَّمُ المتسرِّبُ مِنها إليَّ،

ومن أين للشعر أن يتقرّى

تُويْجَ هوَاها وأن يَفهمَهْ؟

لا فَصاحةَ. ليلُ العِبارَة عَبّارَةٌ مُبهمَهْ

والذي قاله الشّعراءُ وما سَيقولونَهُ،

تَرْجَمَهْ

ما تَبَقَّى غيوبٌ

تَتلعْثَمُ، أو تَمتمه.

(١) الإشارة إلى عيسى الرّقيّ، الطبيب المنجّم، وأحد مشاهير المترجمين من السّريانية إلى العربيّة.

- ح -

لمواعيدها

تخرج الكلمات فُرَادَى إليهِ[1]

مِن بيوتاتِها،ـ

موعدٌ لقراءة ما رسمتْهُ

في الدّروب التي قطعتها،

موعدٌ لأَسِرَّة أهوائِها،

موعدٌ لِلتّنزّهِ بين الحقول التي تصطفيها

لِنبات الصّوْز،

موعِدٌ لاقتصاصِ الأَثَرْ.

(١) الإشارة إلى الشاعر ابن نباتة السعْدي، (أبو نصر، عبد العزيز بن عمر). مات سنة ٤٠٥هـ ـ ١٠١٤م، وكان ممّن تأثّروا بشعر المتنبي، تأثراً قويًا.

تركستانُ إناءٌ

لورودٍ لا تَبْلى

وأَبُو بَكْرٍ[1] فيهِ

أَغنى لونٍ،

وهواهُ أطيبُ وَرْدٍ.

أعطَتْهُ حلَبٌ ما لم تقدر أن تُعطيهُ

مدنٌ أخرى في ذاكَ الوقتِ: حدوسٌ

تتجسَّدُ في أدواتٍ،

أدواتٌ

تدخل في الأشياء كمثل النّبضْ

كي تتقصَّى

سِرّ الكون ووجهَ الأَرضْ.

(١) هو أبو بكر الخوارزمي، محمد بن العباس، كان عالماً، وجاء من تركستان إلى حلب، لمزيد من العلم. مات سنة ٣٨٣هـ ـ ٩٩٣م.

- ي -

ماءٌ عَذْبٌ - فلماذا
لا يُنتج إلاّ عطشاً
لمزيدٍ منه؟
لُغَةٌ ترقصُ بين يديهِ[1]:
قلمٌ بِكْرٌ وكلامٌ
جسَدٌ عارٍ -
ليلٌ يتمدّد في أحضانِ الفَجرْ.

وتَحارُ: أتلك شطوطٌ
أم تلك وسائد مُدَّتْ
لِمَلاك الحِبْرْ؟

(١) الإشارة إلى عليّ بن دينار، الخطّاط والشاعر، وكان عضواً في حلقة أصدقاء المتنبّي.

ـ ك ـ

أيّهذا المطوَّقُ بالنّار ـ نارِ التّشوّقِ

والوَجْدِ، يا شيخَنا الخليعْ[1]،

ما أجلَّكَ، أشْعلتَ للشهواتِ قناديلَها،

وأجّجْتَ بركانَها.

ما أبَرّكَ، أعطيت للأرضِ،

حَقَّ السّماء،

ولِلدّهْرِ حَقّ الرّبيعْ.

(١) الإشارة إلى أبي عبد الله محمد بن علي، الشاعر، الملقب بالشيخ الخليع الشاميّ.

لم تكن نافخاً[1] في زجاج الكلامِ،

تَبصّرْتَ،

كالعِطْر يَأْرَجُ، كالعَصْفِ يَجْتَثُّ،

عينُ البصيرة فيكَ،

وعينُ الشّهادةِ نجمانِ: فَنٌّ وحبٌّ.

طَبَقٌ مِن نبيذٍ وخُبْزٍ

كلماتُكَ،

والشّعر بيتٌ لها.

(١) الإشارة إلى ابن نُباتة الخطيب أبو يحيى عبد الرحمٰن بن محمد، وكان خطيب سيف الدّولة. مِنْ أهل مَيّافارقين. ويقال إن خطبه تُتلى حتى اليوم في المساجد، أيّام الجمع. مات سنة ٣٧٤هـ ـ ٩٨٤م، وكان عضواً في الحلقة التي أُنشئت لدراسة شعر المتنبي.

- م -

ـ غالَيْتَ[1] كثيراً،

أَفْسِحْ لسِواهُ

كي يكتبَ شعراً أفضلَ مِنْهُ.

ـ حسناً. هذي واحدةٌ

ليست بين قصائده، الفُضلى.

هل عندكما أفضلُ منها؟

ـ . . .

صَغُرا، صَغُرا وانْهارا

خَرَساً واسْتِخذاءَ.

(١) حوار بين سيف الدّولة والشّاعرين اللذين كانا يغاران من المتنبي كثيراً، ويحاربانه، وهما عثمان وأبو بكر، المعروفين بالخالديّين.

ـ ن ـ

عَجَباً! خالَويْهِ[1] تخيّلَ أنّي غريمٌ لَهُ!

يتجَرَّأُ، يَرْمي جبيني بمفتاحهِ

وعليٌّ يروز ويُصْغي.

لم أحرّك له ساكناً:

راسِخٌ مِثْلَ طَوْدِ.

سيُقال البُغاثُ يناطح صَقْراً

والبَعوضَةُ حَطّتْ على وَجْهِ نَبْعِ.

سيقالُ المدَرْ

دَبّ كي يتسلّقَ جذْعَ القمَرْ.

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن خالويه كان مؤدّباً لأولاد سيف الدولة، ويغار من المتنبي ويحاربه. وقصته معه في بلاط سيف الدولة مشهورة. مات سنة ٣٧٠هـ ـ ٩٨٠م.

قال له المتنبي: «ويحك، أيها الأعجميّ لم يبق إلاّ أنت تخوض في العربية». فلم يحتمل القول وضربه بمفتاح في يده. لم ينتصر له سيفُ الدّولة، ولم يحرّك ساكناً. كان ذلك آخر يومٍ من تسعة أعوام أمضاها مع سيف الدّولة. وكان عمره اثنين وأربعين عاماً.

- س -

لأبي الطيّب[1] اللّغويْ

يتداعى الكلام، يجمّع أزهارَهُ

مِن حقول الرّواياتِ، يأتي إليهِ

وينزلُ في روضهِ البهيْ.

هُوَ مِمّن أحدّثُ عنهم وأكني

بِهِمُ عنهُم، أحاربُ أكشفُ وَجْه الزّمانِ الصّغيرْ

وأدوّن أهوالَهُ

ببروقٍ تخيَّرْتُها وتعهّدتُها

كي تكونَ النّفيرَ النّذيرْ.

(١) هو عبد الواحد بن علي الحلبي، وهو الذي انتصر له المتنبي في نقائضه اللغويّ مع ابن خالويه في بلاط سيف الدّولة. قتل في دخول الدمستق إلى حلب، سنة ٣٥١هـ ـ ٩٦١م.

- ع -

كان ظَنّيَ[1] أنّي أسيرُ إلى فَلَكٍ
أتخلَّصُ فيهِ
مِن سلاسلِ أوهاميَ الباردَهْ.
كانَ ظَنّيَ أنّيَ أَنْضَمُّ للوافدين الضيوفِ
على الشّمسِ، في بيتِها
وأجلس ضيفاً إلى المائدَهْ
كانَ ظَنّيَ سِجْني،-

صِرتُ أضحكُ مِنّي، وأنا جالِسٌ
وأنا سائِرٌ. وقالوا:
فيه مَسٌّ. وقالوا:
هُوذَا! فَلَكيٌّ مِن الجِنّ يَهْذي!

(١) الكلام بلسان الفلكيّ أبو صقر عبد العزيز بن عثمان القابسي، الذي عاش في بلاط سيف الدّولة.

أَلصّديقُ أبو الفَرَج البّبغاء[1]

ينسج الفجرَ ثوباً

لِلصّداقة ما بيننا

ويقول: سأكسو به الكلماتِ،

وأكسو النّهارَ، وأكسو المساءَ.

ويقولُ: غداً،

سوف أنسجُ ما لا أقولُ،

وما لا يُقالُ،

لِغير الأحبّةِ والأصفياءِ.

(١) عبد الواحد بن نصر المخزومي، من شعراء سيف الدّولة، وكتّابه. كان صديقاً للمتنبي. ولد في نصيبين، ومات سنة ٣٩٧هـ ـ ١٠٠٧م.

جاءَه، مرّةً،

وجههُ، غضباً، مِرْجَلُ:

ـ كيف، يا سيدي[1]

تحتفي بِابْن عيدانَ أكثر مِمّا

تحتفي بسواهُ، وبي أوّلاً؟

ـ لم تقل قولَهُ،

لم يقل أحدٌ قولَهُ:

«يعودُ من كلّ فَتْحٍ غيرَ مفتخرٍ

وقد أغَذَّ إليهِ غيرَ مُحْتَفِلِ.»

إنه الشاعر الأَوّلُ.

لم يكن ضَغَنُ الدّارميْ

غيرَ أمثولةٍ:

كان فَرْعاً تَفَتَّقَ مِنّي وسَيْفاً علَيْ.

(١) الشاعر والنحوي أبو العباس أحمد بن محمد الدّارمي المصّيصيّ، المعروف بـ الشامي يُخاطِب سيف الدولة. كان من خواصّه ومدّاحيه، وكان له تلامذة كثيرون في حلب. وهو من أعداء المتنبي. مات سنة ٣٧٠هـ ـ ٩٨٠م. وقيل في رواية، سنة ٣٩٩هـ ـ ١٠٠٨م.

- ق -

يَسْتَضيءُ[1] بميراثِهِ،

يتبصَّر، نَحْواً وصَرْفاً

قارئاً عَتمات الحروفِ، وأصواتَها،

والنّظامْ.

هوذا يَتنوّر تاريخَها، -

يَروحُ ويَغْدو

في أقاليمها ومُناخاتِها،

ويقولُ اهتديتُ لسِرّ الكلامْ.

(١) الإشارة إلى أحمد بن فارس (أبي علي الحسن بن أحمد الفارسي)، العالم اللغوي المشهور، وأستاذ ابن جنّي، مات سنة ٣٧٧هـ - ٩٨٧م.

لأبي فراسٍ[1]

دَيْنٌ عليَّ - أنا الوفيُّ، أقولُ:

شِعْرُ أبي فراسٍ

شُهُبٌ، ولكن لا فضاءَ لها، ودَمْعٌ

يحلو إذا ذرفَتْهُ ثاكِلةٌ، وماءٌ

لا ماءَ فيهِ. أبو فراسٍ

طِفْلٌ بكَى.

وأنا الوفيّ، شكوتُ - أحضن حُزنَهُ

لَمّا شَكَا[2].

(١) الحارث بن أبي العلاء، سعيد. اغتيل أبوه أمامه، وهو في الثالثة. عامله ابن عمه سيف الدّولة كابْنٍ له، وعلّمه. ولاّه على منبج وهو في السادسة عشرة من عمره. قتل سنة ٣٥٧هـ.، وكان في السابعة والثلاثين من عمره (٩٦٨م). وقيل: قتله ابن سيف الدّولة. كان المتنبي يشهد له، ويخشاه في الوقت نفسه، كما يروي المؤرخون. قبل أسره، كان أبو فراس يعيش كإقطاعيّ، موزّعاً وقته بين الصّيد، واستطلاع البدو، والشّعر.

(٢) قال أبو فراس يوماً لسيف الدّولة: «إنّ هذا المتشدّق كثير الإدلال عليك. وأنت تعطيه، كلّ سنة، ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد. ويمكن أن تفرّق مئتي دينارٍ على عشرين شاعراً يأتون بما هو خيرٌ من شعره». (الصبح المنبي).

- ش -

ربّما يعرفُ الخالديّان[1]، أنّ النّوافذَ
ليست رياحاً.
ألهذا، إذن، يَجهلانْ
أَنْ وَجه المكانْ
زمَنٌ آخرٌ لِشعري؟

كتب الخالديّان شِعْرَيْهما
فوقَ خَدّيْ بساطٍ،
والقوافي كما وَرِثاها
والدّروبُ إليهِ، كما مُهّدتْ.

(١) سبقت الإشارة إليهما. في شرح العكبري (١ : ٤٣٤): «أنّ الخالديين أبا بكر وأخاه عثمان قالا لسيف الدّولة إنك لتغالي في شعر المتنبي. اقترح علينا ما شئتَ من قصائده حتى نعمل أجودَ منها. فدافعهما زمناً، ثم كرّرا عليه فأعطاهما القصيدة التي مطلعها:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي
وللحبّ ما لم يبق منّي وما بقي.

فلمّا أخذاها قال عثمان لأخيه أبي بكر: ما هي من قصائده الطّنانات، فلأيّ شيء أعطاناها؟ ثم فكّرا، فقال أحدهما لصاحبه: والله ما أراد إلاّ هذا البيت:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمقٍ
أراه غباري، ثم قال له الحقِ.

فتركا القصيدة، ولم يعاوداه، ولم يعملا شيئاً».

كان أبوه جِنّيٌّ[1]

مملوكاً مِن أبناء الرّوم ـ وما أكرَمهُ

أعطانا

ملكاً في النّحو، وفي آداب اللّغةِ العربيّهْ

كان محيطاً

بفنون القولِ، ويعرف شعريَ خيراً منّي.

يؤسفني

أنّ لساني

لا يقدر أن يُفصحَ عَنّي

لأحيّيهُ

وَفْقاً لأصولِ اللّغةِ الرّوميّهْ.

(١) هو ابن جنّي المملوك، من كبار أئمّة الأدب والنحو وعلوم العربية، تتلمذ على ابن فارس وحين فارقه، وأخذ يعلّم، قال له: «زَبَبْتَ وأنت حِصرم»، فترك التعليم وتبعه حتى أتقنَ العربية وعلومها. سئل المتنبي مرة عن إعراب بيت له، فقال للسائل: «لو كان ابن جني هاهنا، لأجابك». وروي أنّه كان يقول: «ابن جني أعرف بشعري مني». شرح ديوانه وسمّاه «الفَسْر». مات سنة ٣٩٢هـ ـ ١٠٠٢م.

ـ ث ـ

هوذا الفارابيُّ[1] أميرٌ
في ملكوت الفكر، وفي بستان الموسيقى
والشّعر، يُؤاخي
بين ضِفاف العَقْلِ ومَوْج القَلْبِ،
وينطقُ حَدْساً
كي يكتبَ رَمْزاً.

أَلفكر أَخٌ لِلشّعر، وكلُّ مقالِ
صُورَةُ خَلْقٍ للأشياء، وطينٌ ثانٍ
لخلائقَ أُخْرَى.

(١) مات سنة ٣٣٩هـ ـ ٩٥٠م، قتله لصوصٌ في الطريق. صلّى عليه سيف الدّولة، ودفنه في دمشق. صلب قاتلوه حول قبره.

- خ -

(أسئلة إلى الفارابي)

أعرفُ: «الرّوحُ من أمر ربّي»، ولكن
ضائِعٌ،
بين روحي وربّيَ - لا هذه تَتراءَى
ولا ذاك يَدنو.
كيف أحيا ضياعي؟
كيف لي أن أقطّر من ظلمتي شعاعي؟
أتُراني - أكتفي أن أُلامِسَ هذا الحجَرْ
وأسائلَ أنّى، لماذا، وكيف انفطَرْ؟

أم تُراني أظلُّ أُوَشْوِش نَفْسيَ:
معناكِ مَوْجٌ
يَتمزّق فيه شِراعُ الصُوَرْ؟

ـ ذ ـ

(رسالة إلى الفارابي)

أَمْرٌ

أَسألُ رأيكَ فيهِ:

«بين يديهِ[1]

رجلٌ مضروبُ العُنْقِ، وكان الضّاربُ

يمسح بالمضروبِ السّيفَ. ذُهولٌ:

ـ يا مولانا، مَنْ هذا؟

ـ كان يقولُ: «القرآنُ كمثل العالم، مَخْلوقٌ.

قُرْبَى لِلَّهِ، أمرتُ بقَتْلِهِ،

لا عَفْوٌ عن شخصٍ مِثْلِهِ».

ـ هل كنتَ سَتَقْتُلُه،

أم كنتَ سَتَعْفُو عنهُ؟

(١) الإشارة إلى الخليفة العباسي الواثق.

- ض -

(رسالة إلى فيلسوف آخر،
بوساطة الفارابي)

أَلسَّماءُ التي قلتَ عنها
إنّها أنْهرٌ وبيوتٌ
وعقولٌ تفيض الملائكُ منها
بعضها جامِدٌ باردٌ
بعضها عاشِقٌ مُسْتَهامٌ،
والتي قلتَ: فيها نساءٌ
هُنَّ فاتحة الفاتحينَ فضاءَ الوجودِ،
ومِسْكُ الخِتامْ

كلّ هذا الذي قُلْتَهُ
ليس إلاّ طيوفاً
تَتثاءَبُ تحت جفونِ الكلامْ.

ـ ظ ـ

(رسالة إلى الفارابي)

لا تقل ليَ مِن أين جئتُ، ولا كيفَ؟

لا أتوقّعُ مِنْ غَيْم هذا السُّؤالِ المطَرْ.

هل يقول الأريجُ لماذا

يتفتَّقُ عنه الزّهَرْ؟

هل يدلّك جرحٌ

على كنزه المدَّخَرْ؟

والنّجومُ التي تتَراءَى

مرّةً من غبارٍ

مرّةً من شَرَرْ،

لا تقول سوى صَمْتِها.

أنبيٌّ تُرى بعد هذا وذلكَ، يمكن أن يُنْتَظَرْ؟

- غ -

(رسالة إلى الفارابي)

حلَبٌ عَلَّمَتْني،

أنَّ بغدادَ مَسْكونَةٌ بدمشقٍ.

هكذا، مثلك الآنَ، أبْني

وطناً لأثينا

بين شِعْري وبَيْني.

3 / X

دفتر لِلَيْل الأعضاء

«أخبرني أبو الفتح عثمان بن جنّي أنّ المتنبي أسقط من شعره الكثير، وبقيَ ما تداوله الناس».

(نزهة الألباب: ٣٦٦)

«شوهدت بين يدي بعض العلماء نسخ من الديوان (ديوان المتنبي) بخط المتنبي وتصحيحه).

(العكبري ٢: ٣٠٦، ١٢٣، وذلك أثناء وجود المتنبي في بلاط سيف الدولة.)

- أ -

كيف لي أن أصوّرَ حبّي لها[1]،

كيف لي أن أُسمّيَ ما لا يُسمّى؟

وَلَهي أن أذوقَ،

وحين أُعبِّرُ، أُومِئُ

لا شيءَ غيرُ الإشارَهْ.

هكذا، سأَظلُّ أُحيّي الغموضَ -

غموض العَلاماتِ ما بيننا

وغموضَ العِبارَهْ.

(١) كان المتنبي فيما يرى بعضهم يحبّ خولة، أخت سيف الدّولة. ويعلّق الواحدي على بيتٍ له في قصيدته التي رثاها بها، وهو في الكوفة سنة ٣٥٢هـ قبيل مقتله بسنتين: «أساء في ذكر حسن مبسم أخت ملك، وليس من العادة ذكر جمال النساء في مراثيهن».

وقال ابن جني، في هذا الصّدد: «كان المتنبي يتجاسر في ألفاظه جدّاً». وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

والبيت المشار إليه هو:

«يَعلمنَ، حين تُحَيّا حسنَ مَبْسَمِهَا

وليس يعلم إلاّ اللّهُ بالشَّنَبِ».

وفي القصيدة يقول: «أرَى العراقَ طويلَ اللّيلِ، مُذْ نُعيتْ...».

- ب -

«يا معلّم أحشائِنا . . .»

هكذا تسكب اللّيلَ في صَدْرِها

وتسائلُ وجه القمرْ:

هل سألتَ الكواكبَ عن آخر الكلماتِ

التي هَمَسَتْها له؟

هل كتبتَ إلى المدّ والجَزْرِ

أَنّيَ فَوّضْتُ جسمي

ومُحيطاته وأمواجَهُ

إلى السيّدِ المُنْتَظَرْ؟

- ج -

لم يكن مرّةً ليلُنا
يتفكّر، أو يذكرُ
كان يَسْهَرُ، يأتي، يَروحُ كما يتلألأُ نجمٌ،
وكما يَسْهَرُ.

كان ينسى ـ دائماً يَبْدَأُ الطّريقَ
ويَبْدأ أَهْواءَهُ،
ويُثير، ويَسْتَنْفِرُ،
ويقول لنجم الطّريقِ اهْدِني
أيّها السيّدُ الجسَدُ النّيّرُ.

أَغْرَقْتَني، وملكْتَ الموجَ والغَرَقا
يا مالئي غِبْطةً، يا مالئي قَلَقا
أُغوي بكَ اللّيلَ - يَزْهُو بي، ويأخذني
أَخذَ العزيزِ،
وأُغْوي بِاسْمِكَ الأُفُقَا

لَبِسْت وَجْهَك أَسْتَجْلي بهِ طُرُقي
وَريحَها، ولَبسْتُ الرّيحَ والطُّرُقا.

لِشُمَيْلةَ[1] يَأْرَجُ في مَهْد عُشّاقِها

طيبُها، كلّ لَيْلٍ.

لِسُلَيْم بْنِ عَمْروٍ[2]

لمفاتيح مكّة يَبْتاعها قُصَيٌّ

ببعيرٍ، وزِقٍّ من الخَمْرِ،

أَزرعُ في جَنّة الجِراحْ

وَرْدَةً، بِاسْمِ هذا الصّباحْ.

(١) شميلة هي، كما يروي المؤرخون، أول امرأة في الإسلام لبست المصبّغات وعملت الشفوف وعبّأت الطّيب، تزوجها ابن عباس.

(٢) هو سليم بن عمرو الخزاعي وكنيته أبو غبشان، كان سادناً لخزاعة على مكّة. يُروى أنه باع لقريشٍ مفاتيحَ مكّة، ببعيرٍ وزقٍّ من الخمر.

بِضفائرَ لم يعرف الصّباحْ

كيف يجمع أَطْرافَها،

يتوشّى الطّريقُ إلى بيتِها،

ما الذي فِيَّ يَعلو ويَسْفُلُ، يَمضي ويأتي؟

خُطواتيَ أدغالُ طَيْرٍ -

يتقدّم نحوي جناحٌ

وينفرُ مِنّي جناحْ.

- ز -

تلك حَرْبٌ (ونعرفُ أسرارَها)

لم تكن مرّةً حَرْبَنا.

حَرْبُنا وَردةٌ نُحرّر عِطْر اللّقاحِ الذي يتوثَّبُ فيها،

وينابيعُ نُفْلِتُ أمواجَها

وخمائرُ وَجْدٍ وشَوْقٍ

ندلّ عليها، ونُغْري بها.

حَرْبُنا أن يكونَ الجسَدْ

أَبداً آخراً لِلأَبَدْ[1].

(١) «كان المتنبي إذا شُوغِب في مجلس سيف الدّولة، ونحن إذّاك بحلب نذكر له هذا (أي قرآنه) وأمثاله، مِمّا كان يحكى عنه، فينكره ويجحده، قائلاً: «إنما يدعوني بالمتنبي من يريد الغضّ منّي، ولستُ أقدر على الامتناع». (أحد ظرفاء تلك العصبةَ ضِدّه، تاريخ بغداد: ٤/ ١٠٤).

- ح -

لاَ، لا مكانٌ يُؤاخيهِ سوى دمهِ
يشطّ فيهِ، وإلاّ خيمةُ الأرَقِ
يُراقِصُ الثّلجَ ـ في أطرافه لَهَبٌ،
ويحضن الفجرَ ـ مرسوماً على الغسَقِ.

قُلِ الرّياحُ صواريهِ، وقُلْ غدُهُ
سَفينةٌ مَزَجَتْها الشّمس بالأُفقِ.

أَلعزيزُ المشرَّدُ يشكو لأوراقهِ:

«قاعِدٌ، وقميصيَ ليلي، أعلّم ليلي

أن يُخيّل حالي قميصاً لَهَا

يتحوّلُ في كيمياء مداراتِها،

ويُلابس أَسْرارَها.

كادَ نجمٌ يجرّ خُطاهُ

في المدينة، تحت القناطر، في الشُّرفاتِ الحزينَهْ

كادَ أن يتغنَّى كمثلي:

«ما أمرَّ المسافاتِ بيني وبين المدينةِ،

ما أَبعدَ المدينَهْ».

- ي -

قِيلَ عن رَجُلٍ تتعشّق أعضاءَهُ:

كافِرٌ، مارِقُ[1].

خشيت، أن تُصلّي

بعد ذلك، أو أن تمدّ يديها إلى شعرها

أو إلى صَدْرِها.

خشيتْ أن تسافرَ في صَوتها

نحو أعضائِها.

بينَنا، حين يَمضي كلانا، ويفترق العاشقون،

غَدٌ عاشقُ

أيّها السيّد المارِقُ.

(١) كان أعداء المتنبي يشيرون في تهجّمهم عليه إلى قضايا فلسفية في شعره، ويتّخذون منها دليلاً على إلحاده - كالسوفسطائية، والتناسخ، والشيعيّة، والمانوية، وإنكار البعث... إلخ. ويعزون هذا إلى تأثّره باليونان وفارس، والفرق المنشقّة.

طُوبَى لِمداهُ

لِلرّيح تجرّ خيولَ هَواهُ،

وَلْيَتغيَّرْ، مهما شَاءْ.

سأجانِسهُ

وتصير خُطايَ خُطاهُ

وَأُوافِقهُ

في ما سَرَّ، وفي ما سَاءْ.

ـ ل ـ

كيف أتيتَ، وكيف وصلتَ؟

مِن أيّ جسورِ للظنّ عبرتَ؟

ما أَشْهى هذا الثّوبَ عليكَ،ـ

أَغْمُرْنيَ فيهِ، خُذْني

خُذْ أعضائيَ، خُذ آهاتي

أين رحلتَ، وأين حللتَ.

- م -

في جراحي، جراحكِ، ما لا يُقالُ وما لا يُضَاءُ،
غيرَ أنّ الشموعَ التي عرفتنا، رَوَتْنا
لأيّامها ولأحزانِها،
والوسائدَ واللُّحُفَ البيضَ والزُّرْقَ،
والعَتماتِ التي خانتِ الشموعَ، روَتْنا
لأيّامها ولأحزانِها ـ فلماذا
تتركين الجنونَ يفرّ ويهجر أعضاءَنا،
ولماذا البُكاءُ؟

لم أكن مِثلما شئتنِي

لم تكوني

مثلما شئتُ. كوني

بينَ هذا وذَاكْ

ما تشائينَ ـ

أكرهُ فيكِ التّحيُّرَ،

أكرهُ فيكِ السّماءَ، وجَنّاتِها،

وأكرهُ فيكِ الملاكْ.

- س -

تلك خيامٌ، أم كثبانٌ؟
جُثَثٌ، أم أطلالٌ؟
مَنْ أسألُ؟ أيّةُ لفظَهْ
تتقصّاني
وتترجم حالي
في هذي اللّحظَهْ؟

لا، لا أحَدُ
والوقْتُ أنينٌ
والأرض جِراحٌ تَطّردُ.

- ع -

رومِيَّةٌ ـ

تركته هائِماً دَنِفاً
يحيا، يقولُ: «بلا شمسٍ ولا أُفُقِ
أحيا، كأَنْ لا يدي مِنّي، ولا كبِدي».
مَضَى إليها، سرَى ضوءاً، سرَى نَسَماً
وماتَ، مِنْ شَغَفٍ عالٍ ومِن كمَدِ

لم يَشْكُ،
لم يَبْكِ،
لم يُومِئْ إلى أحدِ.

هي روميّةٌ[1]

تتذوّقُ في الشّرْقِ أغوارَهُ،

وأنا؟ مَنْ أسائِلُ عَمّن أنَا؟

يَلْتقي عاشقانِ: التّواصُلُ بينهما لحظتانْ

لحظةٌ كلُّ شيءٍ حضورٌ

كأَنَّ المكانْ

لُجَّةٌ في جسَدْ،

لحظةٌ لا أَحَدْ.

(١) قال الثعالبي في «يتيمة الدهر» (١/ ٥٤): «كان لسيف الدّولة جارية من بنات الرّوم لا يرى الدنيا إلاّ بها، ويشفق من الرّيح الهابّة عليها، فحسدها سائر حَظاياه على لطف محلّها منه، وأزمعن على إيقاع مكروهٍ بها من سُمٍّ أو غيره. وبلغ سيف الدولة ذلك، فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً على روحها».

- ص -

وضَعت آخرَ اللّيلِ في قلبها، وكانت
وضعت أوّلَ اللّيلِ في ساعديْها.
أيّها الحلمُ، رَفْرِفْ برِفْقٍ
طويلاً طويلاً على مُقْلَتَيْها.

شعرها مُرْسَلٌ فوق وَجْهي
ولميعادها شَكْلُ ظَنْيَ ـ ممتزجاً بالجِراحْ:
إنّها شَمْسُ هذا الصّباحْ.

تُرْسهُ في يَدِ
سيفه في يَدِ،
وخُطاهُ إلى بلدٍ آخَرِ.
غيرَ أنّ هواه، رؤاهُ، وأشواقَهُ
تتكتَّبُ في موضعٍ آخرٍ
وتكبّ على جسدٍ آخرٍ
لغدٍ آخرٍ.

عادَ من غزوهِ
رجل الحرب، يجثو
في محاريب زوجته العاشِقَهْ
يتطهَّرُ في نارها الخالِقَهْ.

أتخيّل ذاك المساءَ، وأَشْرُدُ:

منديلُكِ الآنَ عند الوسادةِ حيث جلسْنا.

مُخْدَعٌ ـ كنتِ تأتينَ، تَرْوينَ فيه لِلَيْليَ

أسرارَ ليلكِ. منديلُكِ، الآنَ،

يرشح بالعِطر، عِطْر اللِّقاء، وعِطْر الغِطاء،

وعِطْر العَراءْ.

أتخيّل: منديلكِ الآنَ يُصغي لما كان جُرحي

يوشوش جرحكِ، ذاكَ المساءْ.

- ش -

لو كان اللّيلُ كمثلي

لَتنوّر جسمَكِ عضواً عضواً

ولمَا أغمضَ عيناً

إلاّ بعد مرورِكِ فيها

ولَقالَ لكلّ جزيءٍ فيكِ وفيهِ:

لِلهَذيانِ الضّارب في أعضائكِ، أمنح عَقْلي.

لو كان اللّيل كمثلي.

نامتِ المرأةُ العاصِفَهْ
نامتِ الشُّرُفاتُ العصيّةُ في قَصْرها،
ونَوَمَ حرّاسُها
والمدائن نامَتْ، ونامت ميادينُها
وأفراسُها.

وحده، ساهِرٌ
عاشقاً، يرصدُ اللّحظاتِ، ويزرعُ ما حَوله
بتباريحه الجارِفَهْ.

تحلمُ، تُعطي نَهْدَيْها
لأصابع ليلٍ لا تعرفهُ.
تعطي رئتيها
لهواءٍ لم تعرفْهُ.
تحلم، تعرف أنَّ أثيرَ هَواهْ
كونٌ طيّارٌ.

تحلم، توقن أنّ الحلْمَ سيأتي
وسيلبَسُ هذا الجسدَ المنثورَ كقَمْحٍ،
في حَقْلِ اللّهْ.

- خ -

هِيَ، مثلَ الينابيعِ، تَرْفُلُ في ماء تَرْحالِها
وتلمّ طيور مساءاتِها
حولَهُ،
وتلمّ الزّهَرْ،
وتقولُ الجناحْ
لغةٌ وطريقٌ ووعْدٌ.

وهو، مثلَ الجبالِ ومثلَ الشّجَرْ،
لا يعانِقُ إلاّ الرّياحْ.

فاطمهْ

جَنّةٌ مِن نَخيلْ

طافَ في ظِلِّها

وتزوّد منها قُبيلَ الرّحيلْ.

فاطمه

زوجةُ الفارسِ الذي مات في غَزْوهِ:

أَلسَّماءُ على وجهِها تتمزّقُ،

والأرضُ في صدرها هائِمَهْ.

- ض -

لم نَشِخ، شاختِ السّماءُ -
أَلسّماءُ التي سَرَقْتنا
وكسَتْ عُرْيَها
بِلُهاثاتِنا.
أَلسَّماء التي مِن وَرَقْ
أَلسَّماءُ التي تتمزّق في ريحِنا.
لم نَشخ. شاخ فينا المدارُ، وشاخَ المسارُ،
وشاخ الأرَقْ -

شاختِ الأرضُ: قُلْ ليَ، يا أيُّها الطّفلُ،
يا خالقَ الحبِّ، هَلاّ غضبَت،
وغيّرتَ هذا الفضاءَ!

أَتُرَاهُ التّعَبْ

كان إرثاً لنا وحدنا؟

أتُرَى الرّيحُ أَنَّتْ، وحنَّتْ

مِثْلَنا، وبكتنا وأَعطَتْ

لملائكِ أحزانِنا كلّ نايٍ

صَنَعَتْهُ الطّبيعةُ

مِنْ بُرَحاءِ القَصَبْ!

-غ-

لم تقل إنّها نَسَمٌ لا يقول اسْمَهُ،ـ
يتوسَّدُ زَنْدَ الفضاءِ، يجرّ على الزَّهْرِ
أحشاءَهُ،
لا يقول اسْمَهُ.
يَلِجُ اللّيلَ، يقرأ لِلّيل أحلامَهُ
لا يقول اسْمَهُ.

لم تقل إنّها نَسَمٌ
لا تقولُ الرّياحُ الغصونُ النّوافِذُ
إلاّ اسْمَهُ.

ـ غ ـ ٢

(استطراد)

ـ أ ـ

أَلنّساء يُطوِّقْنَ حُبًّا خديجةَ في قَوْلِها:

«جاءني مرَّةً

وعلى رأسهِ، مثلَ ظلٍّ، غَمامَهْ

قلتُ: هذي علامَهْ ـ

أَنّهُ السيّدُ الذي شئتهُ،

لأكونَ له زوجةً.

كنتُ في الأربعينَ ولي ما أشاءْ

وتزوّجتُ شخصينِ مِن قبلِهِ.

أوّلُ امْرأةٍ صدّقَتْهُ ـ نبيًّا، أنا،

فأنا أوّل المؤمناتِ ـ»/ «خديجَةُ خير النّساءْ».

هكذا قال عنها النبيُّ

(رواهُ مسلمٌ والبخاري).

أَلنّساء يُطَوّقْنَ حبًّا خديجةَ في حُبّها.

كيف لا نتقصّى كلامَ النبيّ ومعناهُ - «لم ينزل الوحي يوماً

وأنا في لحافِ امرأَهْ،

غيرِها».

وعنَى عائشهْ.

كيف ننسى حديثاً لها:

«لم أَغَرْ مِنْ نساءِ النبيِّ، ولكنّني

غُرتُ منها (وتعني خديجةَ)، كانت عجوزاً.

حين ماتت، رأيت النّبيّ حزيناً يخفّ وينزل في قبرها.

أذكر الآن موت النبيّ كأني أراهُ:

ماتَ في نَوْبَتي،

بين رأسي ونَحْري،

خالِطاً ريقه بِريقي».

4 / XI

دفـتر لليل الأشياء

ـ أ ـ

مَرّتْ. هل أتبعُها؟
هل أتلفَّتُ؟ نَايُ الحبّ عتيقٌ،
ويدَايَ بلا قيثارِ.

مَرَّت. مرّ الضّوءُ، ومَرّ اللّيلُ، ومَرّت
غُرَفٌ ووسائِدُ،
بين يدَيْها ـ

مِنْ أين، وكيف أجيء إليها؟

في مدار الغروبِ، دخلنا ـ
نتأمّل في آخر الشّمسِ، لا شيء إلاّ
آخِرُ الشّمسِ: وَرْدٌ
مُتْعَبٌ، داخِلٌ في الغَسَقْ.

خُذْ يدَيّ، تَرفَّقْ
أَيُّها المفترَقْ.

- ج -

وردةٌ. كلّ شيءٍ يؤالِفُ ما بيننا

وَجْهُها واسمُها وشذاها

وأورافُها الدّاميهْ،

هي ذي تتكسّر في ريحِ أيّامِها.

لا أريدُ لعطركَ أن يتقفّى رياحيَ، قالت.

صُوَرٌ ولغاتٌ

في الجهاتِ التي واكبَتْها،

في التّراب الذي عرفته

تَتَبَجَّس من عِطْرها

في معاجمِ آثارِها الباقيهْ.

كم تخيّلتُ أنّي
أَتَأْرجَحُ في عنُقِ الموتِ،
لكنَّ عُنْقَ التخيّلِ،
كان كمثل الأمومةِ ـ
يجذبُ رأسي إليهِ.

ـ لَسْتُ طفلاً،
وأحاول ألاّ أعودَ كما كنتُ طفلاً.

نَجمةُ الموتِ
تسطع في الظلّ،
بين طريقي وبيني.

ترى بليلِ مراياها، أرَى بدمي
كأنَّنا شَررٌ يُسْري به شَررُ
يَقودُنا، إنْ شَطَطْنا، حِبْرُ أُغْنيةٍ
الأرضُ دفترها والشّاعرُ المطرُ ـ

لا تَجهلُ الرّيحُ أنَّا من لواقِحِها
فليس يُثْمِرُ، إنْ لم نَعْشَقِ، الشّجَرُ.

هُوذا دَهْرُنا ـ

لا غَدٌ، لا مَعادْ

قَبْل أنْ تُزْرَعَ الحقولُ، يَحينُ الحصَادْ.

وَانَجِيّاهُ،

أين النّجومُ التي وَشْوَشَتْكَ،

متى، كيف، أنّى

سَتُقَطِّرُ فينا

من عقول سماواتِها،

عَقْلَها المُسْتَفَادْ ؟

نَزَلَ اللّيلُ من ثُقْبِ نَجْمٍ
وأَتَى حافياً
كي يزورَ السّريرَ الذي نمتُ فيهِ -
مَرَّةً،
ويجسَّ الغطاءْ.
لم يَجِدْ غَير خَيْطٍ
نَسجته الطّفولةُ حتَّى
تُوقِظَ الشّمسَ مِن نَوْمِها،
وَتَجُرَّ السَّماءْ.

(١) الأحيمر السّعدي.

- ح -

ضَوارٍ نفوسُ النّاسِ يَزْحَفُ بعضُها
على بَعْضِها، مِن شِرَّةٍ، ويُغيرُ
حروبٌ تَذوبُ الرُّوحُ فيها مَرارَةً
ويَسْمُنُ فيها صاغِرٌ وصَغيرُ

أُحِبُّ كلاماً للأُحَيْمرِ[١]، عالياً
ويأسرُني فيه هوًى، ونَذيرُ:
«عوَى الذّئبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بالذّئب، إِذْ عَوَى،
وَصَوّتَ إنسانٌ فَكُدْتُ أَطيرُ».

ادخلْ لا تدخلْ.
تلك الغابَهْ
أعطى كلُّ فضاءٍ فيها للرِّمل كتابَهْ.

ادخلْ لا تدخلْ.
هل بين الصّخر وبينك خيطٌ؟
هل هذا السّائلُ في خطواتكَ جرحٌ؟

تلك الغابَهْ
جُزرٌ للرِّيح، طيورٌ
مِن كلِّ غبارٍ،
وَدُمىً جَوّابَهْ.
لا تدخلْ ادخلْ.

ناعِمٌ، مُتْرَفٌ

وبَعيدُ الإشاراتِ هذا الشَّرَكْ ـ

يَتَمَوَّجُ، يَلْتَفُّ

حولَ العقولِ وحول النّفوسِ وأهوائِها.

شَرَكٌ ـ أصلهُ عشبةٌ

في السّماءِ، وشِعْرٌ

غمَسَتْهُ جراحاتُنا

في عبيرِ الفَلَكْ.

يحتفون بموتاهُمُ. سيوفٌ
تحمل النّعْشَ. رَقْصٌ
والبكاءُ كما تَشْهَقُ الرّيحُ. أكفانُهم
حريرٌ، والقبورُ قصورٌ.

يُكملون الحياة ـ دروبٌ
تتطاوَلُ حيناً، تتكرّر حيناً،
ولا مَخْرَجٌ.

معهم يجلس الفقرُ سكرانَ ـ مِن مَللٍ أو غَضَبْ
ويُصلّي كما علّموهُ
لِلشّقاء الذي أَلِفوهُ ـ
لينابيع الآمهم
تتدفّقُ خرساءَ من ذُرُواتِ التّعَبْ.

وُلِدْتُ من طينةٍ لم يَرْوَ كاحِلُها
مِن الغبارِ، ولَمْ يُكْشَفْ لها نَسَبُ
أدورُ في فَلَكِ المعنى ـ يرافقني
رَمْلُ الكلامِ، وحِبْرُ الرّفْضِ، والغَضَبُ
وَجْهي فضائي، خُطايَ اليأسُ تكتبهُ
بَوارِقي، ومدايَ التيهُ واللَّعِبُ.

- م -

هو الحلْمُ ـ يكسوني ـ بعَفْوِ سمائِهِ،

ودربيَ،

والأرضُ التي بِاسْمِها أَبْني.

مُصَادَفةً،

أعطانيَ الموجُ شَكْلَهُ

وعلَّمني أنْ أسْتَقي وَلَهي مِنّي

فَصِرْنا كأنّا واحِدٌ متعدّدٌ

أسائلهُ عنه، ويسألني عَنّي.

قُلْ لهذا التّراب اضْطّجعْ، وتَخيَّلْ
أَنّ وجهكَ وَجْهُ امرأه ـ
قل لها علّميني
كيف أهبط أدراج هذا الظلام إِليكِ،
أسافر في حُفْرةٍ
وأشبّه نفسي بظلٍّ،
أو بقطرةِ ماءٍ،
وأغنّي مقاصيرَ عُرْيكِ ـ أبْهَاءَها
وأشياءَها،
وقناديلَها المُطْفَأَهْ.

- س -

تلك أيّامُنا

جارياتٌ كمثل الجداولِ،

حيناً تفيضُ،

وحيناً تشحُّ -

وتَصْفَرُّ أحشاؤُها وتقاطيعُها.

تلك أيّامُنا -

أَلثّلوجُ مَصبّاتُها

والغيومُ ينابيعُها.

- ع -

إنّها الرّيحُ تَعْتَقِلُ الآنَ خَطْوكَ،
والأفْقُ يسجنُ عينيكَ،
والجرحُ أَعمى:
سَلاسِلُ سوداء في زَمَنٍ مَيّتٍ.

نَزَلَ الضّوءُ، في كسلٍ وارتخاءٍ
مِن أعاليه في الشّمس، وارتطمَتْ ركْبَتاهُ
ببقايا شموعٍ،
فَهَوى فوقَها، مُوجَعاً،
والصّباحُ أضاعَ مفاتيحَهُ.

لم يعدْ مكْرُ تلك السّماواتِ سِرًّا.

ليتَ هذا الألَمْ

جاهليٌّ، يجرّ النّجومَ على ظهرهنَّ،

ويرتاحُ في حجرٍ أسودٍ،

ويصلّي

لِلصّحارى وواحاتهنّ وغزلانِهنّ

ويَصْنَعُ من سَعَفِ النَّخْلِ

كوخاً يفيءُ إليهِ،

وصحائفَ حُبٍّ يَفيء إليها الكتابُ،

ومحرابُهُ، والقلَمْ.

كيف لم أَتَنَبَّهْ لماء قويْقِ
وَهو يقرأ ما تكتبُ الصّحارَى؟
ألهذا،
لم أقل إنّ بين الصّحارَى والقصائدِ جِنًّا
يمزجون الرّيّاحَ بأنفاسهم؟
صورٌ في خيالِيَ للجنّ، منذ الطفولة، منقولةٌ
عن كتاب السّماء - تقفّيتُ آثارَها
في ثقوب المسافات، ساءلتُ مَجْرى قويْقِ
وغدرانَهُ،
وتقصّيتُ ماءَ الجرارِ، سألتُ الجِرارا
وأصغيتُ - شُبِّه أنّيَ أصغي إلى الجنّ،
تقرأ أشعارها
وشُبّه أنّا
نتكاشَفُ: تأخذ سرّي، وآخذ أسرارَها.

- ق -

أَثَرٌ - غِزلانٌ مرّت؟ أم تلك قوافِلُ رِيحٍ؟
لم يتغيَّرْ
شيءٌ في البيتِ: الشّمعةُ في المشكاةِ، وكلّ كتابٍ
في موضعِهِ،
والدّفتر، ذاك الدّفترُ، يرقد في صندوقٍ
حيث اعتادَ. ولكن
ماذا قالت للبيتِ؟ لماذا
لم تخترْ وقتاً آخرَ أقدرُ أن أجلس فيهِ
معها، وأحادِثَها؟
ولماذا مرَّتْ؟

أصواتٌ أُوشِك أن ألمسَها
وأحارُ: لماذا لا أفهمُها؟

في مساءٍ مضيءٍ، أَنِستُ لنهرِ قويْقِ
مشينا معاً،
ورأيتُ إلى القمر الطّفل، يَجْري مع النّهر،
يُمسك بالماءِ ـ يسألُ عن وجههِ.

وجههُ حَجَرٌ ـ قالتِ الضّفتانْ.
أفْلتَ الماء من بين كفّيهِ، نامَ،
ونامَتْ على صدرهِ مُقْلتانْ.

- ش -

غَنِّ، يا أيّها الشّيخُ فِيَّ، الطُّفولةَ - وَرْداً، خُزَامَى
حَبَقاً، نرجساً، وأزهار دِفْلى،
وأباريقَ من كلّ خَمْرِ.

ويا أيّها الشّيخُ،
ما زالت الأرضُ تُطْوَى كثوبكَ، والنّاقةُ الحائره
لم تَصِلْ بعدُ، والشِّعْرُ
كالحبِّ: كفّاهُ مغلولتانِ،
وخطوتُه عاثِرهْ.

خِلْتُ نفسي مِراراً

في طريقي إليها

أنني أتحدّثُ مع كلِّ شيءٍ

وأرَى كلَّ شيء

يتفتّح، يُصغي، ويفتَح أحضانَه

ويوشوش جيرانَهُ

أنّه، مِثْليَ الآنَ، يُطبق أجفانَه عليها.

مُدنٌ لا تَزالُ كما أُنْشِئت، ضحيّهْ
تتغنّى بجلاّدها
وتَصقل أسيافَهُ
وتؤرّخ: تابعَ أسلافَهُ
وتشبّه بالسّيرةِ النبويّهْ.

مدنٌ لا تزال، كما أُنْشِئت، خراباً:
بَشَرٌ يسكبونَ الوطَنْ
في قِصاعٍ، يصفّون أجنادَهم حولَها ـ
طابخٌ ينتشي،
آكِلٌ يُفْتَتَنْ.

- خ -

كتبَتْ تَسْأَلُ عن حاليَ، قالت:

«خُذْ يدي، هاتِ يديكْ

عُدْ إلى وجهي، أعِدْ وجهي إليكْ».

لِلّذين يقولون لِلصّمت أوّل أنشودةٍ،
للحجارةِ سَوداءَ فوق الرّؤوسِ، لِلَيْلِ
تتقصّى الكواكبُ أحلامَها مِن شبابيكهِ، لذكرى
حملت نارَها بين أهدابِها،

أتنسّم هذي القصائدَ مِن جَوْفِ حوتٍ
وأُهيّىء للصَّمت آخرَ أُنْشودةٍ.

سَلَلْتُ خَطْويَ مِمّا خُطَّ في حَلَبٍ:
هذي دروبي وهذا آخرُ البَلَدِ،-
أروحُ، أوغل في جرحي وفي لغتي
كأنّ بيتيَ محمولٌ على كبدي.

هَوايَ في فَلواتِ الرَّفْضِ مُعْتَقَلٌ
وتِلكَ ناري تؤاسيه، وتِلكَ يدي.
أجرّ دَهْريَ مَنْقوعاً بخمرتهِ
مُزَمّلاً برياح الواحدِ الأحدِ،-
هذا مُقامي وهذا أوّلُ البلَدِ.

في وجههِ مِنْ بقايا حلْمهِ دِمَنٌ
وفي أغانيهِ مِن أَشْلائهِ مِزَقُ
ضاقت على قدميه الأَرض وانكمشَتْ
عنه، وضاقَ على أهدابهِ الأفقُ.

- غ -

أُصْغي -

تقولُ ليَ القصيدةُ والمدينَةُ والطّريقُ:

لا، لا يَليقُ بيَ المقامُ،

وليس لي مَنْفَى يَليقُ.

باريس ـ برينستون

(١٩٩٥ ـ ١٩٩٧)

www.alexandra.ahlamontada.com منتدى مكتبة الاسكندرية

طبي حواء

ISBN 1 85516 740 9

DAR AL SAQI الساقي